بوجمعة حدوش

كسوف عقل

رواية

رواية: كسوف عقل

المؤلف: بوجمعة حدوش

التدقيق اللغوي: مصطفى قدوري

الطبعة الأولى: دجنبر 2019

رقم الإيداع القانوني: 2019MO6410

الترقيم الدولي: 978-9954-598-16-0

إهداء

إهداء خارج عالم الرواية: إلى من قرأ لي وسيقرأ لي، إلى كل من كان سندا وعونا لي في إتمام هذا العمل، إليكم كلكم أهديكم روايتي هذه، وأرجو لكم قراءة طيبة وممتعة.

إهداء داخل عالم الرواية: إلى السيد فهمي والسيدة رقية وصامد ويوسف وصفوان وأميمة وجمانة وبراءة ونرمين والشيخ العجوز وحسن ورامز، باعتباركم شخصيات روايتي ساهمتم في السير قدما بهذه الرواية، أهديكم أنتم أيضا روايتي هذه.

"لا تهتم بمكان الرواية، ولا تهتم بزمن الرواية، فهي تحدث في كل مكان، تحدث في كل زمان..

لكن اهتم للفكرة، حلل أحداثها وفق تصورك الخاص، الفكرة هي كل شيء وفقط"

(1)

احتراق عقل

يقولون إن الفواجع والأحزان إذا قصدتك وتوجهت نحوك، فإنها ما تنفك عن زيارتك، حينها تشرع في الإتيان إليك تترى، بل وقد تأتيك مجتمعة، تأتي دون مقدمات، دون أن تُعلن عن نفسها أو تستأذن منك لتأذن لها، فإذا أرادت نائبة الدهر أن تنال منك، جيشت جيوشا من أصدقائها ومعارفها وأصحابها فانهالوا على رأسك دون أن يتركوه إلا وقد أردوك طريح الفراش، خائر القوى، حائر البال، لكن ذلك لم يكن سبيلها مع أسرة **السيد فهمي**، الذي كان يعلم أن المصائب قادمة، وأنها هي مَن بالباب تستأذنه للدخول، كانت تُعلن له أنها عمًّا قريب ستزوره، وكأني بها تود منه لو يحسم في أمرها، إما أن يسمح لها بالدخول فتعيثُ في أسرته فسادا، وإما أن يطردها دون رجعة، لكنه لم يفعل شيئا من ذلك، كان يتحاشى سماع صفيرها القادم من بعيد، يتغافل عنها، يتغابى في معرفة كنهها وما تريده، ينسى أو يتناسى أحيانا أنها أعلمته بقرب مجيئها، فيا ليته طردها واستمع لابنته حين وصفتْ ما يحدث داخل الأسرة

"بالمصائب الخفية"، لكن كيف له أن يطردها وقد أتته في صورة غير صورتها الحقيقية، جاءته بوجه غير الوجه الذي يعرف به المصائب، حيث يعرف أن المصائب إما موت أو قتل أو اغتصاب أو سرقة، أو حتى مرض، لكنه لم يكن يعلم أن المصيبة قد تأتي في هيئة "الخلوة لطلب علم"! هكذا جاءته، وهكذا دخلت داره، فلم يشعر بها إلا بعد أن شم رائحة دخان الاحتراق، ليس احتراق بيته، بل احتراق عقل أحد أبنائه، هكذا وصف الأمور.

قبل ذلك كان السيد فهمي وزوجه **السيدة رقية** في سكينة وسكون وطمأنينة من أمرهم، أيامهم تشبه بعضها البعض، لا تختلف الجمعات عن السبوت، ولا الآحاد عن الأثناء، ولا الثلاثاءات عن الأربعاءات، ما عدا أخمساء كل أسبوع فهي أيام السوق الأسبوعي، يغتنمها السيد فهمي ليقتني فيها لأسرته ما يحتاجونه من خضر وفواكه، وألبسة.

"نجَّار الحي" هكذا ينادي أهل الحي على السيد فهمي، فقد ورث هذه المهنة عن أبيه - رحمه الله - مُذ كان في السابع عشر من عمره، منذ ذلك الوقت وهو يشتغل في هذه المهنة. أما الدراسة فقد تركها آخر سنة له من تعليمه الابتدائي، فالحياة هي مدرسته، والنجارة قِسمه، ورغم أن ما تُذر عليه هذه الحرفة من دخل لا ترفعه ليكون من الأغنياء، إلا أنه يستر نفسه وأهله بها، فالعيش

متوسط الحال هانئ البال هذا ما يتمناه كل رجل في زمننا هذا، كما يقول دائما.

السيد فهمي رجل تجاوز الخمسين من عمره بخمس سنوات، بدأ شعر رأسه ولحيته الخفيفة يشتعلان شيبا، كل نشاطه أن يخرج من بيته إلى عمله أو إلى المسجد ثم يعود، ينحدر من طبقة متوسطة مثل أهل حيِّه، وعلاقته بهم وبجيرانه علاقة طيبة، وما جعلها تطيب وتنمو أنه يعرف لهم حقوقهم في الجوار والطرقات، كما أنه لا يتأخر عنهم أبدا إذا طلبوا منه أن يُبدع لهم في صناعة وتسوية أداة خشبية من منضدة أو كرسي خشبي أو غير ذلك، وبذلك احتفظ بودهم واحترامهم له، وبعلاقتهم الطيبة معه، وحتى في حواراته معهم لا يزيد عن إلقاء التحية وبعض الكلمات المقتضبة، هذه الكلمات المقتضبة هي التي جعلت السيدة رقية تتعلق به، فمنذ ما يقارب الثلاثين سنة جاءته بطلبٍ تريد منه أن يَنحِت ويسوي لها طاولة خشبية صغيرة، وما أدهشها حينها أنه لم يرفع بصره في عينيها العسيلتين، ولم يزد على أن أعلمها أن حاجتها ستكون جاهزة خلال أربعة أيام فقط، كانت تلك الكلمات وسكناته كافية لتأخذ بلبها، فعادت إليه قبل الموعد، وما عودتها إليه إلا دفع قوي من قلبها لرؤيته، والتأكد مما رأته منه، وهل هو طبيعة مستمرة لحاله الدائم الذي كان عليه في مرته الأولى؟ ألاَ يزال يتَّسم به؟ أم هو عارض جاءه في يومه الذي زارته فيه؟

توالت زيارتها له في ورشته بمبررات فهم منها فهمي بفطنته أن قلبها به شيء، والحقيقة أن فهمي بعد عودتها إليه في المرة الثالثة لتأخذ ما طلبته أُعْجِب بها هو الآخر، ولم يمر على ذلك اللقاء شهر وبضعة أيام حتى تقدّم لخطبتها من أهلها.

كثيرا ما تتذكر السيدة رقية تلك الأيام وتلك اللحظات وما حدث فيها فتبتسم من حماقاتها، بل تبتسم أيضا للقدر الذي جمعها به، فرغم عقدها الخامس الذي تجاوزته منذ أيام لا تزال تحب زوجها فهمي كما لو أنها تزوجت منه منذ شهر فقط، فهو يُكِن لها حبا كبيرا، كأن الحب لم يُخلق إلا من أجلهما، وذلك لأنهما جعلا الحب شِعارهما الأساسي في الحياة، بل هو الحياة.

أنجبتْ منه أربعة أطفال، توفي اثنان في صغرهما، حينها كاد قلبها وقلبه أن يتفطرا من فقدهما، لكن الذي هدَّأ من روعهما أنهما أدركا أن الذي أعطاهما أربعا، أخذ منهما اثنين وترك لهما اثنين، فلِم الحزن والجزع؟

ترك لهما **صامد** و**جمانة**، الشابان اللذان كبرا بسرعة، فالأول يُعدُّ دكتورته في موضوع: "علم النفس وعلاقته بالمجتمع"، خطَب شابة اسمها **أميمة**، هي صديقة أختِه جمانة، وقّع عقد الزواج بها منذ أكثر من شهر، يشتغل حاليا أستاذا لعلم النفس في إحدى المؤسسات الخاصة، والثانية تتابع دراستها بكلية الطب، وإن كبرا

في العمر فإن قلب أمهما لم ينفطم عن حبه لهما وخوفه عليهما، كأنهما طفلان.

جمانة فتاة مثقفة مجدة، تبلغ من العمر ثلاثا وعشرين سنة، متوسطة القامة، ممتلئة الجسم بشكل متناسق مع قامتها، تدرس في كلية الطب في عامها الأخير، أخذت من أسرتها المحافظة كل الصفات التي تتسم بها، من أخلاق وانضباط وتواضع، وصرامة، الصرامة التي ورثتها عن أبيها مع الجدية بالنسبة إليها شيء مقدس، فلا تمزح في الموضع الذي يحتاج إلى جد، ولا تُخفي كلماتها تحت لسانها إذا ما رأت ما لا تحبه من شخص وإن كان أقرب الأقربين إليها، وهذه هي مشكلتها، وهو أن لسانها يسبقها، فقد تواجه أي شخص بما فيه، دون مواراة أو مواربة أو مداهنة أو مراوغة، فكثيرا ما تجد الناس يخافون من صرامتها، وهي نفسها لا تدري أهذه الصرامة والصراحة التي تواجه بها الناس أمر محمود أم شيء قد يؤدي بها إلى نفور الناس عنها؟

كما أن الرائي لا يراها إلا غادية إلى كليتها تمشي على استحياء، أو عائدة منها في حشمة ووقار بحجابها الذي لا تتوانى في الاستهتار به، ولا تتساهل في التخلي عن شرط من شروطه، فالحجاب بالنسبة لها زينة تتزين به.

كانت جمانة أوَّل من شمت رائحة الاحتراق، وبعبارة أصح، هي مَن تنبأت أن في المنزل شيئا ما ليس على ما يرام، شيء ما تبدل عما كان عليه، أمر ما يستحق الوقوف عنده، لم يكن هذا الأمر متعلقا بأحد غير شقيقها صامد البالغ من العمر 27 سنة، الشاب الذي يُمكن أن يُقال عنه، اسم على مسمى، فهو صامد في قراراته، عنيد، ذو كبرياء، إذا قرر شيئا أو فكر في قرار لا يتخلى عنه حتى يتيقن حق اليقين أنه على خطأ، متوسط القامة، قوي العضلات، وقوة عضلاته اكتسبها بفعل دوامه على ممارسة الرياضة، خصوصا رياضة الجري في الغابة. يترك لحية خفيفة جدا تنمو على وجهه، يقوم برصها وتقصيرها مرتين في الأسبوع.

رأت جمانة أن صامد قد تغيَّرَ فجأة منذ شهر كامل، كان تَغَيُّرُه يكمن في اختلائه بنفسه في غرفته لشهر كامل، يُغلق على نفسه فيها ولا يخرج منها إلا لأكل أو قضاء حاجة، تنبَّهت جمانة لهذا التغير منذ الأيام الأولى، في البداية أخبرت أمها رقية أن صامد ربما يشكو من مشكلة معينة، لكن أمها ظنت أن تحوله مرتبط بخطبته لأميمة وعقده عليها، وأنه يُحادثها طول الوقت، وأنه سيعود إلى طبيعته قريبا.

انصرم الأسبوع والأسبوعان، لتعود جمانة ملحة على أبيها، تستحثه أن يفاتح صامد في أمره بعد أن حاولت هي بمفردها اقتحام عالمه، وذلك أنها في يوم من أيام عودتها من كليتها، طرقت عليه

باب غرفته، تطلب منه أن يفتح لها لتناقشه في أمر يخصه، لكنه رفض بشدة، أعادت الكَرَّة، إلا أنه كان قاسيا معها، صرخ في وجهها حيث تسمع صراخه ولا ترى الصارخ، فرجعت من باب حجرته تحمل معها أذيال الخيبة والأسى والأسف.

بعدها أصبحت الريبة تخالط شغاف قلب السيد فهمي، أدرك أن ابنته محقة فيما تقوله، فكيف لابنه صامد أن يتغير هكذا دون مقدمات، دون أن يُشركهم في أمره، نعم كان من قَبل قليل الكلام، قليل الجلوس معهم، لكن ما أصبح عليه الآن قد زاد عن حده في نظر السيد فهمي، فهو لا يجالسهم البتة، وكم من مرة اعتذر عن وجبة غذاء أو عشاء عندما يدعونه لها.

مضى شهر كامل فقرر السيد فهمي أن يضع حدا لهذا التخبط الأسري، فهو سيد الدار ولابد أن يكون على علم بكل ما يجري في منزله، وبكل ما يشغَل بال أفراد أسرته، أمَرَهم كلهم بأن يجتمعوا على طاولة العشاء لأمر ضروري لا رجعة في تأجيله أو تأخيره أو إلغائه، ولا يمكن أن يتسامح في تأخر أو تغيب فرد من أفراد أسرته عن الاجتماع الذي حدده.

كان صامد يعلم صرامة والده، منذ صغره لم يُبغض شيئا في والده بغضه لصرامته، بل إن صرامته جعلت من صامد شخصا معاندا جدا، عاش معه هذه الصرامة منذ طفولته، هو يسميها

صرامة، وأبوه يعتبرها خوفا عليه واهتماما به، كان يفرض عليه الالتزام بالصلوات الخمس في وقتها وفي المساجد، كان يؤديها حينما يكون تحت أنظار والده أحيانا، ويؤديها دون وضوء غالبا، وإذا تخلص من رقابته تركها، لم يكن هذا حاله في صغره فقط، بل حتى لما تجاوز مرحلة المراهقة.

في إحدى الأيام كان رأسه يموج غيظا وحنقا على والِده، حينها قرر مواجهته، حدث ذلك عندما سأله عن صلاته، هل أداها أم لا؟ فكان جوابه كالصاعقة.

ـ لا، لم أصل، ولن أصلي من اليوم فصاعدا تحت رقابتك، ولا تحت رقابة أحد، أنا حر سأفعل ما أشاء وأريد، وإن أردتَ أن أبرح البيت فأنا مستعد لذلك.

ترك الجوابُ الأبَ في ذهول وصمت، ومن ذلك اليوم قلل السيد فهمي من حدته حتى لا يخسر ابنه، لكن ما لبث أن عاد إلى طبيعته الصارمة.

عندما بلغت صامد دعوة والده له للاجتماع على طاولة العشاء، لم يفكر في التمنع أو العناد أو الرفض، وجدها فرصته، كان قد غلب على ظنه أن الموضوع الذي دعاهم لأجله يخصه هو بالضبط، حينها قرر المواجهة والخروج للضوء، فهيأ الكلام وأعد

الكلمات والجُمل والعبارات التي سيُفصح بها لهم، وسيرمي بها في وجوههم.

على مائدة العشاء بعد أن قامت السيدة رقية وابنتها بتنظيفها من بقايا أكلهم، تلك الوجبة التي مرت صامتة دون أن ينبس أحدهم بكلمة، دون أن يشخص أحدهم ببصره نحو وجه الآخر، بل حتى أن يسترق النظر أحدهم إلى وجه الجالس أمامه، مرت عليهم ثقيلة كأنها السنون، كان صوت مضغ الطعام ولَوك اللقمة، وحركة أيديهم بين الفم والمائدة هي سيمفونيتهم الوحيدة.

فَلَكَ أن ترى حول الطاولة السيد فهمي وقبالته مباشرة ابنه صامد، وعلى يمينه زوجه رقية وتواجهها ابنتها جمانة. تنحنح الأب مستعدا للحديث وللإفصاح عن موضوع الاجتماع قائلا:

ـ رُبما لا تستغربون سبب دعوتي لكم لهذا الاجتماع الأسري كما أستغربه أنا، نعم أنا الداعي لهذا الاجتماع وأستغرب أن أدعوكم له، كيف لا أستغرب؟ وأنا سيد الدار ويخفى عني بعض شأنكم، ليس من أفراد هذه الأسرة شخص غريب عنها، لستم سوى أهلي، ومع ذلك أرى أن بعض شؤونكم تتسرب من بين يدي تسرب الماء من أصابع اليد، لكن اليوم أردت أن أضع حدا لهذا التسرب، فالله لا يحب المسرفين.

أنتِ يا بُنيّتي جمانة مطمئن عليك، أعرف خباياك كما أعرف ظاهرك، وأحفظ طريق ذهابك إلى جامعتك وعودتك.

وأنت زوجي رقية أشكر لك صنيعك باهتمامك بمنزلك وخدمتك لنا على أكمل وجه، فشكر الله لك ذلك.

أما أنت يا ابني صامد، فقد كنتَ من قبل بالنسبة لي مرآة أرى فيها نفسي، أراك فيها كما كنتُ في عمرك، شابا قليل الكلام، قليل الاختلاط بالناس، ولم يكن هذا يريبني في شيء، لكن أن يتعدى الأمر إلى اختلائك بنفسك لشهر كامل دون أن نعلم من أمرك شيئا، ودون أن نفهم كيف يمكن لمديرك في العمل أن يمنحك إجازةَ شهر كامل دون سبب مُقنع، بل دون سبب يُذكر، فصدِّقني يا ولدي، هذا يقلقني ويخيفني، وما خوفي إلا أن يكون قد هَمَّ بك أمر لا تودُّ مشاركتنا به فتتضرر منه، فأندم طول حياتي أن تركتك تواجه متاعب الحياة بمفردك، فافصح يا ولدي عما بك، ولن تجدني إلا واقفا بجانبك مؤازرا لك وشادا لعضدك، فما نفع الأب ابنه إن لم يقف معه في محنته، إن لم يفرح لفرحه، وييأس لتعاسته، فها نحن اجتمعنا اليوم لنضم كل جهودنا إلى جهدك، ونتخلى عن كل همومنا معالجة لهمك، فآذاننا كلها صاغية لك.

انتهى الأب من محاضرته، ومع صمته تعدَّت دقات قلب زوجه وابنته معدلها الطبيعي، منتبهتان إلى ما سيقوله نائب سيد الدار، وكل منهم قد ذهبت به الظنون مذاهبَ مختلفة.

حدّج صامد بنظره في وجه أبيه، ثم في وجه أمه، ثم في وجه أخته، تستقر عيناه على وجوههم لحظة من الزمن، وبعد صمت لم يدم طويلا تلفظ بما لم يكن أحد منهم قد جاءه على بال.

ـ لا تقلقوا بشأني، لست مريضا ولا منطويا على نفسي، ولا أعاني من مشكلة أو معضلة، ولا يشغلني أي هم أو غم، غير شيء واحد فقط؛ فالإنسان بطبعه ينمو ويكبر، ومع كبر سنه تكبر معه أفكاره لنمو عقله، ومع تغير هيأة جسمه تتغير قناعاته، لذا أعطيتُ فرصة لنفسي هذا الشهر لتمحيص أفكاري وقناعاتي، فوجدت أغلبها خاطئة، إن لم أقل كلها، فقد اعتكفت لشهر كامل أدرس فيه كتبا ومؤلفات ومجلدات لم أكن أعلم قَبل ذلك الشهر بوجودها، ولا بوجود أفكار مماثلة فيها، ولو أردتم الحقيقة فقد كنت غافلا، بل مغفلا حتى اقتنعت بقناعات كانت تدور عليها أفلاك حياتي، وقد جعلَتْها الآن هذه الكتب هباء منثورا، جعلتها كالرمال تهب عليها الرياح فتذروها في كل اتجاه إلا اتجاه واحد وهو أن تستقر في عقلي وقلبي.

لن أتفلسف عليكم أو أتحدث معكم بألغاز، بل أقول لكم بكل وضوح، اعتكفتُ على العديد من الكتب أدرسها وأدارسها فبدَّلت قناعاتي، فلم أعد مقتنعا بالمسلَّمات التي وجدتم عليها آباءكم، لم أعد أستقبل أي فكرة قبل أن أخضِعها لميزان العقل، فبعد أن أخضَعتُ مجموعة منها له، وجدتها خاطئة بل تافهة، بل غير صالحة لأن تستقر في وجداني، فأنا الآن لم أعد أدين بدين الإسلام الذي تدينون به، وكي لا تقلقوا، فلم أعد متدينا بأي دين سماوي أو أرضي كيفما كان، فديني منذ اليوم هو عقلي، والسلام.

وقف منتصبا، حملق فيهم بحدة كأنه يعلن التحدي، بعدها ولج غرفته، تركهم غارقين في صمت مريب ودهشة ألجمت أفواههم.

*****

(2)

الحقيقة الصادمة

إذا كان مِن الحب ما قتل أو أتى على العقل فأرداه مجنونا مخبولا، وعلى المُحب فجعل منه شخصا حائرا غائبا، وعلى ذاكرته فطمس منها كل شيء إلا ما يتعلق بمحبوبه، فإن فراق الحبيب أشد وطأة على النفس، فقد لا يكون الفراق قاتلا، لكنه يجعل المُحبَّ معلقا بين الحياة والموت، هائما في دنياه لا يدري أفي حياة هو أم في معسكر الموتى؟ فراق الحبيب يعني سهر الليالي، يعني استرجاع الذكريات على صفحة الليل، يعني ذرف العَبرات على الأيام الخوالي، كانت أميمة من هؤلاء الناس، لذلك لم تكن في هذا الشهر في أحسن أحوالها.

مر عليها شهر كامل كأنها تحمل فوق ظهرها جبلا، نقص وزنها شيئا ما بعدما كانت تشبه إلى حد بعيد صديقتها جمانة في تفاصيل هيأتها، كانتا كأنهما توأمتان، كيف لا وهما في العمر نفسه، ويدرسان في الكلية نفسها، وهما معا في سنتهما الأخيرة، بل

غالبا ما تلبسان اللباس نفسه، لا يُخطئ من يراهما إذا اعتقد أنهما شقيقتان.

كيف لا يتغير وزنها؟ فبمجرد أن خطبها صامد ووقَّع عقد الزواج بها تغير تعامله معها كما يتغير الرضيع حينما يصبح كهلا، أيعقل أن يكون تغيره لحب امرأة أخرى غيرها؟ أو أنه ندم على توقيع عقد الزواج بها؟ هكذا فكرت، فليس لِما أصبح عليه مِن تفسير غير هذا.

بعد يومين من اختفائه عن أنظارها قبل شهر، اتصلتْ به ولم يرد على اتصالها، ظنت أنه مشغول بشيء يخصه، أعادت في اليوم الموالي اتصالها به، لكن لم تجد لرنتها جوابا، ولما اتصلت به للمرة الثالثة بعد أسبوع من اتصالها الأول سمعت أخيرا صوته، لكنه على غير ما ألفته عنه، تحدث إليها باقتضاب عندما سألته عن اختفائه، وعدم رده على اتصالاتها، وهل ندم على توقيع العقد بها؟ أسمعَها جوابَه، وفَاجأَها عندما أفصح لها أن كل ما كانت تفكر فيه لا صحة لوجوده، خمنتْ في تلك الثواني عن سبب غيابه عنها واختفائه، فإذا كان غير نادم على زواجه بها، وليس له شريكة معها في حياته، فما سبب تحوله؟ أشيء ألمَّ به يخفيه عنها، أم حزن داهمه أراد أن يجتاحه وحده دون أن يُقحمها معه فيه؟ فما أن وصل ذهنها إلى ما وصل إليه من التفكير حتى أمطرتْه بوابل من الأسئلة، كل مغزاها ومضمونها، "ما سبب تغيرك؟"، فكان جوابه.

ـ أميمة أرجوك، أنا بألف خير، ولستُ نادما على علاقتي بك، وليس بي شيء، فأرجوك لا تتصلي بي، ولا تحاولي رؤيتي حتى أفعل أنا ذلك، وسوف أغلق هاتفي هذا إلى حين.

"إلى حين"، آخر كلمة قالها ثم أغلق اتصاله، إلى أي حين يقصد؟ ومتى يحين هذا الحين؟ وماذا لو أن هذا "الحين" لن يحين إلا بعد شهور أو ربما سنوات؟

منذ ذلك الحين وهي تضع صخرة على قلبها صابرة محتسبة أمرها لربها، حتى جمعت جأشها وشجاعتها وعزمت أن تسأل أخته جمانة التي تدرس معها في الكلية - كلية الطب- عن سبب تغيره عنها، فكان جواب أخته صَادِما لها، وهو أنه قد تغير على الجميع وليس عليها فقط، وأنه لم يعد يخرج من غرفته إلا لحاجة.

استمر التقاء أميمة بجمانة في كلية الطب، وكل منهما تتحاشى الحديث في موضوع صامد، فكانت أميمة تُظهر عدم اكتراثها بالموضوع، وكأن ليس بها بأس، وهكذا مر عليها ما يقارب الشهر دون أن ترى صامد أو تسمع صوته، أو أن تسأل أخته عنه مرة أخرى.

حتى وصل اليوم الذي لم تكن في أحسن أحوالها، كما أنها لم تكن تدري ما الذي ينتظرها في ذلك اليوم؟ لم تكن تعرف أن أخبارًا

تنتظرها ستضعها على المحك، وستستخرج منها معدنها، أيا كان نفيسا أو رخيصا.

كانت كعادتها تذهب إلى كلية الطب باكرة، وما بكورها إليها إلا لتأخذ لنفسها مكانا متقدما بين الصفوف، فهي لا تحب الأماكن المتأخرة، ولا تحب في كل شيء إلا أن تكون في أول الركب، حتى أن مجرد ترتيب الأسماء في ورقة، لا تحبذ أن تجد اسمها إلا في أولها.

في هذا اليوم كانت جمانة أيضا قد أتت باكرة، لعلمها أنها ستجد صديقتها في الكلية، كان لها ما توقعته وأمِلته، فما أن اقتحمت قاعة الدرس حتى وجدت صديقتها منشغلة بالقراءة في كتاب، ملامحها كانت توحي بأنها على غير ما يرام، ألقت التحية وجلست بجانبها دون أن تتفوه بكلمة، كانت تتأملها وهي تقرأ إحدى روايات الخيال العلمي المفضل عندها، استمر الصمت في القاعة حتى قطعته أميمة بصوت إغلاقها للرواية، نظرت إلى جمانة تسألها عن أحوالها، وما أن سألتها حتى رأت الجواب على وجهها، كانت مثلها في جزعها وحزنها، ربما هما الاثنتان لا تدريان سببه، نطقتْ جمانة:

ـ أتيتك اليوم بخبر صامد.

استجمعت أميمة كل حواسها، التفتت بكل جسمها نحوها، ولربما سمعها في هذه اللحظات يسمع دبيب النمل لمَّا هيأت حاسة السمع لتسمع بها مِن جمانة خبر هذا الذي شغلها شهرا كاملا، بل حتى بصرها استقر على شفتي صديقتها، حتى إذا ما أخطأ سمعها سماع حرف أدرك بصرها رسمه على شفتي زميلتها فتفهم منه مغزاها، استمر الصمت لحظات كأن الأجواء تُهيئ لهما الظروف المناسبة لهذا الموضوع الذي هو بالنسبة لهما، أو بالأخص بالنسبة لأميمة مَصير حياة، وما هي إلا لحظات حتى أفصحت جمانة عن لغز محيِّر لشهر كامل.

ـ صامد أخبرنا أمس عن سبب تغيره عندما أصر عليه أبي بضرورة إشراكنا في أمره واطلاعنا عليه.

هتفت أميمة وقد عرق جبينها، وتسمرت ملامحها على وجه جمانة، تراقبها دون أن يطرف لها جفن أو تغفل لحظة عن النظر إليها:

ـ ماذا كان مِن أمره؟ بمَ أبلغكم؟ حدثيني.

قالت جمانة بعد أن تنهدت ومطت شفتيها، وقد ألقتْ ببصرها على قدميها كأنها تقرأ منهما ما تقوله:

ـ أخبرنا أنه لم يعد مسلما، قال بالحرف، "أنا الآن لم أعد أدين بدين الإسلام الذي تتدينون به، وكي لا تقلقوا، فلم أعد متدينا بأي دين سماوي أو أرضي كيفما كان، فديني منذ اليوم هو عقلي، والسلام".

شهقت أميمة، وضعت يدها على صدرها تتحسس دقات قلبها التي زادت عن طبيعته، تصلبت جوارحها تراقب جمانة، لم يكن يتحرك فيها شيء غير دمعتين تسللتا من مقلتيها، كان الصمت يراقبهما، لم تزد جمانة على ما قالته سوى أن تركت عينيها تعاندان مُقلتي أميمة لتتسلل منهما دمعتان ساخنتان أيضا.

ـ إذا فقد أصبح ملحدا.

تلك هي الحقيقة، وهي خلاصة الموضوع بالنسبة لأميمة، حركت جمانة رأسها تأسفا وهي تعض شفتها السفلى، انقضت على زميلتها تعانقها وتنتحب. أما أميمة فقد استسلمت لها دون حراك، كأن الصدمة شلت أعضاءها، لم تستفق من جفلتها إلا وهي تسمع جمانة تحثها على أن تطلب الطلاق من صامد، وما أن سمعت أميمة كلمة الطلاق حتى دفعت صديقتها عنها بقوة، حدَّقت بمقلتيها المفتوحتين في وجهها، وكأنها سمعت منها ما لا ينبغي سماعه.

ـ لا يمكن هذا، لا يمكن أن أطلب منه الطلاق، هذا مستحيل.

ـ لكن أنت أدرى مني أنه لا يجوز الزواج بغير مسلم.

ـ من قال لك إنه لم يعد مسلما؟ بل هو كذلك شاء ذلك أم أبى.

ردت عليها أميمة بعصبية لم تعهدها منها، وكأن الصدمة حولتها إلى أنثى أخرى، صمتت برهة ثم عاد إليها شيء من صوابها، فخاطبت صديقتها بشيء من الهدوء.

ـ صديقتي جمانة، الكثير من الشباب يدَّعون أنهم ملحدون، لكن عندما تجلسين معهم وتُحدثينهم، وتعرفين خبايا نفوسهم، تجدينهم قد انحرفوا إما لشهوة أصابت قلوبهم أو لشبهة أصابت عقولهم، وما أن يجدوا من يأخذ بأيديهم إلى شاطئ الأمان حتى تَجلوا لهم الحقيقة ويظهر لهم الحق ساطعا.

ـ لكنه يا أميمة لم يعد يصلي!

ـ لا تقلقي، سأعمل بما حباني به الله من جهد أن أجتهد في إيجاد الحقيقة معه، فإما أن أقنِعه فيترك طريقه لطريقي، وإما أن يُقنعني فأترك طريقي لطريقه.

ـ ماذا تقصدين؟!!

فتحت جمانة حدقتيها وفمها باندهاش، وهي تسأل بتوتر عما تقصده صديقتها، وقد جعلت من بين اقتراحاتها أن تترك طريق الإسلام لتلتحق بطريق الإلحاد إن لم يقتنع زوجها بالحقيقة التي في فؤادها، أجابتها أميمة بهدوء بعد أن رمقت الطلاب يدلفون قاعة الدرس.

ـ انسي الموضوع، وتأكدي أني سأكون بجانب شقيقك، ولن أدفع به وبتصرفات بلهاء مني إلى ما يسوؤه، فلا خير في امرأة لم تقف في صف زوجها.

لم تكن تسمع جمانة من زميلتها إلا ألغازا لم تفهم منها شيئا، ولم تكن تستطيع أن تستفسرها عن كلامها الذي تكلمت به وقد شرعت القاعة تمتلئ بالطلاب، فما كان منها إلا أن أخرجت كتبها واستعدت لحصة دراسية جديدة.

*****

(3)

(صامد)

حياتي الثانية

ما الحياة؟

الحياة هي أن تعيشها كما تريد، لا كما يريدها الناس لك، أن تقول "لا"، عندما ينتظر منك الناس أن تقول "نعم"، أن تقف في وجه العواصف وأنت على الحق، ألا تخضع للناس، أن تُقْبِلَ على الحياة وترسُمها لنفسك وبنفسك وتَقْبَلَ رسمك لها، دون أن يشاركك أحد في رسم ملامحها معك، أليست حياتك الخاصة هي شأن يخصك ولا شأن لأحد بها؟ فلم يُقحمون أنوفهم فيما لا يعنيهم؟ آه لو أن الناس يرسم كل واحد منهم ملامح حياته، ويتركون الآخرين يرسمون حيواتهم كما يحبون، لم يُحب الناس أن يتدخلوا في شؤون غيرهم؟ ألا يعلمون أن مَن أقحم نفسه فيما لا يعنيه قد يسمع ما لا يرضيه؟ أنا لم أُسْمِع لأهلي إلا ما يجب أن يسمعوه، كان يتوجب علي أن أفصح عن قناعاتي منذ مدة، لكن وقد حدث ذلك قَبل يوم

أمس، فليكن ذلك اليوم هو الفاصل بين حياتي الماضية وحياتي الجديدة، هو البرزخ الذي طويتُ عليه حياتي الماضية ورميتُ بها في مزبلة التاريخ والجغرافيا إلى غير عودة، واستقبلتُ حياتي الجديدة المختلفة تماما عن الماضية.

أخيرا أقبلتْ الحياة الجديدة التي سأجد فيها أنسي وراحتي بعدما حققتُ توازني النفسي، اليوم سأخرج إلى العالم معلنا عن قناعاتي وتصوراتي الجديدة دون مواربة أو مداهنة، لا صلاة دون وضوء، فلا صلاة الآن، لا مواراة مِن الإفطار في رمضان، فليذهب المتخلفون إلى الجحيم، لا وصايا ولا تضييق على الحريات، لا تكميم للأفواه مِن دين بال متخلف.

كانت الساعة في ذلك اليوم تشير إلى العاشرة صباحا عندما استيقظتُ، خيوط الشمس الذهبية تتسلل من نافذة غرفتي المَطلية بطلاء أصفر مفتوح لتداعب سريري المنزوي في أحد جوانب الحجرة، في حجرتي تقف خزانة الملابس بشموخها وبأبوابها الثلاثة، كان أحد أبوابها مفتوحا يُعلن عما بداخله من ملابس، كما سأعلن عما بداخلي من قناعات دون مواربة أو نفاق، مكتبي وخزانتي الممتلئة كتبا ومجلات تزيدني فخرا وعزا بنفسي، عناوين الكتب التي يعتبرها البعض مثيرة وفلسفية هي التي أنقذتني من الضياع والتدجين والخرافة والوهم.

سأخرج إلى حياتي الجديدة، سأخرج مِن غرفتي التي سجنتُ فيها نفسي لشهر كامل إلى العالم الرحب الواسع، فشتان بين دخولي وخروجي، دخلت بأفكار ومعتقدات، وها أنا أخرج بأخرى مغايرة لما كنت أحملها من قَبل، بل تنسف الثانيةُ الأولى نسفا، هذه الثانية حققت توازني النفسي، هذا التوازن الذي فقدته منذ ما يقارب السنة ولم يلحظه أحد من معارفي أو أقربائي، أقربائي الذين لا يهمني ردت فعلهم من أفكاري الجديدة، أفكاري الجديدة التي ستوجه بوصلة حياتي الثانية، حياتي الثانية التي وُلِدَتْ بعد مخاض عسير دام سنة كاملة، وهي نفسها السنة التي قضيتها في مؤسسة خاصة أستاذا، المؤسسة التي يديرها الدكتور **رامز**، المدير الذي وجد في كُنهي وذاتي كل المواصفات الجيدة مما جعله يقبل بي إطارا معهم في المؤسسة للتدريس، وهو الذي كان له الفضل حتى تخلصت من الإسلام، أعطاني رخصة شهر كامل أرتاح فيه في بيتي، وأراجع أفكاري وقناعاتي، بل دفعني لذلك دفعا عندما تراءى له أني قد بدأت أقتنع ببعض الأفكار التي يناقشها معي أحيانا.

عندما تذكرتُ مديري رامز، كان أول شيء فعلته قبل الخروج من المنزل، أن شغلتُ هاتفي واتصلت به أخبره أني سأستأنف عملي، رحب رامز بذلك كثيرا، كيف لا وهو علم من اتصالي أني وجدت نفسي، وجدتُ الحياة الجديدة التي كنت أبحث عنها.

كان اتصالي الثاني موجها لهاتف أميمة، زوجي المستقبلية، عندما اتصلتُ بها أحسست أنها فوجئت به ولم تكن تتوقعه.

ـ صامد!! لم أتوقع اتصالك قط، ظننتك نسيت رقمي!

ـ وهل ينسى المُحب محبوبه؟ كيف حالك اشتقت لك؟

ـ وهل ما زلتَ مُحِبًّا؟ وهل ما زلتُ مَحبوبة؟ ثم كيف تخالني أكون؟ طبعا اشتقت لك أيضا، لم أتصور أن تتصل بي مرة أخرى، ظننتك...

ومضتْ أميمة في عتابها لي، لم أقاطعها، كنت أنصتُ لها ولتوبيخها وملامتها لي دون أن أنبس بكلمة، وما أن انتهت حتى استرضيتها بما أعلم أنه سيُرضيها، طلبتُ منها ألا تتضجر، فبعد الزواج سأعوض لها كل ما عاشته من حزن وشقاء.

ـ هل تقبلين دعوتي لك لوجبة غذاء يوم الأحد وفي أي مكان تحبينه؟

استفزها برودي، كأني لم أخطئ في حقها لأعتذر لها عما سببتُه لها من معاناة نفسية طول الشهر، بل وحتى لم أخبرها عن سبب اختفائي في هذه المدة، في الحقيقة أنا لا أتصور أني أخطأتُ في حق أحد، لكن هي تزعم أني أخطأت في حقها، لذلك قابلتْ ما اعتبرَتْه استفزازا مني باستفزاز مقصود منها، عندما عبَّرتْ عن موافقتها لتلبية دعوتي لها بقولها "إن شاء الله"، وهي تضغط على

كل حرف من أحرف الكلمة، إن شاء الله**!!** أي إله تقصد؟ إله المسيحيين أم إله اليهود، أم ربما إله المسلمين، وإن كان إله المسلمين فإله أي طائفة تقصد؟ إله الشيعة أم السنة أم غيرهما؟

انتهى اتصالي بها، خرجتُ لأرى العالم الخارجي، هل لا يزال هذا العالم على حاله أم تبدل؟ أكيد سأجده قد تغير، التغير لا يكون ماديا فقط، بل بمجرد أن ننظر إلى ما حولنا بغير النظرة التي ننظر بها إليه دوما، حينها سنجد كل شيء قد تغير إلى أفضل، العالم ما هو إلا مرآة لتصوراتنا حوله، ما هو إلا انعكاس لما في نفوسنا، لا وجود للعالم، بل ما يوجد هو طريقة عيشنا فيه، كيفية رؤيتنا للأمور في أرضه وفضائه، فأنت العالم والعالم أنت.

*****

كان أول من رغبتُ في رؤيته والتحدث معه بعد شهر العزلة، هو صديقي **صفوان**، بمجرد أن رأيته شعرتُ بنفسي راغبة في إخراج مكنوناتها والتحدث بها لصديقي صفوان الذي أعتبره بئر أسراري، إذن فليكن أول من يسمع مني أن قناعاتي قد تغيرت بعد الأهل هو صفوان، صفوان صديق الطفولة وكل مراحل العمر، شخصية صفوان غريبة جدا، أغرب شخصية قد تعرفها، ليس هذا رأيي فقط، بل رأي أغلب من يعرفونه، يقولون عنه غريب

الأطوار، وما ذلك إلا لأنه منقلب المزاج بشكل مفاجئ جدا، أحيانا تجده لا يهتم ولا يبالي بأمور مصيرية في حياته، فمثلا أجدُني أعطي لتحضير الدكتوراه أهمية أكبر من اللازم ، أما هو - ورغم أن تخصصنا واحد في الدكتوراه - فلا يبالي بتحضيرها، ولا يمنحها أهمية كما أهتم لها، وأحيانا يهتم لأمور تافهة لا قيمة لها، وأحيانا تجده يتأمل دون سبب ثم ينتهي من تأملاته دون مقدمات، هكذا هو، وهكذا نعتبره شخصية فريدة من نوعها، لكنه شخصية ذكية وفطنة.

قبل أن أخبره بما يجول في خاطري، كنتُ أخمن كيف يمكن أن تكون ردة فعله، هو شخص مزاجي، لا يمكن لأحد أن يتصور ردود أفعاله، مهما كانت أهمية الموضوعات التي نتناولها بالنقاش، تصورتُ أن يستغرب، أو أن يرفض لي ما اخترته لنفسي، ظننت أنه سيفهمني ويناقش معي بعض الأمور، خمنت أنه سيُلحد هو أيضا لأنه صديقي ونشترك في كل شيء، خمنت في كل شيء، وفي كل المواقف المتناقضة التي يمكن أن تصدر منه، ومع هذه المواقف المفترضة، كنت أضع لكل منها جوابا وشرحا، لكن لم يكن شيئا مما خمنت فيه قد حصل، ألم أقل إنه غريب الأطوار، وأن شخصيته معقدة على الفهم؟ شخصيته فقط توحي لي أن كل شيء في هذا الكون يسير بتخبط واضح، دون أن يكون له مُسير، شخصية كهذه تزيدني يقينا أني اخترت طريقا صائبا.

عندما أخبرته أني أصبحت ملحدا لا أؤمن بوجود إله، ولا أكترث لأي دين، حدج في عيني مليا، نعم مليا، لم يزح عينيه الواسعتين عن النظر في وجهي، كنت أردت أن أزيحهما بدلا منه، لكن افترضتُ أنه سيعتبر ذلك ضعفا مني، أو أن يظن أنه حرك معتقداتي بنظرة واحدة، واجهته بالنظرات، حينئذ أطلق قهقهة مستفزة، كدت ألطمه بسببها على وجهه من سخريته التي لم أتوقعها، كان يُكركر ويشير لي بيده، ثم حرك كفه وأصبعَ سبابته يقصد بذلك؛ ألا أفهم ضحكه استهزاء، فعل ذلك وهو مستمر في قهقهته، فعل ذلك عندما رأى شرارة الغضب تخرج من عيني، حاولت أن أكون ثابتا، وما أن انتهى من ضحكاته المستفزة حتى تفوَّه وهو يقوِّس حاجبيه قائلا بجدية لم أعرف أهي مصطنعة أم حقيقية؟

ـ وهل كنتَ تؤمن به من قبل؟

لم أفهم مغزى سؤاله، لم أجبه، أبقيتُ عيني المفتوحتين مركزة على وجهه، لابد أن أفعل ذلك، فإذا فشلتُ في مجرد أن أُثْبِتَ ثباتي مع شخصية غريبة كهذه، فلا يمكن إلا أن أفشل مع غيرها، أراد أن يوضح كلامه أكثر عندما رأى عدم تجاوبٍ مني معه.

ـ أقصد، هل كنتَ تستحضر مِن قبل مراقبته وبالتالي وجوده؟ هل صليتَ يوما كما يصلي الناس؟ طبعا الجواب، لا، إذن، كيف تخبِرُني الآن أنك كفرت بوجوده عقلا، بينما أفعالك سبقت ذلك منذ سنين، بل ربما منذ أن خُلقت، هل تذكر عندما كنا أحيانا، أو غالبا، ندخل للحانات والمقاهي الليلية، ونعاقر الخمور، ونرقص مع النساء؟ هل كنت حينها تؤمن بهذا الإله الذي أنكرته اليوم؟ هل كنت تستحضر وجوده وأنت تخالف ما كنت تعتقد أنه نهاك عنه؟ صدقني يا صديقي إن قلتُ لك إنك أضعت شهرا كاملا في اللاشيء، شهر كامل حرمتني فيه من رؤيتك، لمجرد أنك تريد أن تبدل قناعات هي في الأصل متغيرة في ذهنك.

صعقني بجوابه، لم أكن أنتظر منه هذا الجواب إطلاقا، أهذا حقا هو صديقي صفوان، الصخرة الملساء؟ تحليل رائع منه لهذا الموضوع، ولِم لا يكون هكذا وتخصصه مثلي في علم النفس، حقا لم أنتبه إلى أني في الأصل لا أؤمن بإله من خلال أفعالي، لم أكن أصلي إلا إرضاء لأبي، فهل كنت أعبد أبي؟ طبعا أبي ليس إلها ولا يدعي ذلك، إذن كنت أخاف منه فقط، والناس اليوم يعبدون ما يتصورونه إلها لأنهم يخافون منه، كنت أقترف أمورا يظنها غيري كبائر ومعاصي، وكنت أفعلها، ألم أفكر حينها أني في الأصل لم أكن مؤمنا بالإله؟ فلو كنت أؤمن به لاستحضرت وجوده، شكرا لك صديقي صفوان فقد أرشدتني إلى أمر لم أكن منتبها له، وهو أن

الإنسان بطبعه لا يؤمن بوجود الإله رغم أنه يخدع نفسه ويحاول إثبات وجوده، فلو كان حقا موجودا فلماذا نجد الكون كله امتلأ ظلما وكذبا وغشا وقتلا؟ أليست تلك الأفعال محرَّمة من هذا الإله الذي يدَّعون وجوده؟ هذه الأفعال التي يقترفها الإنسان، لو كان يعلم هذا الإنسان أن الإله موجود، وأنه نهاه عنها ما اقترفها، ولكن لكي يُرضي ثقافة مجتمعه وبيئته، أو يُرضي الكذب الذي ينمو داخل نفسه، يذهب ليصلي لهذا الإله الذي كان قبل قليل يفعل أفعالا يظن أنه نهاه عنها، إذا أنا في الأصل ملحد ولم أكن منتبها للأمر، كم أنت عبقري يا صفوان؟

لكن لحظة، هل كان صفوان...؟ هل كان صفوان ملحدا دون علمي؟ لم أتذكر يوما أنه قد أخبرني بإلحاده، نعم هو لا يصلي، بل يصلي أحيانا فقط، هل كان مثلي يصلي لوالده؟ لكنه كان يصلي دون أن يراه والده، وكان معي في الملاهي الليلة، إذن هو في الأصل ملحد، حسنا لابد أن أعرف ذلك منه.

كانت تلك الأفكار تجول في خاطري ونحن نمارس رياضة الجري على الرمال الذهبية في شاطئ البحر مع غروب الشمس، ذلك البحر الذي يحيط المدينة من جهتها الشرقية ويمتد شمالا حتى يجاور الغابة الهادئة التي تحوي أنواعا عدة من أشجار الصنوبر والسرو الخضراء والكافور والبلوط، جمال ما بعده جمال تمنحه لنا الطبيعة.

استوقفته لحظتها وأنا راكع ألهث، حدق في وجهي باستغراب، قلتُ له بعدما جمعت أنفاسي:

ـ وأنت، نعم أنت هل كنت ملحدا دون أن تخبرني بذلك، لمَ أخفيتَ عني ذلك بما أنك تُفكر بالمنطق الذي تحدثتَ لي عنه قبل قليل؟

حملق في وجهي باستغراب أشدَّ مما فعل في المرة الأولى، ثم أطلق ضحكته المستفزة تلك، لكن هذه المرة كنتُ صبورا أكثر من المرة الأولى، هتف:

ـ من قال لك إني ملحد، أنا لست كذلك، لا تقَوِّلني ما لم أقله.

استغربتُ من جوابه، كيف ينكر ذلك؟ وهو نفسه الذي يقول إن الذي يقترف ما يراه الآخرون محرما، يكون في قرارات نفسه غير مؤمن بالإله؟ قلتُ له هذا وأردت منه الشرح، فكان جوابه صاعقا مرة أخرى؛ لأنه مناقض لما قاله في السابق.

ـ حسنا، من حرم تلك الأفعال التي نقوم بها، كدخول الملاهي الليلية وشرب الخمر؟

قلتُ له متسرعا دون أن أشعر: الله، أقصد الذي يقولون عنه إنه حرم هذه الأفعال، حينها أربكني بجوابه وهو يقول:

ـ ألم تلاحظ أنك تعترف بوجود إله دون أن تشعر، فإذا قلتَ إن الناس يشربون الخمر ويزنون؛ لأنهم لا يعترفون بوجود الإله، فمن

قال: إن هذ الإله حرم الخمر والزنى؟ بمجرد أنك تتحدث عن قيامك بأفعال عند الآخرين معصية، مجرد ذلك هو اعتراف صريح منك بوجود إله حرم بعض الأفعال، وإلا فلو كنت ملحدا حقيقيا فما كان منك التفريق بين الزنى وشرب الخمر والصدق والعدل، فهذه أفعال متساوية عند الإنسان الذي لا يؤمن بمن يقولون عنه إنه حرم بعضها وأحل بعضها الآخر، وهنا لابد من قاعدة أخرى تنظم لنا الحياة، قاعدة لا دخل للإله فيها.

ارتبكت.. حقا ارتبكتُ، شتتَ كل مفاهيمي، ألم أقل إنه متناقض، أنا أعلمُ بنفسي أكثر من غيري أني لم أعد أؤمن بهذا الإله، لكني محام فاشل لقضية عادلة، كيف يمكنني أن أدافع عن فكرتي هذه، وقد جعلها هذا الغريب الأطوار كرماد تنثرها الرياح؟ هل أكتفي بأن ألحد لنفسي دون أن أخوض في نقاش مع أحد، أم أحتاج لدراسة أعمق حتى أدافع عن قضيتي وأناقشها أمام الناس؟ من أنت يا صفوان، من أنت أيها الصخر الأملس حتى تقنعني بالأضداد والمتناقضات.

*****

(4)

خطة على السكة

أصعب ما في الحياة أن يكون حزنك أو فرحك مرتبط بغيرك، أن يكون شعورك متقلب تبعا لمزاج شخص أشركته حياتك، هل الناس حمقى يُشركون حيواتهم مع غيرهم؟ يقتسمونها معهم نصفين، نصف لهم ونصف لشريك حياتهم، فيعانون إذا عانى النصف الآخر، ويسعدون إذا سعد، أميمة أحبت زوجها بصدق، أميمة إذا أحبت تُحب، وإذا كرهت تكره، لكن عزلة صامد لم يؤثر على قلبها، نعم تألمت، حزنت، أحست بالأسى، لكن لم يتزعزع حب صامد من قلبها، أما اليوم الذي هو موعد لقائها معه، فقد نسيت كل آلامها وأحزانها، وبدأت شجرة الأمل تنمو وتصد الباب على الألم.

انتظرتْ أميمة هذه اللحظة بفارغ صبرها، مرت عليها الأيام القليلة الماضية كأنها تزحف على بطنها حتى وصلت إلى هذا اليوم الذي التقت فيه بصامد، حاولتْ أن تتماسك نفسها عندما رأت

ملامح وجهه، ومع هذا الشوق لم تكن مستعدة لتخرج عن مسار خطة رسمت معالمها في عقلها.

هي متأكدة أنه يحبها، لكنها متأكدة أيضا أنه يحب قناعاته أكثر منها، فإذا تعارض حبه لها مع قناعاته، فهي تعلم أنه سيقدم عقله على قلبه.

كانا جالسين في مطعم راق يتناولان وجبة غذاء، كانت تنظر في عينيه وينظر في عينيها البارقتين، سمعته لأول مرة يعتذر لها عن تقصِيره في حقها في الشهر الماضي، اعترف لها أنه لم يكن من المناسب لهما أن ينقطع عنها تلك المدة كلها، لكن وقد حدث ذلك، ها هو يعتذر لها.

لم يتحدث لها عن سبب عزلته تلك، هو كان متيقنا أنها تعلم، كيف لا تعلم وأخته تلتقي بها في كلية الطب؟ لكنها على ما يبدو أرادت أن تسمع من لسانه كل شيء.

ـ ألم يحن الوقت بعد لتخبرني عما دعاك لعزلتك في بيتك؟

لم يكن السؤال بالنسبة له غريبا، كان ينتظره، وكان مستعدا للإفصاح عن كل شيء، شرع يحدثها بما اقتنع به، وبما بدا له صائبا بعد أن قرأ كتبا كثيرة وجد فيها نفسَه، فجاءه السؤال الذي لم يتوقعه، أو الذي توقعه لكن لم يُعد له جوابا.

ـ زواجنا يا صامد، هل جعلت له مكانا في قاموس أفكارك؟ هل احتلت هذه العلاقة أرضا من قلبك، أم أنك نسيتها في خضم انشغالات عقلك؟

استغرب صامد لحديثها عن موضوع الزواج بهذه الطريقة، فما علاقة الإلحاد بالزواج!؟ لكن بما أنها سألت فلابد أن يجيبها حتى يرتاح قلبها. أخبرها أنها زوجه، ليس لأنهما قبل إلحاده وقَّع عقد الزواج بها بالشروط والأركان الإسلامية، لكن لأنهما اختارا بعضهما البعض، ولو عاد بهما الزمان ما كان له أن يلتزم بتلك القوانين التي لم يعد يؤمن بها، فما دخل الشهود؟ وما دخل العدلان في زواجهما؟ هكذا قال لها، بل أصبح الآن متيقنا أن الزواج ما هو إلا عادة قديمة تختلف غايات الناس ومقاصدهم اتجاهه، لكن الدين جاء ليستغلها لصالحه، فأحاطه بطقوس وحدود غبية.

كانت أميمة تنصت له فقط، تسأل كلما ألحت عليها نفسها أن تسأل، كانت تريد أن تصل إلى شيء ما من خلال أسئلتها، أرادت مناقشته، أرادت أن تعلم طريقة تفكيره بعد إلحاده، أرادت أن تتأكد من أن صدره مفتوح للنقاش وليس منطويا على الأفكار التي اقتنع بها فقط.

ـ هل الحب هو الذي دفعك للزواج بي؟ لم لا تكون نتيجة الحب شيئا آخر غير الزواج؟ لم لا نقول إن الذي يحب الأنثى يقدسها

مثلا، وبالتالي لا تسمح له نفسه بالاقتراب من جسدها لفض عذريتها؟ فهل يُعقل أن يُفْعَلَ ذلك بمن تحب؟

حدّج فيها باستغراب، كان يعلم أنها تنصب له فخا ما، لكن لم يستكشف كنهه بعد، أراد أن يجاريها، أخبرها أنه قد تزوج بها قبل أن تتغير معتقداته على كل حال، وأن الغاية من الزواج بالنسبة له هو أن يستمتع الزوجان بحياتهما، وأن طبيعة الإنسان والغرائز الأولية التي هي مغروزة فيهما تدفعهما ليميل أحدهما للطرف الآخر، فليس هناك من الناحية الإنسانية ما يمنع أن يعيش الزوجان أو الشاب والفتاة وإن لم تربط بينهما علاقة زواج، ليس هناك ما يمنع عليهما الارتباط الجسدي أو الجنسي، وأن هذا لا ينفي الحب.

عرفتْ الآن طريقة تفكيره، أرادت مناقشته أكثر، يُهمها كذلك إن استمر هو على معتقداته، وقبِلت أن تكمل معه حياتها، يهمها معتقدات أطفالهما، كيف يود أن تكون؟ سألته بما يخالج نفسها، وكعادته كان مستعدا للإجابة عن كل سؤال، طمأنها بألا تشغل وقتها في أمور كهذه، فرعاية الأطفال بالشكل الجنوني، والتعب معهم لتربيتهم على قيم معينة، والوقوف على كل صغيرة وكبيرة تخصهم، أمر غير صائب، لأنهم بعد كِبرهم، سيفهمون بعقولهم الصواب من الخطأ، وسيكتسبون ما يريدون، قال لها وهو يضحك:

ـ ألم تسمعي عن التماسيح كيف تتعامل مع أولادها؟ صدقيني ستستغربين، فهي تضع بيضها على الشاطئ وتذهب وتتركها، وعندما تفقس صغار التماسيح تذهب مباشرة إلى الماء، فهي تعلم كيف ستعتني بنفسها، ولا حاجة لها لمُعين، هل استشعرتِ أن التماسيح أعقل من الإنسان؟ كما أن وجود متخصصين ودارسين لعلم النفس يُغني الأبوين عن تربية الأطفال، فهم يستطيعون التكلف بتربية الابن عن أهله، وإنتاج فكره وشخصيته كما نحب دون أن يمر بالمعاناة التي مررتُ منها مثلا، فعِيشي حياتك واستمتعي بها، ولا تشغلي بالك بالأطفال، وأضيف لك من الشِّعر بيتا، فطبعا بعد موافقتك يمكننا الاستغناء عن الإنجاب، فالعالم حديثا يتجه لاعتماد رجال آليين في كل شيء؛ فالمصنع الذي كان يشتغل فيه آلاف الأشخاص، مستقبلا لن نجد فيه إلا هؤلاء الآليين.

استمر في حديثه على المنوال نفسه، بيَّن لها أن العالم الثالث يقع فريسة للفقر والجهل والأمية، وما سبب ذلك إلا كثرة الإنجاب دون أن يكون الأبوان مستعدين للإنفاق على أطفالهما بالشكل المطلوب.

كانت تستمع له دون تعقيب على كلامه، خرجتْ ابتسامة فاترة من ثغرها، كان قلبها يضرب بقوة دون أن يشعر صامد به، افتعلت الابتسامة والنظر في الأفق متأملة، وكأنها منتعشة برطوبة الجو، لكن ما هي إلا لحظات حتى أحست بشيء من البرد، طلبت

من صامد أن يسيرا بجانب الطريق، مضت دقائق على سيرهما في صمت وسكون، كل منهما يتابع مرور السيارات من الجانبين ومرور الناس بمحاذاة منهما، ولربما هما الاثنان غارقان الآن في أفكارهما وتأملاتهما، وما السيارات والناس إلا مرآة يرون فيهم ما يفكرون فيه.

قطعتْ أميمة هذا الصمت المريب بينهما لتقول له أهم شيء كانت تفكر فيه، وهو الأمر الذي تريد أن تَبني عليه خطتها:

ـ هل تعلم يا صامد أني لا أريد منك أن تترك الإلحاد أو تَعْدِل عن معتقداتك التي اعتنقتها بقناعاتك التي وصلت إليها، فكل إنسان له الحق في أن يعتنق ما يراه صوابا، لكن صدقني ستتلاشى كرامتك إذا اكتشفتُ أنك تعتنق أفكارا غير مقتنع بها بتاتا، سوف تفقد قيمتك عندي إذا علمتُ أنك اكتشفت أن بعض الأفكار صائبة، لكن بكبريائك تطردها من رأسك، أو اكتشفت أن بعضها الآخر خاطئة، لكن بعزة نفسك تحاربها حتى لا تبدو ضعيفا، أنا أريدك صافيا من الداخل والخارج، فإذا كنتَ حقا مقتنعا تمام الاقتناع بما أنت عليه الآن، فلا تترك إلحادك، لكن إياك أن يظهر لك عكس ما أنت عليه فيحاربه كبرياؤك، أريد منك أن تعدني بذلك، وعد صادق.

توقف عن المشي بعد أن سمع منها هذا الكلام، توقفت هي الأخرى بجانبه، حدق في وجهها لعله يفهم مغزى كلامها.

ـ لم أفهم ما ترمين إليه، لكن لا تقلقي، أعدك أني لن أعتنق أي فكرة إلا قبل أن أمحصها وأمررها على العقل، فإن وجدتها تخالفه فلن أُدْخِلها في وعاء عقلي، أما إن كنتِ تقصدين أن يظهر لي أن بعض معتقدات المسلمين هي الصحيحة فصدقيني ذلك بعيد المنال، بل مستحيل أن أعود إليها بعد أن اكتشفت خطأ ما كنتُ عليه، لا يعني هذا أني أدعوك لتقتنعي بما اقتنعت به، بل ما سأدعوكِ إليه هو أن تُعملي عقلك في كل شيء وأن تَشُكي في كل شيء حتى تظهر لك الحقيقة صافية صفاء السماء في يومنا هذا، لكن أعدك أن باطني سيكون مثل ظاهري، ولن أنافق.

كلام أميمة الأخير وجواب صامد عليه جعلها تُحس أنها دخلت به السكة الصحيحة، دفعها كلامه في أن تبدأ منذ ذلك اليوم في نسج خُطتها، فقد أعطاها فرصة لترمي شبكة الصيد بجواره، فلا مجال للتأخر، لكنها لن تنتظر صيدها من الآن، ستكون صبورة على صيدها، لابد لها أن تتسم بالتأني وطول النفس، هكذا تُحدث نفسها، فبما أن خطتها التي رسمتها وضعت لها نقطة بداية، فعليها ألا تَنسفها بتهورها أو بسوء تدبيرها في لحظة من لحظات ضعفها حتى تصل بها إلى نقطة نهاية.

كان الوقت قد حان لتعود إلى البيت، عادتها مذ عرفت نفسها أنها تكون في البيت قبل أن يصدح المؤذن بأذان صلاة الغروب، شكرت صامد على أن وفى بوعده وخرج معها والتقى بها، أوصلها

قرب باب البيت، دلفت وأشارت إليه بيدها مودعة، فُتح الباب وابتلعها.

*****

(5)

(صامد)

غرباء في الطريق

الأيام والليالي تسير بسرعة، تَمر مَرَّ السحاب في يوم عاصف، تتسرب تسرب الماء من دلو مثقوب، كأنه أقيم لها مسابقة يفوز فيها اليوم الأسرع انقضاء وانصراما، هكذا كنتُ أحس بها، وكم تمنيتُ لو أشارك تلك الأيام مسابقة السرعة، فحتما سأكون الفائز، لم لا أكون الفائز وعمري يَنقضي في لمح البصر بين العمل والقراءة والبيت؟ هذا ما أفعله، أحيانا ألتقي أميمة، وأحيانا أخرى يكون لي موعد مع صديقي الغريب غريب الأطوار، فيُفحمني في نقاشاته، ومن يكون غيره، إنه صفوان، الصخر الأملس.

لكن لأكون صادقا معكم، كل اللحظات والأوقات تمر بجانبي كفهد يجري خلف فريسته، إلا الساعات التي أكون فيها بالمنزل، أحس بها تحولت من فهد لسلحفاة، وطبعا لا يخفى عليكم السبب، السبب أهلي، منذ أن أفصحت لهم عن قناعاتي أحسستُ بهم لا

يبالون بوجودي أو غيابي، لا يعيرونني اهتماما، يعتبرونني كشيء جامد ساكن في ركن من أركان المنزل، يا ليتهم يناقشون هذا الشيء الجامد، سيعلمون أنه ليس بجامد، إنه ينبوع يفيض علما، يا ليتهم يجدّون علي بفرصة ليسألوا عما غيرني، سأناقشهم، سأجيب عن تساؤلاتهم، فَأَن تكون في نقاش وجدال مع أهل بيتك، خير من أن تشعر بعدم اهتمامهم بأفكارك وقناعاتك، هذا ما كنت أراه، كأنهم اتفقوا على ذلك، يتركوني وشأني لما أحب، لذلك تعسَّر علي أن أدرك معنى تصرفاتهم، هل هي لا مبالاة منهم أم مني؟

أبي لا أراه إلا قليلا ليلا، يكون في عمله نهارا، عندما يدخل البيت يجدني قد أغلقت على نفسي في غرفتي أو أكون خارج البيت، أختي تُمضي يومها في كليتها، أما أمي، فهي الوحيدة التي أجدها في البيت، أحسست بها هذه الأيام أنها ليست على ما يرام، ربما مريضة، هل أنا سبب مرضها يا ترى؟ اغتنمتُ ذات يوم وجودي بمفردي معها وسألتها، هل أنا سبب ما أراكِ عليه من ضعف وهوان يا أمي؟ فقد كنتِ مِن قبل قوية بشوشة، نظرتْ لي مبتسمة، ثم طمأنتني ألا أشغل بالي، فليس بها شيء، مجرد إحساس بالإرهاق وفقدان الشهية لازمها هذه الأيام، ودوار في رأسها سيزول عما قريب، وستعود لما كانت عليه، هكذا أجابتني.

لا أدري لم جذبتني عاطفة قوية نحوها عندما تحدثتْ معي، كم اشتقتُ لحديثها، أهملتها كثيرا، أحسست بأني السبب فيما هي

عليه، ليس لأني غيرتُ أفكاري، بل لأني أخرجتُ اهتمامي بها من برامج أيامي الكثيرة التي لا تنتهي، لا أتحدث معها، لا أخصص وقتا لمجالستها.

أعترف أن محمدا من خلال دينه الإسلام نجح في أن يقوي صلة القرابة بين الآباء والأبناء، لكن حتما هو استغل عاطفة البنوة والأمومة التي تجذب أحدهما للآخر كما أحس الآن اتجاه أمي، ليقول للناس إني نجحت في وضع قانون يحترم فيه الابن أمه وأباه، يا للعجب ما بال هؤلاء المسلمين يستغلون أمرا فطريا في الناس لينسبوه إلى دينهم.

كنت حينها جالسا إلى أمي وهي تقوم بخياطة سروال أبي، اغتنمت الفرصة وقلت لها أن تدع ذلك من يدها وسأتكلف بشراء سروال جديد له، لكنها أجابتني ببرود بأن والدك يُحب هذا السروال، كما أنه لا يريد أن يشتري له أحدا أي شيء، قالت ذلك ثم سكتتْ، تأملتها صامتا أتابع خياطتها، تمنيت لو أنها تتحدث معي، لو تقترب مني وتسألني كما كانت تفعل عندما كنتُ صغيرا، هل بكَ شيء؟ هل تريد أن أحضر لك شيئا ما؟ ما الذي تحب أن أجلبه لك؟ أتُرى أني مذ وقعت عقد الزواج بزوجي أميمة ظنَّتْ أني كبرتُ ولم أعد أحتاج إلى حنانها وعطفها؟ رجوتها في نفسي أن تتحدث، لم أشعر إلا وأنا أقول لها:

ـ هل ضايقكِ مجرد استبدالي لأفكار وقناعات بأخرى؟

حينها وضعتْ ما كان بيدها، نظرت في عينيي مليا، ثم قالت دون أن تزيح مقلتيها عن وجهي:

ـ بُني، أنا لست منزعجة من شخصك، فأنت ابني، وستبقى كذلك مهما حدث، لكن صدقني لو قلت لك إنك شخص غبي، نعم غبي لا تفهم شيئا، وإذا استمر بك كبرياؤك وعنادك فلن تفهم شيئا، أنا لم أدرُس في المدرسة يوما في حياتي، ولا أعرف حروفكم التي تكتبون بها أو كلماتكم التي تُنشدونها، لكن رغم ذلك لا أعتبر نفسي جاهلة، أو أني لا أفهم الحياة على حقيقتها، نعم لم أقرأ في لوحة أو كتاب، لكن قرأت ما هو أعظم من ذلك، أقرأ في صفحة هذا الكون البديع، فأجد أجوبة لما يختلج في صدري، أستيقظ فجرا وأشم عليل الصباح عندما تكون أنفاس أغلب الناس تختلط بغطاء نومهم، فأدرك حقيقة الحياة، أَنْظر إلى تعب أبيك وصناعته في نجارته، فأعلم أن كل هذه الحياة ليست عبثا.

أتدري شيئا؟ في يوم من الأيام في شبابي أردت أن أعتنق بعضا من أفكارك التي تعتنقها الآن، أو بالأحرى كنتُ أريد أن أتخلص من تديني الذي ورثته تقليدا عن أهلي، لأستعيضها بأفكار وقناعات مبينة على العلم والمعرفة دون تقليد، حينها في التو واللحظة جاءتني أجوبةُ الأسئلة التي دارت في رأسي من كل حدب

وصوب، علمتُ أن هذه الشمس التي تشرق وتغرب، وهذا القمر الذي يناجي المحبين في الليل، وهذه النجوم التي تزين صفحة السماء، وهذا الجسم البديع الذي يفتخر به الإنسان، وهذه الحيوانات الجميلة المختلفة، كلها عرَّفتني أن الحياة ليست عبثا، وأننا وُجدنا في هذه البسيطة لا من أجلها، بل من أجل حياة أخرى تأتي بعدها.

لذلك أعتبرك غبيا لا تفهم شيئا، فكيف لأمية لم تقرأ في كتاب أن ترى أجوبة أسئلتها في لحظة، وابنها الذي يُقال عنه إنه يدرس علم النفس لم يتوصل إلى هذه الأجوبة كل هذه المدة.

عادت إلى خياطتها فسكتَ كل شيء، كأنه كان يستمع إلى محاضرتها، كأنه ينتظر مني التصفيق ليصفق هو بتصفيقي، ما أجمل الكلام الذي يدغدغ المشاعر، والحروف التي تنسل من الثغر لتصل إلى سويداء القلب، لكن صدقا لأول مرة أشفق على أمي، قد تستطيع أن تحرك مشاعر القلب، لكن بالكلام والثرثرة لا تستطيع أن تصل به إلى لب العقل، متى يفهمون أننا نحْتكم إلى عقولنا بدل قلوبنا، لكن للأسف يا أماه، شحنوك خرافة ودجلا، سحروك بمجرد كلام مثلما سمعتُه منك الآن. لم أقل لها شيئا من ذلك، لا أريد أن أجرحها، كنتُ أتأمل وجهها بإشفاق فقط.

قدِمتْ أختي من كليتها، ألقت التحية وقبَّلت رأس أمي، سألتها عن حالها مع مرضها، وكيف أضحت الآن؟ أدركتُ حينها أن أمي كانت مريضة منذ أيام، كيف لم أنتبه لذلك؟

سألتْ أمي جمانة عن تأخرها، فأخبرتْها أنها كانت مع أميمة، عادت بي أمي بسؤالها إلى الأيام التي كنتُ فيها غبيا حقا، كنتُ أقف أمام حرية أختي وأسألها عن كل خطوة أين خَطتها؟ ومتى خرجتْ؟ ومتى دخلتْ؟ ومع من كانت؟ كم كنت قاسيا عليها، لست أنا السبب، السبب هو ذلك الإسلام الذي جعل مني شخصا متعجرفا وقاسيا ومتشددا، لكن الآن لم أعد أبالي، فمن حق أختي أن تذهب مع من شاءت وأن تعود مع من أرادت، وأن يدخل بيتها من تحب، فالغيرة التي يُحدثوننا عنها هي مجرد عُقد نفسية نملأ بها بواطننا، أما الصواب فهو أن الإنسان ولد حرا وسيبقى حرا في اختياراته وأفعاله وأقواله وتصرفاته، وإن كان عمر بن الخطاب قد استغل هذه الحقيقة أيضا لصالح دينهم، ألم أقل إنهم يستغلون كل أمر غَريزي في الإنسانية لصالحهم؟ لكن ومع أنهم يتشدقون بأن الإنسان حر وولد حرا، فإنهم يأتون على تلك الفكرة بنقيضها، فأين حرية المرأة في أن تخلع عنها الحجاب؟ أين حرية الإنسان في أن يُغير معتنقه؟ أين حرية الفتاة في أن تدخل مع من شاءت وتخرج مع من أرادت؟ أين حريتها في أن تسافر بمفردها؟ أين حريتها في أن تعاشر من الرجال مَن تريد؟ فعجبا لهم، الرجل يعطون له حق

الزواج من أربع، والمرأة المسكينة يزوجونها برجل حتى وإن كان ضعيفا جنسيا، وإن أرادت حرية الطلاق منه لا يُعطونها هذا الحق، أيٌّ دين هذا كنتُ أسجن فيه نفسي؟

كنت أفكر في هذا عندما دلف أبي المنزل، ألقى التحية هو الآخر، وسأل عن حال أمي. آه، كلهم سألوا عن حالها غيري، متى مرضتْ؟ كيف أني غفلتُ عنها، ولم أدر بمرضها؟

بعد برهة من الزمن جمعتنا طاولة العشاء كما جمعتنا يوم أعلنتُ تحرري من الخرافة، ومرَّت صامتة كما مرَّت حينها، بعدها ذهبتُ لأخلد للنوم، وقبل الهجوع اتصلت برامز مديري الشاب في العمل، طلبت منه أن نخرج لنزهة قرب الغابة، فقد أحسست أني في حاجة إليه من غير أيام العمل، فهو وحده الذي يفهمني ويقدِّر أفكاري.

*****

في الغابة الكثيفة بأشجار الصنوبر والبلوط، ذات المساحة الخضراء التي تعطي للنفس هدوءها وبهجتها، وللقلب طمأنينته وراحته، حيث يُحس المرء أنه مع أمه الطبيعة، الطبيعة التي اختارته ليكون سيدها، فكم هم قساة الذين يقطعون أشجارها، أو يشعلون النار في بعض جوانبها للطبخ ثم يتركونها؟ هذا هو العقوق

الحقيقي. في تلك الغابة كنتُ مع رامز نمارس رياضة المشي بملابسنا الرياضية الزرقاء زرقة السماء الصافية، عندما توقفنا عن المشي للاستراحة سألني عن تعامل أهلي معي بعد أن أحلتُ قناعاتي.

في الفترة الأخيرة غالبا ما كان يسألني هذا السؤال، والسبب كما كان يقول دائما، هو أن أول عائق يجده الشباب عندما يتخلصون من الخرافة، هو مواجهة أهلهم لهم، كأنهم اشترطوا عليهم أن يُنجبوهم بشرط أن يتحكموا في حريتهم ومعتقداتهم، كأنهم أنجبوهم ليقيدوهم بما قيدوا به أنفسهم، كأنهم يتصورون أنك إذا رفضت الانصياع لمعتقدهم، فإنك ترفضهم.

رامز تفطن لهذا الوضع، وتيقن أني سأعيشه، هو شخص متحرر، لا يقبل الفكرة حتى يُخضعها للعقل، وهذا منهجي الآن.

لا أنكر أن لرامز فضلا كبيرا على ما أنا عليه الآن من تحرر وحداثة وتنور، كان ذلك مُذ أكثر من سنة، كنتُ أبحث عن عمل، ما زلت أتذكر عندما ولجتُ مؤسسة "داوكينز" الخاصة بأوراقي وشهاداتي التي تحمل بيان سيرتي الذاتية ومستواي العلمي والدراسي، دخلت الإدارة، كان جالسا في مكتبه بلباسه الأنيق وشعره الأسود اللامع، وقف منتصبا وصافحني، ثم طلب مني الجلوس.

تطلعت فيه، شاب في الثلاثين من عمره، طويل الجسم عريض المنكبين، حليق الرأس، يمر على وجهه من مقدمة أذنه اليمنى إلى مقدمة أذنه اليسرى خط عريض أسود عبارة عن لحية قصيرة تُزين وجهه، استغربتُ كيف لشاب في مثل عمره أن يُدير مؤسسة بهذا الحجم.

أخبرته أني جئته طالبا الاشتغال في مؤسسته لِما أحمله من مؤهلات تؤهلني لهذه المهنة، أخذ مني أوراق بيان السيرة وبعض الشهادات وجعل يتفحصها ثم قال:

ـ تخصصك علم النفس، وأنت الآن تحضر لدكتوراه في علم النفس وعلاقته بالمجتمع؟

أجبته بنعم، فأردف:

ـ مؤسستنا لا يوجد بها فرع خاص لتدريس مادة علم النفس، لكن سيكون ذلك أمر جميل لو نستطيع أن نُدرسها لتلامذتنا بطرق بسيطة ومحببة، قم بزيارتي غدا على الساعة العاشرة صباحا، وسأقوم بامتحانك في مؤهلاتك الديداكتيكية والبيداغوجية.

في ذلك الموعد الذي حدده لي كنت أجلس أمامه في امتحان شفهي، لكن حقا لم تكن أسئلته صعبة، أو لم تكن كما كنت أتوقعها، سألني عما سأفعله إذا ما كنتُ في فصلي الدراسي وأذَّن المؤذن

للصلاة، هل أكمل الدرس أم أقطعه للصلاة؟ أجبته ألا يقلق من هذه الناحية، فأنا أصلا لا أصلي وإذا صليتُ فلا أحافظ عليها.

سألني ماذا لو تعارض نص ديني مع حقيقة علمية؟ كيف ستتعامل مع هذه الإشكالية؟ أجبته بجواب رأيتُ أسارير وجهه تنبلج منها ابتسامة راحة ورضى، قلتُ له إن الدين مرفوض في فصلي الدراسي، والعلم أولى من الدين بالنسبة لي.

سألني عدة أسئلة في هذا الجانب، فأجبته بما أحمله من قناعات دون تلعثم، حينها أسند لي تدريس مادة علم النفس في مؤسسته.

شرعت في العمل في تلك المؤسسة، كان رامز يحضر معي بعض الحصص، ويراقب عملي، كنت أحس بأنه راض على ما أقدمه، بل ومع توالي الأيام، لم تعد صلته بي بصفته مديري في المؤسسة فحسب، بل أصبح صديقي، كان يُعيرني كتبا أطالعها قراءة ودراسة وتلخيصا وأعيدها له، آنذاك مع تلك الكتب تفطنتُ إلى أني كنت أعيش الخرافة والدجل الديني مع كل كتاب أمر به، وبعد نصف سنة من اشتغالي في مؤسسته، سألته:

ـ هل حقا هذا الدين الذي يعتنقه الناس هو مجرد أداة يستعملها الحكام لتخدير الشعوب، فيُخرسونهم به حتى لا يطالب أحد منهم بحقوقه؟ هل كل ذلك التراث الذي يدعو إلى عدم الخروج على

طاعة الحاكم، وعدم المطالبة بحقوقك حتى لو كان الحاكم يجلد ظهرك؟ هل كلها أحكام استعملها الحكام ورجال الدين لتخدير الشعوب؟

قال لي حينها إنه سيجيبني بجملة واحدة فقط قالها كارل ماركس وهي: "الدين أفيون الشعوب"، وإذا أردتَ أن تنقشع لك الحقيقة، فاقرأ، ثم اقرأ، ثم اقرأ، وكما أوصاني، قرأتُ ثم قرأت ثم قرأت، حتى احتجت لأخلو بنفسي لأقرأ أكثر، فوجدته بجانبي يُعطيني شهرا كاملا إجازة خاصة لي، حينها تأكدت أني كنت مغفلا كل تلك السنوات، لذلك فالفضل كل الفضل من تحرري مما كنت فيه يعود للسيد رامز.

انتبهت من جفلتي بعدما أعاد السؤال على مسامعي، أخبرته أنهم لا يضايقونني، لكن أحس أن معاملتهم معي قد تغيرتْ، لا أدري هل حقا تغيرتْ؟ أم هو مجرد إحساس خاطئ أحسُّ به؟ قلت له:

ـ هل تصدق أن أمي وصفتني بالغبي، وأني لا أفهم شيئا؟

ضحك ملْء فمه وهو يقول:

ـ اعذرها يا صديقي صامد، الذنب ليس ذنبها، الذنب ذنب المجتمع الذي يكرس الجهل والغباء، قل لي بحق الطبيعة مَن الغبي؟ هل نحن أم المسلمون الذين يحتقرون المرأة ويهينونها، ويجعلون

الرجل أفضل منها باسم القوامة؟ تصور يا صديقي أنهم يقولون إن عقلها ناقص، ثم يأتي متدين ويقول بل أكرمها لأن القرآن يقول: "وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ"، هل هذا هو تكريم المرأة؟ ثم يأتي آخر فيَسجن المرأة في خيمة في حر الصيف ويقول إنها عورة والحجاب واجب، أي غباء هذا؟ نعم مثل هذا كان ينطلي على الأعراب في جزيرة العرب في الجاهلية، أما ونحن في عصر التكنولوجيا والعلم، فمن سيصدق مثل هذه الخرافات.

قلتُ له موافقا وأنا أضحك ملْء فمي، محمد ملأ قرآنه بأن إلهه رحيم ورحمان وطيب وجميل، وفي الوقت نفسه، نجد العالم كله شر، قتلى في سوريا، مذابح أطفال في بورما، اغتصاب نساء في العراق، أين هذا الإله الرحيم؟ لكن صديقي رامز أجهض ضحكتي عندما قال:

ـ هذا ما يستحقه المسلمون الأغبياء، دعهم يقتلون بعضهم البعض لتتخلص منهم البشرية، فهم مجرد حثالات لا أهمية لها فوق الأرض، كما أن الانتخاب الطبيعي يستوجب عليهم الانقراض، والبقاء للأقوى، ألا ترى كيف يقفون على حرية الناس منعا وتحريما؟ لكن إذا تعلق الأمر بفضائحهم فلن تجد نهاية لها، في كل يوم تسمع أن فلانا الإسلامي اغتصب طفلة، أو رأوه في ملهى ليلي، أو أن الإسلامية الفلانية تفرض الحجاب على الناس، وهي تزيله عنها في بلاد الأنوار.

ما قاله رامز صحيح، لكن ربما لا أتفق معه فيما يحصل للأطفال والنساء في بعض الدول العربية، فليس ذنبهم ما هم عليه.

استمرتْ سخريتنا وقهقهاتنا على جهل وغباء المسلمين، ولم يقطعها إلا شيخ عجوز ابيضت لحيته، وكاد شعر حاجبيه يَبْيَض هو الآخر، وذلك عندما طلب منا أن نساعده ليحمل على ظهره رزمة أعشاب وأغصان يابسة.

تقدمتُ لأساعده على حملها فاستوقفني رامز:

ـ دع عنك هذا العجوز الخرف، هيا يا صامد فقد تأخرنا.

قال العجوز وهو يخاطبني:

ـ بني تمهل، الطريق لن تكون طويلة أمامك، ستصل في يوم ما، لكن مساعدتك لي لن تأخذ منك إلا بضع ثوان.

فتح رامز فمه قائلا بغضب: بماذا تهذي أيها العجوز الخرف؟ ثم من أعطى لك الحق لتقطع أغصان الأشجار التي وهبتها لنا الطبيعة، أنت تساهم في انقراضها بأفعالك الخسيسة هذه، خذ ظلك معك واغرب عن وجهي.

حاول العجوز أن يقف منتصب القامة، أخذ غصنا من رزمته، وقام بكسره، ثم رمق رامز بنظرة واثق يخاطبه:

ـ أيها الشاب الفتي، جسمُ شاب يُشرق، وعقل يَغرب، بل ينكسف، ألم تنتبه إلى أن هذه الأغصان والعيدان يابسة وميتة وهي مهملة على جنبات الطريق؟ أقوم بتنقية الطبيعة التي تدافع عنها منها.

تقدمتُ إلى العجوز وساعدته على وضع رزمة الأعشاب على ظهره، خاطبني مرة أخرى قائلا:

ـ أنت شاب طيب، لا تسمح لأحد أن يطيل عليك الطريق.

قلتُ له وهو يَمضي في طريقه، وقد ولى لنا ظهره، وفوقه رزمة الأعشاب:

ـ أي طريق تقصد؟ فطريقنا هذا أقرب الطرق إلى المدينة.

سمعنا صوته يقول دون أن يلتفت لنا:

ـ الطريق نوعان، قد يوصلك الأول، لكن لا تجعل الأشرار يؤخرونك عن الثاني!

لم نستوعب ما قاله العجوز، ولم نبال بما قاله، أكملنا طريقنا إلى المدينة. وفيها اتجهت مع رامز إلى المكتبة الكبرى لشراء بعض الكتب، لكن جاءه اتصال اضطره ليتركني أدخل بمفردي إلى المكتبة، ليغادر إلى شأنه مسرعا.

*****

"المكتبة الكبيرة" هذا هو اسمها، تقع وسط المدينة، هي حقا مكتبة عامرة فخمة عظيمة، يوجد فيها كل الكتب التي قد تخطر على بال، ومن كل التخصصات وفي كل المجالات، يوجد رفوف كبيرة لكتب الفلسفة، وأخرى خاصة بمجال التاريخ، وأخرى تخص الكتب العلمية، وطبعا لم تستثن مجال الخرافة، أقصد الكتب التي يسمونها الإسلامية بكل أنواعها، كانت المكتبة مجهزة بنظام المراقبة، ويمكن لك أن تتجول في أروقتها وتأخذ ما شئت من الكتب ثم تقوم بسداد ثمنها قبل خروجك من الباب.

كان رامز قد حدد لي عناوين بعض الكتب التي يمكنني شراؤها، من بينها كتاب "أصل الأنواع" لتشارلز داروين، وكتاب "هل مات الإله" لفريدريك نيتشه، وكتاب "تاريخ موجز للزمن" لستيفن هوكنج الذي توفي حديثا، وكتاب "الجين الأناني" و"صانع الساعات الأعمى" و"وهم الإله" لريتشارد داوكينز، ورواية غثيان لبول سارتر، وغيرها من الكتب الأخرى.

وضعت الكتب التي اشتريتها على طاولة، جلستُ على كرسي وشرعتُ أتفحصها وأقرأ عناوين فهارسها، في لحظة شعرتُ بشخص ما يقف فوق رأسي، رفعتُ رأسي لأجد أن الواقف شاب بدا لي أن عمره يقارب عمري، ينظر لي مبتسما، منذ النظرة الأولى عرفت توجهه، إنه "إخوانجي" لحيته متوسطة إلى كبيرة

الحجم تنِمُّ عن تدينه، أبيض الوجه، أنيق في ملبسه، متوسط الطول والجسم، تنبعث منه رائحة الطِيب التي يستعملها الإسلاميون.

استفزني الأمر، ماذا يظن نفسه حتى يتلصص على الكتب التي اشتريتها؟ قلت له مُغضبا: ما الأمر؟ ماذا هناك؟

أجابني دون أن يفتر وجهه عن ابتسامته:

ـ لا شيء صديقي، أعجبتني الكتب التي اشتريتَها، فأحببت أن أسترق منك عناوينها، اسمي **يوسف** أملك مكتبة بالجهة الأخرى شمالا من المدينة، أقوم بشراء الكتب المهمة في أغلب التخصصات من هذه المكتبة وأبيعها في مكتبتي.

قال ذلك وهو يمد لي يده ليصافحني، ترددت في البداية، ماذا سأفعل؟ هل أصافحه؟ لا أحب أن أصافح مثل هؤلاء الأشخاص، بل لا أحب رؤيتهم في طريقي، استمرتْ يده ممدودة لي ثم حسمت أمري، صافحته وسحبت يدي بسرعة وأنا أقول له:

ـ اسمي صامد، متخصص في علم النفس.

قال لي إن بعض الكتب التي اشتريتُها طبعاتها رديئة، ويمكن أن أجد في هذه المكتبة طبعات أخرى أفضل من تلك التي أخذتُها، وبترجمة أفضل، قال إنه بحكم احتكاكه بالكتب كثيرا أصبح ماهرا في معرفة طبعات الكتب الجيدة من الرديئة، والكُتَّاب الجيدين في أغلب التخصصات من الذين يقتحمون مجالات غيرهم.

قلت له بجرأة، وما دخلك أنت في معرفة طبعات هذه الكتب؟ فربما أنتم لا تقرؤون مثل هذه الكتب**!**؟

نظر لي مبتسما كعادته وقال ما جعلني مستغربا:

ـ بل قرأتُ أغلب تلك الكتب التي اشتريتَها، على أي لن أكون ضيفا ثقيلا عليك، هذه البطاقة يوجد بها اسمي وهاتفي ومكان مكتبتي، سأكون سعيدا جدا لو تقوم بزيارتي إلى هناك في أقرب وقت.

مددت يدي لآخذ منه البطاقة دون أن أشعر وكأنه طوقني بسحر ما، تركها في يدي ثم رحل وأنا أتابعه ببصري حتى اختفى عن أنظاري، تركني مشدوها في مكاني.

*****

(6)

ضريبة الحب

غريبٌ ما يحصل مع أميمة، فبعدما شرعت في خُطتها وبدأت تنفيذها، وعملت بكل ذكائها على إنجاحها، ها هي ذي تصادفها مشكلة جديدة في طريقها، مشكلة أخرى يوجد صامد طرفا فيها أيضا.

أميمة تعيش مع أمها وأخيها في بيت متواضع الحال بعد وفاة والدها، أمها تحب أن ترى ابنتها سعيدة في أسرتها الجديدة مع زوجها، لذلك لم تقبل بصامد زوجا لابنتها حتى سألت عن أحواله، تبين لها بعد ذلك ألا خوف عليها منه ومن زواج ابنتها به، أما أخوها **حسن** فكان رافضا لهذا الزواج منذ البداية، تناهى إلى سمعه أن صامد كان يدخل الحانات الليلية ويعاقر الخمور، لكن بعدما وقفت أمه في وجهه، ترك لها قرار الولاية على ابنتها، حسن لم يدرس قط، ورغم تدينه الشكلي بلحية متوسطة إلا أنه لا يعرف من الإسلام إلا قشوره كما تقول له أخته أحيانا، وذلك أنه متسرع

وكثير الغضب وحاقد على كل عاص يراه على معصية، بل يزدري كل مَن لم تلبس الحجاب، أو كل مَن يراه في الشارع يمسك بيد صديقته، وكم حاولت أخته معه لتصلح من شأنه، لكنها لا تجد تجاوبا منه، في إحدى المرات طلبت منه أن يخرج معها لبعض شأنها، وعندما كانا واقفين في حديقة عمومية مرت بمحاذاة منهما فتاة في كامل زينتها وأناقتها، بصدر بارز وتفاصيل جسم ظاهرة، حتى أن عطرها القوي دخل أنف حسن، رأت أخته شرارة غضبه في وجهه، ثم ما هي إلا مدة يسيرة وإذا بشاب يمسك بيد فتاة لا تنقص الثانية في زينتها عن الأولى، حينها انتبهت إلى أن أخاها يحرك شفتيه مستعدا لسبهما، فما كان منها إلا أن أمسكت كفي يديه بيديها، ثم وقفت قُبالته مباشرة تحدق في عينيه، بعد برهة قالت له:

ـ أخي العزيز هون عليك، أنت لست إلهاً لتعاقب الناس، ولست قاضيا لتقضي في شأنهم، ولا يسعك إلا أن تلتمس لهم الأعذار، فرُب متبرجة خير من كثير من المتدينين، ورُب عاص يبكي ليله ونهاره على معصيته.

سكتت تنتظر رده، ثم أردفت:

ـ أنظر لي الآن أمسك بيديك، وأقف أمامك مباشرة، مَن يرانا الآن يخالنا عشيقين، لكنك لست كذلك، بل أنت أخي العزيز، إذن أحكام الناس على الناس مجرد مضيعة للوقت واتهامهم في أعراضهم،

نعم أنا أقدر غيرتك وحسن نيتك، لكن ليس بكره الناس والحقد عليهم تُحل المحظورات، أبغض المعصية ولا تبغض العاصي، بل أحب العاصي وارجُ له الهداية، فربما يدخل النار مسلم لكنه في الحقيقة مُرائي، وقد يدخل الجنة عاص لكنه يكره معصيته ويبكي على ذنبه.

هكذا كانت دائما مع حسن تنبهه وتبين له خطأ تصرفاته، رغم أنه يكبرها بخمس سنوات.

لذلك فإن معضلتها الجديدة من هذا الشكل، وهو تسرع مَن يُحيط بها وعدم استخدامهم لعقولهم في حل المشكلات، والحكم على الأشخاص دون العمل على إصلاحهم، فبعد أن تناهى إلى علم حسن أن صامد قد ألحد، جن جنونه، جاء إلى البيت لهيبا مشتعلا، أيقض أمه من قيلولتها وأخبرها الخبر، انتفضت أمه من فراشها، فزادت إفراغ البنزين على النار، أحست بقلبها يضرب بقوة، كيف أن زوج ابنتها ملحد؟ كيف تقبل بزواج كهذا؟ سألت ابنها عن مدى تأكده من الخبر، فهي تعلم أن ابنها متسرع وثقيل الفهم، فأكد لها ما سمعته لتوها بأذنها، لكنها لم تصدقه، ولم تكذبه، جعلت نفسها في منزلة بين منزلة التصديق والتكذيب، حتى تأتي ابنتها من كليتها لتستعلم منها صحة ما سمعته.

بعد الزوال بقليل دلفت أميمة لتجد أمها وأخاها في صمت ووجوم مريب، وجههما مكفهر، أخوها حسن يشبك أصابعه ويترك الإبهامين يدوران على بعضهما البعض وقد لوى عنقه إلى غير الجهة التي تقف فيها أخته، أمها تنظر في وجهها بغضب، استعاضت ملامح أميمة، لم تستشعر سبب وجومهما، بادرت بالسؤال:

ـ خير إن شاء الله، ما الأمر؟

ـ هل غدَا صامد ملحدا؟

قالتها الأم وهي تحدق في عيني ابنتها، حينها خفق قلب أميمة ولاذت بالصمت، فكم يصعب على المرء مواجهة أمواج متلاطمة بمفرده دون أن يشفق عليه أحد، بل قد يكون أقرب الأقربين له يخرِق سفينته ليَدْخُلها الماء، أميمة الآن وسط الأمواج، أمواج صامد، وأمواج أمها وأخيها، وأمواج مشاكل دراستها، وأمواج نظرة المجتمع لها لأنها متزوجة بملحد، تقاوم كل هذه الأمواج لتستطيع البقاء قوية متشبثة بأملها.

ـ لن يكتمل هذا الزواج، ستطلبين منه الطلاق، وفورا.

لفظ حسن هذه الكلمات في وجهها، فما كان منها إلا أن جلست بهدوء لتشرع في عملية التعقل معهما، لعلَّهما يفهمان ما ترمي إليه، أو يعودان إلى رشدهما.

ـ أخي، أمي، أنا لن أتزوج بصامد الملحد، بل سأتزوج بصامد المسلم!

قاطعها أخوها مسفِّها قولها، ضاحكا بسخرية على جملتها.

ـ ما هذا الهراء؟ نحن نعرف صامدا واحدا، والزواج منه لا يحل أبدا، فلا نقاش في هذا الموضوع، انتهى الكلام.

لم تستطع أميمة أن تضبط نفسها بعدما سمعت ما سمعته من أخيها، فصرخت غاضبة:

ـ من أنت لتختار لي ما أريده؟ ومن أنت لتفرض أو تمنع عني ما أختاره لنفسي؟ نعم أنا أقدركم، وأقدر حرصكم علي، وأعلم أكثر مما تعلمون أن زواجي باعتباري مسلمة لابد أن يكون بموافقة الأهل، لكن التسرع مرفوض، وليس هو سبيل حل ما نحن فيه، مِن حقك أخي أن تقف في وجهي إذا رأيت مني ما يسوؤك أو يعفر وجهك في التراب، لكن أن نتسرع في أمر له حله، فهذا ما لا أحبه في كل شؤون حياتي.

صمتت، ثم أخذت كوب ماء، شربت منه نصف ما فيه، ثم أكملت كلامها بتريث وهدوء.

ـ أنا أعرف أن صامدا أصبح ملحدا، لكن من يدري لعل إلحاده ظاهري فقط، كما أن زفافنا لم يحن بعد، ولن يحين إلا بعد أن أوافق عليه، فليس هو من سيجبرني على الزواج منه، ومن يدري

أيضا ربما لن نتزوج ولن يتم هذا الزواج، كما أني أعمل جاهدة الآن على أن يعود صامد الذي تعرفانه، بل أفضل مما كنتما تعرفانه، ربما يحدث ذلك، فالقلب بين أصبعين من أصابع الرحمان، لذلك أرجوكما اتركاني وشأني أنهي مهمتي كما أحب، فقد بدأتها، فلا مجال للرجوع إلى الوراء، إما انتصارا أو هزيمة.

هنا تحدثت أمها منهية الموضوع.

ـ ابنتي أميمة أقولها وأكررها، لن تتزوجي بملحد ما اجتمعت روحي بجسدي، ونسلنا ليس نسلا منحلا مميعا حتى نختار لبناتنا مثل هؤلاء الأزواج، ستذهبين إلى أهله وتحدثينهم في أمرك وأمره وتسمعين رأيهم وخبيئة قلوبهم، وتحدثينهم بقرارنا، أما بالنسبة لي فاعتبري الموضوع قد انتهى.

*****

(7)

(صامد)

الغرب يرفضني

لسانك أيها الإنسان الذي هو جزء منك، قد يأتي لك منه ما تحب، وقد يأتيك بما تكره، قد يكون سببا في نجاتك، وقد يكون سببا في غرقك، قد يفتح عليك أبواب الخير، وقد يفتح عليك أبواب الشر، لم أكن أعلم أن لساني الذي هو جزء مني قد يفتح عليّ بابا لم أكن أريد أن أفتحه، لم يكن لساني وحده الذي شارك في هذا الأمر، كان صديقي الصخرة الملساء صفوان متعاونا مع لساني في أن أقحموني في أمر أكرهه، فيا ليتني أمسكتُ لساني، وألجمته بلجام من حديد في ذلك اليوم، لو فعلتُ ذلك ما حدث ما كنت أكرهه.

كان لي مع صفوان عوائد ألفناها واعتدنا عليها، منها أننا لا نُخفي على بعضنا البعض ما يقع معنا من أحداث ومستجدات، أخبِره بمستجدات تخصني، ويخبرني هو بما استجد معه، لذلك أتى لساني في ذلك اليوم يُحدِّثه ويَذْكُر له ما حصل معي عند لقائي

برامز في الغابة، وقصة العجوز الغريب، ولقاءُ الصدفة الذي وقع في المكتبة الكبرى مع (الإخوانجي).

وما أن أتيت على ذكر أمر يوسف، حتى وجدتُ الدهشة على وجهه تسائلني، كيف أن هذا الشخص حادثك واهتم لكتبك وهو لا يعرفك؟ بل أكثر من ذلك أنه كما قلتَ تبدو عليه أمارات التدين؟

أجبت على سؤاله الافتراضي بأن ما قصصته عليه هو ما حصل تماما، لأجد صفوان يُلح قائلا بصوت مسموع:

ـ لابد أن نزور مكتبته لنَّطلع على بعض شأنه، فأن يعطيك بطاقته الشخصية ويطلب منك زيارته، لعمري إن في الأمر أمرا ما.

لم أستغرب طلب صفوان مني بزيارة ذلك الشخص، فأنا أعرف طباعه وشخصيته، فهو شخص أحمق متقلب المزاج، ولو أني تفطنتُ لذلك قبل أن أقص عليه ما حدث معي ما كلمته في ذلك الموضوع قط، آه من أرغمني على محادثة هذا الغريب الأطوار في هذا الموضوع، يجب أن آكُل لساني هذا الذي يسبق تفكير عقلي.

حسمتُ معه في أمري، ورجوته ألا يحاول معي وأن يتركني وشأني، فلا يُمكن لمثلي أن يزور مِثْلَهُ، فما الذي يجمعني به حتى أحمل رجلي إلى مكتبته؟ وما أن قلتُ هذا الكلام حتى وجدتُ صفوان أكثر إصرارا للذهاب إليه، كأن الرفض الذي ألقيته على

مسامعه وَقُود أشعل نار حماسه أكثر، وجدتُ نفسي منهزمة أمامه، رجوته ألا نفعل، فما من شأن لنا عنده.

ـ ما الذي سنخسره يا صديقي صامد؟ نزور الرجل، ونتحدث معه، ثم نعود، أليس هو من طلب زيارتك؟ أنت لا تفعل شيئا من تلقاء نفسك، بل هو من دعاك.

عندما أدركت أن إصراره هزم إصراري، استسلمت للأمر، حملتُ قدماي أجرهما إلى مكتبة هذا اليوسف جرا، وأنا أفكر لو عاد بي الزمان لساعة فقط ما حدثتُ صفوان بهذا الخبر، ليس لأنه ليس أهلا للثقة، بل لأنه بكل بساطة غريب الأطوار، فلا أستغرب إطلاقا أن نصل إلى باب مكتبة ذلك الشخص ثم أسمع صفوان يطلب مني الرجوع من حيث أتينا، لا أستغرب ذلك بتاتا فصفوان هذه طباعه.

انطلقنا في طريقنا نحو المكتبة التي كنتُ أعرف مكانها من خلال عنوان البطاقة التي في حوزتي، تجاذبنا أطراف الحديث في الطريق، قال صفوان:

ـ هل شاهدتَ يوم أمس حادث هجوم أحد الأشخاص على المصلين في نيوزيلاندا، لقد قتل خمسين شخصا كانوا يُصلون في المسجد، خِلته يلعب معهم اللعبة المشهورة تلك.

قال صفوان ذلك ثم أطلق قهقهته المعتادة، حدقتُ فيه شزرا، فالموقف لا يستدعي الضحك، ثم لا أدري لما تذكرتُ كلام رامز عندما قال لي إن هذا ما يستحقه المسلمون، فتخَلُّفهم وعنجهيتهم هي التي تؤدي بهم إلى ذلك.

قلت لصفوان إن الإرهاب مرفوض من أي طرف كان، وإن كان في اعتقادي أن ما فعله الرجل هو مجرد ردة فعل على ما يشهده العالم من إرهاب المسلمين، نعم الإسلام تسبب في حروب واقتتال وإرهاب على مدى العصور والأزمان، لكن الإرهاب مرفوض.

ـ صَدِّقني صديقي فكما تركتُ ديني لا أَحَب لي الآن من أن أغير بيئة المسلمين، حتى لا يشار لي بالبنان أني مسلم إرهابي وأنا بريء من الإسلام ومن الإرهاب.

حملق صفوان في وجهي كعادته ثم أفرج عن قهقهته المعتادة، ورغم أني لم أفهم سبب ضحكه إلا أن كركراته لم تعد تستفزني، حين وجد الصمت جوابا لي على قهقهاته قال لي:

ـ ومن يقبل بملحد مثلك في الغرب يا صديقي صامد؟

قالها وأكمل ضحكه، قلت له ببرود دون مبالاة بنشوة ضحكه:

ـ بل قل من يقبل بملحد مثلي في بلاد العرب؟ أما في أوروبا أو أمريكا فهي دول الحريات وكرامة الإنسان، وهناك أجد متنفسي مع من يتقاسم معي أفكاري وتوجهاتي نفسها.

لم أفحمه، أجابني قائلا:

ـ إذا ذهبتُ إلى هناك فسأجد ترحيبا منقطع النظير من حسنواتهم وشقرواتهم وملاهيهم، أما أنت يا صديقي فلن تَقبل بك إلا دولة كوريا الشمالية؛ لأنها الدولة الوحيدة التي تُقر بالإلحاد، أما غيرها من بلدان العالم فلا يثقون فيكم صديقي للأسف.

استفزني هذا الكلام، صرختُ في وجهه، من أين لك بهذا الهراء والافتراء على دول وصلتْ إلى قمة الحريات والديمقراطيات؟ أتخالني ذاهبا إلى دولة عربية لتقول لي إنها لن تضع ثقتها بي، إني أحدثك يا صديقي عن دول الغرب، دول الديمقراطية، دول حقوق الإنسان.

ما أن أكملت صراخي حتى وجدت صفوان يتأمل وجهي مشفقا وهو يقول:

ـ عزيزي صامد ألم تقرأ يوما أو تسمع عن سياسات الدول، أم أنك حبيس كتبك وتخصصك، تاركا لغيرك مطالعة سياسات الدول العظمى، اسمع مني حتى تكون على دراية من أمرك، ثم لا تقل إن صفوان صخرة ملساء وشاب أبله لا يفقه في هذه الأمور، ربما

ستستغرب بشدة إذا قلتُ لك إن أمريكا، نعم أمريكا العظمى تصنفكم - أنتم الملحدون- على أنكم غير مقبولين في مجتمعهم، وقد قالها بوش الأب بعظمة لسانه سنة 1987 حينما سأله صحفي أمريكي: "هل يمكن اعتبار الملحد الأمريكي متساويا في الجنسية والمواطنة مع غيره من الأمريكان؟"، فكان جوابه صاعقا، إذ أجابه قائلا: "لا أعرف إذا كان من الممكن اعتبار أن الملحدين مواطنون أو حتى اعتبارهم محبين للوطن، هذه أمة موحدة تحت راية الله"، هذا الرد المشهور منه ليست زلة لسان أو تزلفا لأحد، بل إن دساتيرهم تقرر أفظع مما قاله، اقرأ إن شئت في دستور ولاية أركنساس في إحدى موادها تقول بالحرف: "لا يحق لأي ملحد تولي أي منصب إداري في الولاية، ولا يكون أهلا للشهادة في المحكمة"، أرأيت يا صديقي، قلتَ لي ذات يوم إن المسلمين لا يأبهون بشهادة المرأة، وها هم كما تسمع لا يأبهون بشهادتكم أيضا، بل إن في دستور ولاية نورث كارولينا وولاية بنسلفانيا يعتبرونكم فاقدين للأهلية، وعليه فلا يحق للملحد إنشاء أي مؤسسة ربحية، وغيرها من الدساتير الأخرى كدستور ولاية تينيسي وتكساس إذ إنهم يشترطون الإيمان بالله للثقة وتولي منصب إداري، أنا لا أكذب عليك يا صديقي لتَعدل عن الإلحاد، فأنا مثلك ربما لا أعتبر نفسي مسلما، لكن هذه هي الحقيقة، والطامة الكبرى أن هذا ليس رأي رئيس أو دستور فقط، بل رأي الشعب والفلاسفة، هل قرأت يوما أن مؤسس

الدولة المدنية جون لوك قال: "لا يمكن التسامح على الإطلاق مع الذين ينكرون وجود الله، فالوعد والعهد والقسم من حيث هي روابط المجتمع البشري ليس لها قيمة بالنسبة إلى الملحد"، ولغرابة الصدف أنه قال هذا في رسالته في التسامح، هذا هو تسامحه مع الملحدين، ثم هل تريدني أن أحدثك عن رفض المجتمع الغربي لكم؟ اسمع مني إذن، هل سمعت بالمجلة العلمية العملاقة المسماة "الأمريكي العلمي" ماذا نشرت؟ نشرت يا صديقي بحثا عن مدى كراهية المواطن الأمريكي للملحدين، وكان عنوان البحث "نحن لا نثق في الملحدين"، بيَّن هذا البحث أن معظم الأمريكيين لا يُطيقون الملحدين، ولا يقبلون أن يكونوا حتى معلمين لأبنائهم، بل إن في جريدة واشنطن بوست سنة 2011 خرجتْ بتقرير تصنف فيه الملحدين على رأس الطوائف الأكثر كراهية بين جموع الشعب الأمريكي، وحتى لا أثقل رأسك بهذه المعطيات الحصرية من صفوان بريس.

قال ذلك ثم ضحك ضحكته المعتادة، لم أقطعها عليه، كنت في أشد أوقاتي حنقا وغضبا، انتهى من قهقهته فأكمل:

ـ أختم بهذا الخبر الصاعق حتى لا أزعجك، يقول الخبر يا صامد إن جامعة مانيسوتا الأمريكية قد أجرت بحثا على مدار سنتين حول أكثر طائفة يخشاها المواطن الأمريكي، هل المسلمون المتطرفون أم الشواذ جنسيا أم الملحدون؟ لتنزل الصاعقة من السماء أن أكثر

مَن يخشاه المواطن الأمريكي هو الملحد، نعم يا عزيزي صامد، المسلم المتطرف أقرب إلى الأمريكي منك أنت، ثم تقول لي أريد الهجرة إلى الغرب من أجل أن أتمتع بحقوقي، عن أي حقوق وعن أي غرب تتحدث يا أبله.

حقا نزل كلام صفوان على قلبي كالصاعقة، لم أكن أتصور ذلك إطلاقا، كيف أني أدافع دائما عن الإنسانية لأتلقى الآن هذه الأخبار، إذا لم يكن وجودنا مرغوبا فيه في الدول التي يقال عنها إسلامية، وإذا كانت نظرة الغرب إلينا كما وضحها لي صفوان، فأين سنذهب؟ أين سنعيش؟ ما هذا الاعتداء على اختيارات الناس؟

كان صفوان قد انتهى من حديثه، وكنت قد لذتُ إلى الصمت وأنا في أشد حالاتي غضبا وحنقا، عندما رأى صفوان مني ذلك، قال ما يناقض كلامه كعادته، وقد أذهلني براعة استعماله للمتناقضات، وإقناع الآخر بها، عجيب أمر صفوان بحق السماء.

ـ لماذا أنت حانق بهذا الشكل يا صديقي؟ لا يجب أن يُغضبك هذا الكلام، بل لا بد أن تفرح لأنك تأكدت أن الأديان كلها على خطأ، ولأنك الآن تحققت من أن الإلحاد هو الحق، أرأيت كيف يستعملون مرجعياتهم الدينية من أجل رفض الآخر؟ ما الذي يُضيرهم إذا تولى ملحد مسؤولية إدارية أو منصبا ساميا، إذاً الأديان أفيون ومخدرات الشعوب، أرأيت يا صديقي.

لا أعرف بحق العدم أي سحر يستعمله معي صفوان، يجعلني في أشد لحظاتي غضبا، ثم ما يلبث أن يجعلني في أشد لحظاتي نشوة وانتصارا.

قلت له: نعم معك حق، الأديان سبب الشؤم والحروب والاقتتال، سبب الدمار، لو أن هذه الأديان اختفت من الأرض لعاشت البشرية في أمن ومأمن وسلام، ولك....

ما أن شرعت في قول ذلك، حتى وجدتُ صفوان آخر ينبعث من الرماد كالعنقاء بوجه متناقض آخر، يتصدى لي معارضا كأني مع شخص منفصم في شخصيته، وقف كالصنم وقال بخفوت شديد وهو ينظر إلى الأرض:

ـ لا تصدق نفسك كثيرا يا صامد، أنا لم أقل لك ما قلتُه من أجل أن تستغبيني، فربما لا تعلم أن أكثر الدمار والحروب كانت على أيدي ملحدين.

رأى في وجهي اشمئزازا من كلامه، فقد تجاوز حده في تناقضاته، لكن ما الذي يريد أن يتفوه به هذه المرة؟ أكمل كلامه دون مبالاة بالاشمئزاز الذي ظهر جليا على صفحة وجهي:

ـ نعم لا تستغرب، كانت أعظم الحروب على أيديهم وبالأدلة، هل سبق لك أن سمعت بمذابح الكولاج في الاتحاد السوفيتي؟ ربما لم تسمع، كانت هذه المذابح على يد الملحد لينين، وفي ألمانيا النازية

أبِيدت الأقليات الاثنية وتم تفريغ ربع سكان كمبوديا على يد الملحد POL POT، ثم هل تدري ماذا يعني رقم 52 مليون؟ هذا الرقم الفظيع، هو عدد القتلى الصينيين في الثورة الثقافية الكبرى على يد الملحد تسي تونج، نعم الأمر مهول، ذلك عدد سكان دولتين، أو دولة كبيرة الحجم، أما ما فعلتْه ما يسمى برابطة الملحدين العسكرية في أوروبا من إغلاق ل 42 ألف مؤسسة دينية منها كنائس ومساجد وقتل عشرات الآلاف من المتدينين فحدث ولا حرج، بل حدث بذلك واشعر بالحرج والقرف، ثم لن أحدثك عن الحربين العالميتين الأولى والثانية والتي لم تكن أسبابهما دينية بل علمانية، تحكمها تصورات إلحادية من أجل النقاء العرقي، فكانت النتيجة أن تم إبادة 5% من سكان الأرض، أتعرف معنى هذا الرقم؟ إنه ملايين من الأرواح مُزقت أشلاؤها، وأريقت دماؤها، وقطعت أطرافها، ثم ربما تعرف سام هريس، نعم لابد أنك تعرفه إنه ملحد مثلك، إنه يدعو إلى ضرب المسلمين بقنبلة نووية تستأصل شأفتهم إلى الأبد ههههه، كل هذا حصل يا صديقي الملحد، لكن ومع ذلك لا أدعوك لترك إلحادك.

كان يقولها ويضحك ملأ فمه، تركته فاتحا فمه، أما أنا فقد ذهبتْ بي الذاكرة إلى عالم آخر، عالم كنتُ أسائل فيه نفسي، وأسألها عن كم من الأحداث والوقاع التي تغيب عني، رغم أني قرأت وقرأت، إلا أني أجد نفسي أن ما أقرأه كماءٍ يتسرب في

الرمال، أحسست في لحظة أني قد تسرعتُ في اتخاذ القرار، لا، لم أكن نادما، لكن ربما كنتُ أحتاج لوقت أكثر حتى أكون على بينة من أمري، وأقرر وأنا في كامل الثقة في نفسي.

تذكرتُ وجهتنا، لا أخفيكم أن فرائصي ارتعدت، كنت أخشى أن يُحرجني يوسف صاحب المكتبة بسؤال يُلجم به لساني، قررتُ ألا أخوض معه في الحديث عن المسائل الإلحادية، وألا أخبره أصلا بمعتقداتي، فليعتبر من شاء أن هذا ضعف مني، لكن في المقابل هذه اختياراتي.

لم أخرج من سحابة أفكاري حتى وجدتُ المكتبة ماثلة أمام عيني، "مكتبة الحكمة"، لكن رأيتُ ما سرني، ورقة تتوسط باب المكتبة، مكتوب عليها، "مُغلق للصلاة"، لم أفرح للصلاة نفسها، ولم أغضب لأننا قطعنا كل تلك المسافة لنجد المكتبة مغلقة، بل فرحت بذلك أشد الفرح لأني لن أقابل يوسف، ومع ذلك تظاهرت بالغيظ وقلتُ لصفوان، أرأيت يا غبي؟ المكتبة مغلقة، كل هذه المسافة من أجل لا شيء، هيا لنقْفِل راجعين، فقد سئمتُ من وجودك معي.

ـ لا، لا يمكن لنا الرجوع بعدما وصلنا، لننتظره في هذا المقهى المجاور، فعما قليل سينتهون من أداء الصلاة، وأنا من سيدفع ثمن ما تود شربه، هيا، هيا يا رجل.

قالها صفوان ثم تبعتُه إلى المقهى وأنا كاره لما نفعل، ننتظر المجهول.

*****

(8)

جلسة أنثوية بنون النسوة

الدنيا.. ومَن غيرها يتجرع فيها المرء شدة الحياة وقسوتها، ومدلهمات الأمور وفواجع الدهر، الدنيا قاسية على الضعفاء، لا ترحم ضعفهم، لا تشفق على قلة حيلتهم، تخاف من الأغنياء، لكنها تتصيد أخطاء وعثرات البؤساء، أظلمت الدنيا في وجه أميمة، هامت على وجهها لا تلوي على شيء، لا تعرف مِن أمرها ما استدبر وما هو آت، ليس لأن الرجال انقرضوا على وجه البسيطة، أو أن حبها لصامد قد أخذ بتلابيب قلبها وهامت فيه هياما لا منقذ لها منه، وإن كان شيء من ذلك حاصل، لكن سبب تمسكها به ومواجهة أهلها ومجتمعها في سبيله هو أنها ترى في نفسها أنها إن فعلت وتركته ستكون ذميمة النفس نرجسية التصرف، إذ كيف سمحت لنفسها أن تتركه في أشد لحظات احتياجه لها، احتياج لم يُفصح عنه ولا شأن له به، لكن ما هو عليه الآن لدليل على افتقاده لمن يقف بجانبه، ومَن يكون ذلك الواقف إن لم تكن زوجه، هكذا تفكر وهكذا بدت لها الأمور، فتخليها عنه في ما هو عليه الآن لا

يعني لها إلا وكأنها سحبت يدها من يده وتركته يغوص في أعماق البحار، أو اكتفت بمشاهدته وهو يقفز إلى منحدر لا قاع له، أو يدفع برجله ما كان واقفا عليه ورأسُه معلق في حبل مشدود إلى غصن شجرة، هكذا كانت تراه لو أنها قررت أو حتى فكرت مجرد التفكير في أن تتخلى عنه، وحتى وإن كان هو من يُفضِّل أن ترى لها طريقا غير طريقه، فإنها لن تفعل وهذا حاله.

مضت على وجهها غير متذكرة ولا آبهة بالشوارع التي سلكت منها، أرادت ألاَّ تُسقط كلمة أمها أرضا، ستزور أهل السيد فهمي وستتحدث معهم، ها هي قريبة من دار السيدة رقية، لا تدري كيف قطعت كل هذه المسافة؟ ولا أين كان عقلها، ولا فيما كانت تفكر؟ غير أنها علمت من مكنون نفسها أنها لن تُحدثهم عن موضوع الطلاق من صامد، نعم ستتحدث في صميم هذا الموضوع، لكن أن تكون النتيجة الطلاق فهذا ما لا يُمكن حدوثه بالنسبة لها.

كانت جمانة على علم بقدومها، أخبرتها أميمة بذلك في اتصال هاتفي، فتحت لها الباب مرحبة بها، ثم اختفيتا داخل الدار، لم يكن في البيت إلا جمانة والسيدة رقية، والآن انضمت لهما أميمة لتكون الجلسة جلسة أنثوية بنون النسوة.

اطمأنت أميمة على حال السيدة رقية، كانت على علم بمرضها في هذه الأسابيع الأخيرة، بعدها أخذت النسوة يُدردشن ويضحكن ويتحدثن في موضوعات شتى بين دراسة وعلاقات صداقة وغيرها من موضوعات النساء، لكن موضوع الزواج لم يجد لأفواههن سبيلا، وكأنه ضل الطريق واختفى عنه موقع الدار حتى أرشدته جمانة إليه بما يُعرف عنها بعدم كتمان الأسرار.

ـ هل تعلمين يا أمي أني عرضتُ على أميمة أن تطلب الطلاق من صامد فرفضتْ؟ لكن الحمقاء لم تكتف بالرفض بل شرعت في تنفيذ خطة من أجل...

وما أن قالت جمانة هذه الكلمات حتى غمزتها أميمة بعينها من حيث لا تراها السيدة رقية آمرة إياها بالسكوت والتزام الكتمان.

أميمة وجمانة شخصيتان متشابهتان في كثير من الأمور، لكنهما على النقيض تماما فيما يتعلق بحفظ اللسان تحت الشفاه، جمانة لا يتحمل لسانها أن يصبر على شيء يختلج صدرها، فما أن تُفكر في الشيء حتى تجده على لسانها دون أن تنتبه لكلماتها، أميمة على عكس ذلك، تستطيع أن تحتفظ بما يُطْبخ في قلبها وعقلها وتصبر عليه لمدة لا يستطيع مثلها أن يتحمله، وربما هذا الذي جعلها طباخة ماهرة إذ تُعطي لكل ما تود تهيئته من مأكولاتها وقته الذي يحتاجه دون أن تُرغم نفسها على الإسراع في إعداده.

عندما سمعت السيدة رقية بموضع الطلاق من ابنتها، توجهت بوجهها كله مخاطبة أميمة:

ـ ابنتي، إياك أن تحسي بالخجل إن بدا لك فراق صامد هو الصائب، لن نؤاخذك على ذلك، بل سنشجعك عليه إن فكرت فيه، وستظلين ابنتنا التي لن تفقد قيمتها بيننا، فأنت مخيرة فاختاري ما يُريحك.

ـ خالتي لا أخفي عنك أن ما اختاره صامد لنفسه قد أحزنني كما أحزنكم، وما ذلك إلا لأنكم ترون مصلحته في غير ما اتخذه لنفسه من أفكار ومعتقدات، لكن صدقيني يا خالتي، لو قدَّمتُ قلبي على عقلي، لكان ذلك هو اختياري، لكن أعانني الله في هذه النائبة أن أقدِّم عقلي على قلبي وعواطفي، فلن أكون ظهيرا عليه بل سندا له.

أخذت السيدة رقية تشكر لها صنيعها وتثني على صبرها وحُسن اختيارها، وكأي أم لها مسلك الأمهات نفسه مع أبنائهن شرعت تَذكر فضائل ابنها، وأنه وإن اختار ما اختاره إلا أنه يبقى ندي الأخلاق، مرهف الإحساس، جميل السمت، إلا أنه ساذج التفكير وعنيد الطباع، حدثتهما عن علاقته بها، يَبرُّها ويحبها، لكنه لا يطيعها في أمر دينه، حدثتهما عن علاقته بأبيه، فيُقدِّم الخجل مِن أبيه أحيانا فيصلي في حضرته ولو دون وضوء، و ينصاع أحيانا لعناده وكبريائه فيقذف بكلمات هوجاء في وجهه، يُبغض تسلط

الناس عليه، ذات يوم دخل المنزل فخاطبه والده مغاضبا حيث بقي خارج المنزل لوقت متأخر، كنا مشوشين عليه، تركنا مصباح الدار متَّقدا ننتظر قدومه، فما أن كان منه إلا أن صرخ في وجه أبيه، يقول له إنه كبر ولم يعد أحد يتحكم في دخوله وخروجه، أو يضيق من حريته، حينها خاطبني والده مستفهما، أهذا هو الولد الذي تقولين عنه إنه ذو أخلاق وشمائل طيبة؟ لم أجد ما أرد به عليه غير خبيئة في نفسي تُخبرني أنه وإن كان كما نراه إلا أن ثمة شيء في قلبي يُخبرني أنه لا يستسيغ قلبه ما يفعله معنا، وأنه لربما يندم في عزلته عما يقترفه في حقنا، لكن الحق يُقال، والده كان صارما جدا في تعامله معه منذ صغره، ولربما بعد كبره رأى أن يتخلص من هذه الصرامة بتصرفاته ومعتقداته تلك.

ما كانت السيدة رقية تصل إلى هذه الكلمات من حديثها وآذان البنات صاغية لها إلا وصوت مفاتيح الباب تعلن دخول السيد فهمي، دخل وألقى التحية ورحب بأميمة ترحيبه المعتاد بها، بالسؤال عن الأهل والأحباب، فأجابته هي كذلك بما اعتادت فعله معه، بأن قبلتْ رأسه ثم انْحنَت على يده لتفعل ذلك أيضا.

جلسوا يشربون الشاي ويأكلون الحلوى التي أعدتها جمانة لهم، وبعد أن فرغوا انفردت أميمة بجمانة تتهامسان، أخبرتها أن خُطتها قد وضعتها على السكة، لم يبق إلا أن تأخذ طريقها نحو هدفها، وهي غير مستعجلة لقطف الثمار، أعادت عليها الكلام الذي

قالته لها في الكلية، إما أن يترك دينه إلى دينها أو أن تترك دينها إلى دينه.

ـ أرجو منك صديقتي أن تفسري لغزك هذا، كيف تتركين دينك إلى دينه وأنت تقولين إنك تعملين جاهدة على إنجاح خطتك؟

قالتها جمانة مستغربة ومستفسرة، لكن أميمة لم تشبع فضولها، هذا ما ستعرفينه فيما بعد، هذا ما قالته لها، ثم التمست منها أن تتحلى بالكتمان في خطتهما.

ـ اصبري على السر ولو لمرة واحدة في حياتك، فقَبل قليل كدتِ أن تتفوهي به لأمك، وليس هذا وقت إخبار أحد ولو كان أقرب المقربين إلينا، كوني متأكدة أننا سنشتغل معا على ما أقدمنا عليه، وأني سأُعْلِمك بكل جديد ولن أخفي عنك شيئا، لكن لسانك اتركيه خلف شفتيك.

حركت جمانة رأسها موافقة ومعلنة عن ابتسامة صادقة، يبدو أنها مستعدة لمعركة شرسة مع لسانها، لعله يكف عن البوح بما يختلج جَنانها.

*****

(9)

(صامد)

اللقاء الأول

"مغلق للصلاة"، يغلقون موارد رزقهم من أجل مجرد حركات، ينقطعون عن العالم ليتواصلوا مع من لا دليل لهم على وجوده، يتركون نومهم بعد يوم متعب ليستيقظوا ويؤدوا ركعتي صلاة، يقولون عنها خير من الدنيا وما فيها.

كنا في المقهى المجاور لمكتبته، ما هي إلا دقائق حتى لمحنا هذا الشخص من نافذة المقهى، الشخص الذي وقف فوق رأسي في المكتبة الكبيرة يفتح مكتبته الآن، انتظرنا ريثما انتهينا من احتساء القهوة، ثم لحقنا به حيث اختفى في مكتبته.

ما إن دلفتُ إلى مكتبته حتى كأني رأيت استغرابا باديا على وجهه، ليتحول هذا الاستغراب في لحظات إلى ابتسامة عريضة وترحيب أتبعه بتقدمه نحونا، لم أشعر حتى وجدت نفسي في تلك اللحظة بين ذراعي وأحضان ذلك الإخوانجي يعانقني بشدة ويردد:

ـ أهلا صامد، أهلا بك، تشرفت بزيارتك لي في مكتبتي، صدقني أني سعيد ومسرور برؤيتي لك هنا، لم أكن أتوقع ذلك إطلاقا.

وما إن تخلصت من حُضنه حتى وجدته يعانق صفوان من غير معرفة سابقة بينهما، صفوان يعانقه بحرارة، سيجزم من يراهما أنهما صديقان قديمان، وبينهما معرفة لا قِبل لأحد بتذكرها، أبقى يوسف كفيه على كتفي صفوان يتبادلان النظرات وهو يسألني عن اسمه.

طلب منا الدخول والجلوس، لأجد صفوان يتقدم الممر ويجلس على كرسي، يتصرف وكأنه في بيته، تبعتهما ثم جلست على كرسي خشبي، توسطتنا طاولة خشبية، أخذ يوسف وصفوان الحديث في موضوعات عدة، بين مزاح وجد وضحك حتى أني شككت أن بينهما معرفة قديمة، أما أنا فكان صدري منقبضا، أحسست بضيق المكتبة على قلبي، ماذا أفعل هنا؟ هذا ليس مكاني، وهذا الشخص الذي جمعني به هذا المكان هو في الأصل يجب أن يكون عدوا لا خليلا، أرجو ألا تظنوا أني حقود، لكن أفكارهم المتخلفة لا تجعل المرء إلا أن يعتبرهم كذلك، من باب الإنسانية فقط سأصبر هنا قدر ما استطعتُ، فإذا خرجتُ فلا رجعة لي مرة أخرى إلى هنا. كانوا يتحدثون وأنا أفكر في مرض أمي، في أبي أين يوجد الآن، في أميمة ماذا تفعل؟ هل عادت هي وجمانة من الكلية؟

ـ لماذا لا تشاركنا الحديث؟ ربما هو صديقك أنت وليس صديقي.

استفقت من شرودي بعدما شعرت بقهقهة صفوان ويده تحركني من ركبتي.

ـ لا، طبعا، نعم، أنا معكما، أنا مستمتع بحديثكما، لذلك فضلتُ أن أنصت لكما.

ـ لا تصدقه يا يوسف، فالملحدون لا يحبون الحديث مع الإخوانجيين.

قالها صفوان وأحل اللجام لضحكه المعتاد، كدت ألطم الصخر الأملس على وجهه لولا أني تصبرتُ، أحسست بحمرة في وجهي وكأن كل الدم قد تدفق إليه، وجدت يوسف يجاري صفوان في الضحك ويقهقهان مع بعضهما البعض، تكلم يوسف قائلا:

ـ ظلمتنا يا أخ العرب، ما أنا بإخونجي وما صديقك بملحد.

هتف صفوان وكأنه يتعمد إغراقي في عرقي المتصبب.

ـ ربما ظلمتُك أنت لأني لا أعرفك، حتى يتبين لي عكس ما تقوله، أما هو فيعترف بنفسه أنه ملحد، بل يفتخر بذلك.

أجابه يوسف وهو يبتسم، ثم يضحك:

ـ أنا دافعتُ عن نفسي وأزلت التهمة عني، الآن دوره ليدافع عن نفسه.

قالها يوسف، ثم التفتَا لي ينتظران ما سأفصح عنه، قلت وشفتاي لا تسعفانني للحديث:

ـ في الحقيقة أنا لا أحب الحديث في أمور شخصية، فهي تخص الشخص نفسه، فالإسلام أو الإلحاد هي قناعات شخصية، لكن بما أن المسألة سميتموها تهمة، فأنا لا أعتبرها تهمة، بل قناعة شخصية، وأنا حقا كذلك، لم أقتنع بالأديان، فاخترتُ الحياد، وهو ما سميتموه الإلحاد، حسنا ليكن ذلك، نعم الإلحاد.

ـ من حقك صديقي صامد أن تقتنع أو تدافع عما تراه صائبا، وليس من حق أحد أن يُكرهك على اعتناق شيء أنت في الأصل غير مقتنع به، لقول ربنا في سورة البقرة: ﴿لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾، فالشطر الأول من الآية تحقق وقوعه، لا يُكرهُك أحد على شيء، لكن أرجو أن يكون قد تحقق معك الشطر الثاني منها كذلك.

قلتُ دون أن أفهم قصده، ماذا تقصد بتحقق الشطر الثاني؟

حرك يوسف شفتيه ليجيبني، لكن توقف عندما دلف أحد الزبائن يجر الخطى بتؤدة وأناة يسأل عن اسم كتاب، وكم كان ذهولي شديدا عندما أخذتُ أتفحص وجهه لأحاول أن أتذكر في أي مكان رأيته، أين رأيتُ هذا الشخص؟ نعم تذكرتُ، إنه العجوز الذي التقيته صدفة عندما كنتُ مع رامز في الغابة، ذلك العجوز الذي

طلب مني أن أساعده ليضع رزمة الأغصان والأعواد على ظهره، يا لها من صدفة غريبة، ويقول المتخلفون إن الصدف لا يُمكن الجزم بوقوعها.

قال صفوان للعجوز بأسلوبه الساخر المعتاد:

ـ وهل العجزة يقرؤون أيها العجوز؟

أجابه العجوز بما لم أفهمه.

ـ ما دام للإنسان لسان وشفتان ووعاء سليم غير مخروق، فليقرأ، لم لا يقرأ؟، لكن إياك أن تقرأ مسامير!

لم أفهم ماذا يقصده العجوز بكلامه، لكن كان ذهولي أشد عندما أبصرت صفوان يُحرك رأسه موافقا، ويقول: "نعم صدقتْ"!، أخذ العجوز الكتاب، وقبل أن يُقفل راجعا حانت منه التفاتة لي، شهق قلبي، علمتُ أنه سيخاطبني، وذلك ما كان.

ـ الصاحب ساحب، والكتاب ساحب، فاختر الساحب.

قالها وتبسم، ثم التفت بجسده عائدا كما أتى بخطى ثابتة وبتمهل مناسب لعمره.

التفتُ إلى صفوان أسأله ما يقصده العجوز بكلامه، وقد تركتُ فمي مفتوحا بعد السؤال.

ـ أتقصد ما يقصده بكلامه الموجه لي أم لك؟

قلتُ له أن يبدأ بما قصده من كلامه الموجه له!

قال إن المقصود من كلامه هو أن الإنسان إذا كان باستطاعته تحريك لسانه وشفتيه ليقرأ الكتب، فليفعل، ومادام وعاؤه أي قلبه، غير مثقوب ويمسك في جوفه فائدة ما يقرأه ولا يتسرب منه، فليقرأ إذن، لكن قال إياك أن تقرأ مسامير، أي الكتب التي تنزل على القلب مثل المسامير فتخرقه وتُحدثُ فيه أثقبا، وبالتالي فإنك لن تستفيد من الكتب؛ لأن فائدتها ستتسرب من القلب حيث أصبح مثقوبا.

في الواقع لم أستغرب كثيرا من تحليل صفوان، لأني ألفتُ عنه سرعة البديهة، وإن كنت أستغرب من تناقضاته أحيانا، فهو شخص لا يُفهم، لكن ماذا يقصد بكلامه الذي خاطبني به؟ سألتُه عن ذلك لكنه لم يأبه لفضولي المعرفي:

ـ دع عنك ذلك الآن، سأخبرك فيما بعد، تابع نقاشك الآن مع يوسف، فعما قليل سنذهب.

ـ كنتَ سألتني ماذا أقصد بالشطر الثاني من الآية؟ فأقول لك جوابا على ذلك، هل تَبين لك الحق من الباطل؟ فإذا تبين لك ذلك، فقد حققت الشطر الثاني من الآية: "قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ"، فالرشد الذي هو الحق في هذه الآية ظاهر بين، والغي الذي هو الباطل في هذه الآية، هو كذلك بين واضح، فإن كان ذلك بيِّن عندك بأدلة

علمية، فهذا جيد، إذ يجعل منك شخصا معرفيا يأخذ قناعاته من العلم والمعرفة لا من التقليد أو الخَرَص.

قالها يوسف، فاندفعتُ معارضا لكلامه الذي يحاول به أن يجعلني أتبناه وأقتنع به:

ـ عفوا، لن تلزمني بقاعدة دينية هي نفسُها في الأصل تحتاج دليلا وإثباتا، فأنت هنا تقصد بالرشد الإسلام، وبالغي كل ما دون الإسلام، وأنا أرفض هذه القاعدة.

قال يوسف مبتسما:

ـ في الواقع لم أكن أريد أن ألزمك بشي، كنتُ أقصد كلمة "البيان"، يعني كل مَن اقتنع بشيء لابد أن يكون على بينة من أمره، وعلى علم ودراية به، فمثلا إذا سألتك ما سبب إلحادك؟ فستجيبني بأدلة عقلية تثبت صحة ما توصلتَ إليه، أليس كذلك؟

ـ نعم صحيح، فالإلحاد توصلت إليه بقناعات كبرى، وقرار إلحادي ناتج عن فكر منطقي مجرد.

تدخل صفوان ليقول:

ـ نقاش ممتع جدا، لكن أرى أنه ليس وقته، إذا أردتما فخصصا له وقتا آخر وليُفحم أحدكما الآخر، وأنا سأكون محايدا وحكما بينكما ما رأيكما؟

كالعادة أطلق قهقهته، أنتم تعرفونه الآن، لكن وضعني في موقف محرج، فرغم قراءتي للكتب، ما زلت أتحاشى النقاش، لا لأني أخاف من دحضه لحججي أو الشك في معتقداتي، لكن لأني كما قلت سابقا ربما أنا محام فاشل لقضية عادلة، هذا ما كنتُ أفكر فيه لأسمع يوسف يقول:

ـ مرحبا بكما، اختارا أي وقت يناسبكما، فستجدانني في المكتبة في غير أوقات الصلوات، وستجد يا صامد صدري متسعا لتقبل كل شيء تقوله، ولن تجدني إلا أذنا صاغية غير متحامل على ما تقتنع به وتفصح عنه، وأقسم لك أني سأسلك طريقك الذي سلكته إن أقنعتني، أما أنا فلن ألزِمك بذلك، فلك حق اختيار ما تشاء.

حركتُ رأسي كأني أوافق على ما يقول، لكن في قلبي شيء آخر، فلا يدخل الجحيم من خرج منه إلا غبي أو أحمق.

خرجنا من المكتبة وهناك تنفستُ الصعداء وعادت لي الحياة، وعدتُ إليها.

*****

(10)

ذكريات حزينة

قد يصيب جسم الأم أو الأب وهن و ضعف، إلا أنهما في سبيل سعادة أبنائهما يتحملان مصائب ونكبات، جروح وآهات، بلايا ورزايا، يتحملونها بقلب صابر وفؤاد شاكر، يتحملونها إذا كان من تسبب فيها عامل خارجي، لكن قطعا القلوب ستتقطع والأفئدة ستتصدع، والمُقل ستتشقق دمعا، والخدود ستسير فوقها خطوط سوداء جراء شدة انسياب العبرات عليها، سيحدث ذلك إذا كان من تسبب في هذه الخُطوب والبلايا ابن حملتَه في بطنك تسعة أشهر، وأرضعته حولين كاملين، وسهرت على شؤونه حتى بلغ أشده واستوى، وقدَّمته على نفسك، وقطعت قِطعا من لحمك لتغرسها في جسده.

هذا ما أحس به السيد فهمي وزوجه، كانا في غرفتهما مضطجعين، يتهامسان في أمر ابنهما صامد، اختيار ابنهما لمعتقدات مناقضة لما يعتقدون، جعلهما في حيرة من أمرهما،

قلباهما يتفطر على خسارتهما لابنهما، أصبح الشرود وبرود التصرفات ما يميز أهل الدار أو على الأقل ما هو عليه السيد فهمي وزوجه، فكم يصعب على المرء أن يتصور أن أحد أبنائه يجر رجليه جرا إلى النار، وليس في استطاعته فعل شيء لمنعه، كانت تبدو لهم الأمور أفظع من ذلك، كانا يتصوران أنهما واقفان بين يدي ربهما يحاسبهما على تقصيرهما في تربية ابنهما، إذ لم يقوما بمسؤوليتهما على أتمها، تساءلت السيدة رقية بصوت مسموع مع نفسها وزوجها يسمع.

ـ هل يُمكن أن نكون نحن مَن تسبب في انحراف ابننا وخروجه عن الجادة من غير قصد منا؟

كانت لكنة الحزن قد غلبت على صوتها، وكان السيد فهمي يحدق في سقف الغرفة، ذهنه في مكان وزمان آخر، تحدث بهدوء وهو يسترجع شريط ذكرياته.

ـ أَنظرُ الآن إلى صامد عندما كان طفلا لم يبلغ الحلم بعد، أراه يكبر أمامي شيئا فشيئا، ثم أراه لم يعد طفلا، أرى فيه شابا بدأ ينضج، ثم تلتحق به أخته، ماذا أقول لك يا زوجي العزيزة؟ أنت شاهدة على أني ما قصرتُ في إطعام ولا شراب، ولا تركتهما دون لباس ولا في حاجة إلى نعال، منذ أن كانا صغيرين، وأَجِدُّ ـ رغم تواضع مهنتي ـ في أن أوفر لهما ما يحتاجانه، حتى كبرا واستغنى

صامد بعض الاستغناء عني، فأصبح له عمل، وقريبا سيكون زوجا، أما التربية، فأُشهد نفسي أني ادخرتُ أغلب جهدي لأُحْسِن تربيتهما، فكنت أشدد على صامد في مسألة الصلاة، ولا أسمح له بالتهاون فيها، كنت أبين له الخطأ من الصواب، الخير من الشر، قبيح الفِعال من جميلها، حتى إذا كبر واستوى عوده، رمى في وجهي تربيتي له، وكأنه يقول لي، لستُ محتاجا لها.

أخذ صوت السيد فهمي ينخفض أكثر ويخالطه التأثر، أحس بدمعة تترقرق في مقلتيه، ثم تنزل لتداعب خدود وجهه، شاركت عينا السيدة رقية عيني السيد فهمي في انسكاب الدموع، عقَّبت على حديث زوجها.

ـ ربما صرامتنا هي من أفضت بابننا إلى ما صار إليه.

كانت تقصد صرامة زوجها، وإلا فإنها في الحقيقة بعيدة عن الصرامة قريبة من الحنان والعطف، بعيدة عن الخصومة قريبة من الحوار، بعيدة عن الصراخ قريبة من النقاش، بعيدة عن الانتقام قريبة من العفو والصفح، أجابها السيد فهمي متأثرا:

ـ كنتُ أخال تلك الطريقة هي المثلى في التربية، لم أكن أحسن غيرها، لم أفكر في أن التربية قد تكون بالنقاش، قد تكون بالحوار، بطرح وجهات النظر، وأن ذلك أجدى من الصرامة، نعم أعترف أني لم أكن مصيبا في طريقة تربيتي لأولادي، لكن يعلم الله أني ما

قصرتُ في شيء، ولا أضمرت في نفسي كره أحد من أبنائي، أو فضلت أحدهما على الآخر، وها أنت ترين أن جمانة قد تلقت التربية نفسها، لكنها على النقيض من أخيها تماما.

أكمل السيد فهمي جملته الأخيرة بصعوبة من شدة تأثره، فلاذ إلى صمته إلا من نحيب بينه وبين نفسه، شاركته زوجه في ذلك، وتركت الصمت يغني في الغرفة سيمفونية الحزن.

بعد برهة تحدثت السيدة رقية قائلة:

ـ أما أنا فيشهد الله أني كنت لأولادي أما حنونا، حملتُ كلا منهما في بطني تسعة أشهر، سهرتُ عليهما في طفولتهما دون تبرم أو تضجر، كنت سعيدة بعنايتي بهما، لم أرفض لهما طلبا، سعيتُ في توفير كل ما يرغبان فيه، أمَّا لمَّا وصلا سن المراهقة، فكم صبرت على صراخهما خصوصا صامد؟ كم كان عنيدا، شرسا، لا يقبل أن تنزل كلمته الأرض؟ يرفع أنفه دوما، يخاطبني كأنما يخاطب عدوه، يسخر مني، كاد حِيناً أن يرفع يديه في وجهي، ومع ذلك، كان قلبي له رحيما، محبا، كنت أغفر له زلاته، وأتيمن أن حاله سينصلح بعد مرحلته التي دخلها مُكرها، لكن ما إن نجى من مراهقته وعاد له رشده، حتى سمعناه يقول إنكما تُخرفان، وما أنتما وأفكاركما إلاَّ خزعبلات وأساطير جَدَّاتٍ قصصنها عليكم ليلا فصدقتموهن.

صمتتْ لتعود سيمفونية الأحزان تتابع عزفها، ثم قطعتها مرة أخرى وهي تمسح دموعها التي انسابت على وجنتيها:

ـ كفانا زوجي العزيز بكاء على الأطلال، والنشج الذي لا فائدة من ورائه، دعنا نفكر في حل ننقذه به، إذا بقي في الوقت ما يُمكن إنقاذه.

أجابها زوجها وقد عادت إليه روحه، وكأن الشخص المتأثر غادره ليحل محله شَخْصُه الصارم:

ـ ذلك ما كنتُ أفكر فيه زوجي العزيزة، ربما قد بدا لي خيط النظم الذي سأبدأ منه تحركاتي رغم ضيق وقتي الذي يكاد جله يأخذه مني عملي.

سألته مستغربة عن أي خيط نظم يقصد؟ أزال بصره من سقف الغرفة، ثم التفت إليها يُحدثها بجدية عهدتها منه في مثل هذه الحالات.

ـ ألم يستوقفك شيء مهم؟ شهر كامل وهو في غرفته، منقطع عن عمله، بمبرر أنه في إجازة أعطاها له مديره، كيف لمديرٍ أن يُعطي لأستاذٍ رخصة راحة مدفوعة الأجر كل هذه المدة؟ مع ما يتبعها من إثقال نفسه بتوفير أستاذ جديد، دون أن يكون له من وراء ذلك فائدة، أليس هذا أمرا محيرا؟

شاركته السيدة رقية في انبهاره، صحيح ما قاله، وقد نسيتْ هذا الأمر في خضم ما شغل بالها من أمره في الأسابيع الماضية، وكذا انشغالها بمرضها أيضا.

ـ لذلك لابد من زيارة مديره لأستقصي عن أمره من حيث لا يدري بأمري وبمن أكون، ولا بد من معرفة أصدقائه الذين يشترك معهم صداقته، فلا يَجمل بنا أن نتركه لمصيره.

وضعت السيدة رقية كف زوجها بين كفيها، تدعو الله أن يوفقه فيما ينوي فعله.

بالقرب منهما وبالضبط في غرفة جمانة كانت الأجواء عكس ما هي في غرفة السيد فهمي من تأثر وحزن، كانت الأجواء في غرفتها تعزف سيمفونية السعادة.

كانت جمانة قد تلقت اتصالا من أميمة تُخبرها أنها لا تصدِّق نفسها بأن الخطة التي رسماها قد نجحت بالفعل، وأن السمكة قد أكلت الطعم، عكس ما كانتا تتصوران مِن أن السمكة ستتأخر كثيرا في ابتلاع الطعم، فرحت جمانة بذلك، لكن كما هي أميمة دائما في بُغضها للتسرع، التمست منها أن تتحلى بالصبر والأناة أكثر، فنجاح الخطة لا يعني أن الأمور ستكون كما تريدان، فربما كانت

السمكة قوية فأفلتت من الصنارة، أو ربما كان الصياد ضعيفا، أو ربما حدثت أمور لا إحاطة لهما بها.

*****

(11)

الغضب يُوَلِّد الكبرياء

حجرة دراسية أنيقة مزينة برسومات وصور حائطية، ثلاث عشرة طاولة يجلس عليها خمسة وعشرون تلميذا يدرسون في مستوى السنة الثانية بكالوريا، كان صامد يقف أمامهم في حصة دراسية جديدة يدرِّسهم علم النفس، تطرق في حصته هذه إلى نشأة علم النفس وتطوره، حدثهم أن علم النفس من أقدم العلوم، كان في بدايته مرتبطا بالفلسفة قبل أن ينفصل عنها، وتعود بداية تأصيله إلى الفيلسوف الإغريقي أرسطو، ثم سقراط الذي كان يتطرق إلى حقيقة الذات الإنسانية، ثم أفلاطون، عرج معهم بعد ذلك ليشرح لهم كيف ظهر علم النفس في الفلسفة الحديثة؟ حدثهم عن أهم الفلاسفة الذين برزت نظرياتهم النفسية كجون لوك وديكارت، وختم كلامه أخيرا باستقلال علم النفس وانفصاله عن الفلسفة في النصف الثاني من القرن التاسع عشر.

أنهى صامد شرحه، رفعت إحدى تلميذاته أصبعها تستأذن منه الحديث، كانت تتميز عن غيرها من التلاميذ والتلميذات في لباسها

وسَمتها، كانت تلميذة جميلة، تزينت وجنتاها بحمرة الجمال، تلبس حجابا ساترا، تتدثر بالهدوء والوقار والحشمة أينما حلت وارتحلت، التحقت مؤخرا بمؤسسة "داوكينز"، اضطر والدها أن يُلحقها بهذه المؤسسة بعد أن انتقل ليشتغل في هذه المدينة، أصبح مسكنه بالقرب من هذه المؤسسة، أحب أن يُدرجها ضمن تلاميذ هذه المؤسسة إلى حين انتهاء السنة الدراسية، و مِن ثم سيحسم قراره بعد ذلك في شأن إبقائها في هذه المؤسسة من عدمه.

أَذِنَ صامد للتلميذة بالحديث، تحدثت بأسلوب يشي بأنها ذات مؤهلات دراسية مكنتها التفوه بلغة عربية فصيحة دون تلعثم، وبرز من كلامها أنها حصيفة مثقفة، ومُطالِعة جيدة للكتب، ومديمة النظر فيها، كان استفسارها عن علم النفس الإسلامي، ففي حديثه عن تطور علم النفس، لاحظتْ أنه عرَّج على كل العصور والحقب التي اهتم فلاسفتها فيها بعلم النفس أو الفلسفة، لكن لم يشر إلى علم النفس في العصر الإسلامي، رغم أن هناك ما يُصطلح عليه بعلم النفس الإسلامي، ثم سألته عن النفس، ما هي؟ وهل هي الروح كما أكد أفلاطون؟ فقد ذكر في حديثه أفلاطون، لكنه لم يذكر أهم ما ذهب إليه من أن النفس هي الروح.

كانت هذه التلميذة تجلس منفردة في آخر الصف، كانت مذ أن التحقت بالمؤسسة بما يقارب ثلاثة أسابيع تلوذ بالصمت والانتباه فقط، تستعين بالكتابة عندما يأذن الأستاذ بذلك، لم تناقشه أو تتحدث

من قبل، تفاجأ صامد بأسلوب التلميذة وثقافتها، صمت قليلا بعد أن انتهت التلميذة من طرح سؤالها، ثم أجابها بما لم يُقنعها، فمفهوم النفس موضوع قد خصصوا له قبل التحاقها بالمؤسسة حصة دراسية كاملة للتعريف به، طلب منها أن تعود إليه فهو موجود في دفاتر زملائها، أما ما اصطلحتْ عليه بعلم النفس الإسلامي، فهذه تسمية غير موجودة حسب ما قاله صامد لها، إذ قال إن المسلمين عندما وجدوا أنفسهم متخلفين في كل شيء، أرادوا أن يغطوا عجزهم وفشلهم ونقصهم هذا، باختراعهم لمصطلحات في كل الفنون ونِسْبتها إلى الإسلام، فأصبح لدينا علم الاجتماع الإسلامي، علم النفس الإسلامي، الثقافة الإسلامية، الفن الإسلامي، الزخرفة الإسلامية، السياسة الشرعية وغير ذلك.

انتهى صامد من إجابته، أزاح وجهه عنها يستحث التلاميذ الآخرين لعلهم يسألونه في موضوع حصة اليوم، رفعت التلميذة نفسُها إصبعَها مرة أخرى، حاول صامد أن يتجاهلها وأن يتظاهر بأنه لم ينتبه لها، لكن التلميذة أصرَّت على الحديث، فأذن لها صامد مرة أخرى بالسؤال.

ـ أستاذي، أرى أنه لا يمكننا إغفال العصر الإسلامي، لا لأن المسلمين اليوم متخلفين ويريدون إثبات ذواتهم، بل لأن النفس في الإسلام لها تأصيلها، فلا مهرب من تحاشي الحديث عن هذه الحقبة، خصوصا إذا عرفنا أن كلمة النفس ذُكرت في القرآن

الكريم ثماني مرات، وأصَّل لها القرآن فجعل منها ثلاثة أنواع، نفس أمارة بالسوء، وهي نفس ضعيفة أمام الشهوات والملذات، تتأثر بفعل تصرفات صاحبها القبيحة، ونفس لوامة، وهي نفس تكون مرتاحة عندما يقوم صاحبها بما يجب عليه أن يقوم به، وتكون مضطربة عندما ترى صاحبها يفعل ما لا يجب فعله، ثم نفس مطمئنة، وهذه صاحبها وصل بها إلى أعلى مستويات التهذيب والتربية، فأصبحت كطفلة وديعة لا تبكي مِن منع، ولا تحزن لفقدان، فنحن نعرف أن الإنسان إذا فعل قبحا أو نزلت به مصيبة ينزعج، وإذا حصل على وظيفة أو عمل اطمأن وفرح، ويكون بينهما عندما يكون في حالاته العادية، أوليس هذا تأصيل قرآني مهم لا يجب الاستغناء عنه؟ ربما أكون مخطئة أستاذي، لكن هذا رأيي.

حاول صامد أن يدفع عنه الحنق وألا يُظهره، قال لها بصوت متضايق إن هذه هي مشكلة المسلمين، يؤولون كل شيء ويصدقون كل شيء، فهم يقولون إن القرآن تحدث عن علم النفس، وسيأتي نصراني ويقول إن الإنجيل قال كذا في علم النفس، ويأتي يهودي ويقول إن التوراة تقول كذا، وسيدافع أصحاب ديانات أخرى عن أفكارهم ويستغلون علم النفس في ذلك، فإذا سلمنا لكل منهم بأن كتابه هو الأصح فيما يذكره عن علم النفس، ونحن نعلم أن هذه

الكتب تناقض بعضها البعض وتُكذب بعضها البعض، فمن نصدق؟ وإلى من نحتكم؟ قال ذلك بغضب، ثم عاد ليتحدث بروية.

ـ صدقيني يجب أن نترك هذه الترهات في نقاشاتنا، وأن نبني مفاهيمنا وَفق أسس علمية صحيحة، نعم أنا أحس بك، فالمراهق يُحاول أن يثبت ذاته في مجال من المجالات، وأنت اخترت الدين لتثبت فيه ذاتك، ربما لك الحق في ذلك، لكن ليس على حساب حصة زملائك، فالآن كما نرى ضاع من زملائك وقت كثير في هذه الحصة ولم نستفد شيئا، أرجو أن تتركوا مثل هذه النقاشات جانبا، وناقشوا ما هو مَبني على العلم، وليس سوى العلم.

ما كان صامد ينهي مقالته إلا وقد سمع صوت الجرس يُعلن انتهاء الحصة، تنفس الصعداء متنهدا، ثم أذن للتلاميذ بالخروج.

*****

في إدارة المؤسسة كان رامز جالسا على كرسيه المتحرك، مائلا بجذعه على مكتبه الجلدي الفخم الذي يتوسط حجرة الإدارة، منهمكا في الكتابة على أوراق في ملفات أمامه، جفونه مرتخية من شدة التعب والانهاك، ملامحه كسولة، سمع طرقا على الباب، إذن للطارق بالدخول، لم يكن سوى صديقه صامد.

دخل صامد وألقى التحية، جلس على كرسي أمام مكتب المدير ينتظر أن ينتهي من عمله ليخرجا سويا، سأله المدير عن حاله دون أن يزيح بصره عن أوراقه التي يكتب فيها، سأله عن أهله هل ما زالوا يتحاشون الحديث معه؟

لم يكن يدري صامد هل يتحاشون ذلك أم لا؟ لأن الأمر لم يعد يهمه، فالوحيدة التي يشعر أنها تتحدث معه بسلاسة هي زوجه المستقبلية أميمة، وكذلك أخته بعض الأحيان، لكن ما يُقلقه هو تدهور صحة والدته، كلما دخل البيت وجدها نائمة تتأوه.

ـ لم تأخذوها إلى المستشفى؟

لم يجد رامز عن وضعيته وهو يطرح أسئلته دونما مبالاة، أجابه صامد أنه فكر في الأمر، وأنه سيأخذها إلى المستشفى بعد نهاية الأسبوع، فحالتها لم تعد تروقه، استحسن رامز الأمر دون اكتراث، سأله عن جديده، كان غير مبال بأجوبة صامد، كان كأنه يُمضي وقته بطرح الأسئلة وهو مشغول بالكتابة.

ـ لا جديد، الأيام هي نفسها تدور والساعات... آه نسيت أن أخبرك، هل تعلم أني التقيت بـ "إخوانجي"، كنتُ التقيتُ به في المكتبة الكبرى، دعاني إلى مكتبته فلبيت دعوة ذلك الملتحي.

كان صامد يتحدث ويضحك، وما أن سمع رامز اسم "الاخوانجي" حتى رفع رأسه عن مكتبه كأن عقربا لدغته، وضع قلمه من يده.

ـ ماذا تقول؟ تزور الإخونج، أصحاب اللحى المجعدة، الإرهابيون.

ـ لا هو في الحقيقة ليس مثلهم، يتعامل بود وسلوكه جيد، رغم أن قلبي كاد يخرج من قفصي الصدري عندما كنت عنده، لا أدري لما كرهتُ مكتبته وذلك المكان بصفة عامة، كدتُ أختنق و..

قاطعه رامز غاضبا وقد انطلقت شرارة الغضب من عينيه، وصامد لا يدري لم كل هذا الغضب؟

ـ أرى أنك تمدح فيهم، بل أنستَ جلستهم، يتعامل بود وسلوكه جيد، ما الذي دهاك يا صامد لتذهب إليه؟ أتريد أن تعود كما كنت من قبل؟ هل بعدما وجدت الحقيقة، أردت أن تعود للتخلف والخرافات؟ ألا تعلم أن لسانهم حلو المنطق؟ لكن ما تكنه صدورهم أشر وأفظع مما تبديه ألسنتهم.

ـ لا تخف من ذلك، لن يزعزع أحد أفكاري بعدما وجدتُ طريقي، ودون أن تحذرني فقد عزمتُ على ألا أعود إليه، ليس خوفا أو جبنا، لكن قلبي لم يجد راحته معه ولا في مكتبته.

ـ إذا كنت صديقي حقا فإياك أن تلتقي به مرة أخرى، لا أريد أن ترى وجهه البتة.

قال صامد مشدوها، وقد أخذ صوته يتدثر بدثار الغضب:

ـ ما هذا الجيشان والصخب؟ ولم كل هذا الانزعاج؟ لقد قررتُ بإرادتي ألا أعود إليه، وطبعا ليس هناك من يُثنيني عن قراراتي، وليس هناك من يختار ما لا أريده، أو يختار في مكاني؟

هز رامز رأسه متفهما، سأله بعد أن تنهد فيما تحدثا، أجابه صامد أنه مجرد تعارف، وأن صفوان هو الذي كان يحادثه، أجابه بنبرة صوت متغيرة فلاذ رامز إلى صمته.

ـ هل انتهيت من عملك لنذهب؟

قالها صامد، لكن وجد أن رامز قد عاد ليعفر رأسه بين أوراقه، بعدها فتح فمه دون أن يُحدِّق في وجه صامد يطلب منه الانصراف، لأنه سوف يتأخر قليلا.

خرج صامد من الإدارة، وليس هناك ما كان يشغل باله أكثر من ردة فعل رامز، كان يفكر صامتا، ما الذي جعله يجمع كل ذلك الغضب عندما سمعني أتحدث عن يوسف؟ هل هذا كله حقد على المسلمين، أم أن في الأمر سرا ما؟ ثم كيف يأمرني وينهاني وكأني طفل صغير يتم الحجر على حريته لأنه لا يعلم مصلحته؟ ما الفرق بين تحكمه في حريتي وتحكم الإسلام في حريتي؟ نعم، أنا قررت ألا أزور يوسف، لكن مما يخاف حتى أراني تلك الشرارات في عينيه؟ بما أننا مقتنعين بالإلحاد فلا يجب أن نخشى أحدا، فما دمنا

نمتلك الحقيقة فلا خوف؟ هل رامز ضعيف الشخصية إلى هذا الحد؟ ويظنني مثله يؤثر كل من التقيته ولو بالصدفة في شخصيتي؟ هذا لا يستوعبه عقلي.

أكمل صامد طريقه إلى المنزل وذهنه مشغول بالتفكير فيما حصل بينه وبين رامز، كان يود أن يسأله عن تلك التلميذة المتفذلكة ومِن أين أتت؟ وما قصتها؟ ولم تم قبولها بالمؤسسة؟ لكن يبدو أن رامز بعثر له أوراقه.

*****

قد يُبتلى المرء بخلق سيء لا يُفارقه، بطباع أو خصال تؤرقه في حياته، كان صامد واحدا من هؤلاء، الطبع الذي أرَّقه ربما تعرفونه، نعم، هو العناد وركوب رأسه، شخصية صامد عنيدة جدا إلى أبعد تقدير، لا يستسلم بسهولة، يُبغض أن يكون أحدهم فوق رأسه آمرا أو ناهيا، من بين أسباب عدوله عن الإسلام، أنه يحس في هذا الدين أن هناك من يأمره وينهاه، هكذا هو في حياته، كان يتذكر والده وهو يقف فوق رأسه من أجل أن يُحفظه سورة الرحمان المقررة لهم في مستواهم الدراسي، كان يكره منه ذلك، ويَمقت الأستاذ الذي فَرض عليهم أمورا هم في غنى عنها حسب رأيه، في إحدى الأيام، وجد والده ينتظره في البيت، يسأله عن

حفظه للسورة، حينها أخرج الكتاب من محفظته، فتحه على السورة موجها حديثه لوالده.

ـ ماذا سأحفظ في سورة تقول "الرحمان علم القرآن"، ها أنا أنتظر أن أتعلمها، لِمَ لا ينزل الوحي لكي يُعلمها ويُحفظها لي، أليس هذا هو المكتوب فيها؟

طبعا لم ينس صامد وجه أبيه المصفر عندما سمعه يتلفظ بكلام بالنسبة لأبيه هو كفر، حينها لم يشعر السيد فهمي إلا وقد أخرج حزامه من سرواله، وأنزل عليه ضربات كانت عليه نارا وجحيما لن ينساها صامد ما دامت سورة الرحمان في مصحفها كما يقول دائما.

كان صامد غاضبا من رامز، كره منه طريقته الأخيرة في حديثه معه، لذلك فكر أن يلتقي بصفوان من أجل أن يبث له سريرة نفسه.

في اليوم التالي كان صامد وصفوان جالسين على صخور ضخمة أمام شاطئ البحر، كان صامد يقذف بأحجار صغيرة إلى البحر بين الحين والآخر، يُفرغ ما في جوفه من غضب، لِمَ يخاطبني بتلك الطريقة؟ من يظن نفسه؟ هل لأني أشتغل عنده؟ هل يظن أنه يمكنه أن يتحكم في رقبتي؟

ظل صامد هكذا يتحدث وينفث حنقه وصفوان منكس رأسه بين فخذيه صموت لا ينبس ببنت شفة، انتبه صامد لسكوته منذ أن اشتعلت نار الغضب في رأسه.

ـ ما بك اخترتَ السكوت على أن تقول شيئا فيما أحدثك به؟ قل شيئا.

أجابه صفوان بأن سكوته ما هو إلا ردة فعلٍ لضميره الذي يؤنبنه، فهو يتهم نفسه بأنه هو مَن تسبب لصامد في هذه المشكلة عندما أرغمه على زيارة يوسف، رغم رفض صامد لذلك بداية.

طلب منه صامد أن ينسى ذلك، فالأمر الآن قد حدث وانتهى، ثم إنه لا يتحدث عن زيارتهما ليوسف، بل يُحدِّثه عن تصرف رامز معه.

ـ هل هذا التصرف في نظرك سليم؟

ـ حسنا لنقل إنه غير سليم، لكن حتى لا أحس بتأنيب الضمير، أعترف أني كنت مخطئا عندما ألزمتك زيارة يوسف، وحتى أصحح خطئي، فأنا الآن أنصحك بشدة أن نلغي زيارتنا التي وعدنا يوسف بها، لا أريدك يا صديقي أن تفقد عملك، خصوصا وأنت مقبل على الزواج، ولك مسؤولياتك الخاصة.

شعر صامد عندما سمع ما يقوله صفوان بالدماء تتدفق في عروقه، بأوداجه تنتفخ، بوجنته تحمر غضبا، قال ما قاله صفوان

وكأنه لا يعلم طبيعة وطريقة تفكير صديقه صامد، فهو عنيد جدا ولا يقبل من أحد أن يُضيِّق من حريته، انفجر فيه صائحا.

ـ أعد، أعد ما تقوله، أخضع لسلطته وإرادته خوفا من أن أفقد عملي، هل أنت مدرك لما تقوله لي؟ أم ربما نسيت من أكون؟ صفوان، أقسم لك بقلبي الذي بين ضلوعي، أنَّ انتزاعه من جوفي أهون على نفسي من أن أخضع لسلطة أحد حتى لو كان مقابل ذلك فقدان العمل، فليذهب العمل إلى الجحيم، ولتحيا كرامة الإنسانية، لم ينفرج فرج امرأة بعد، ولم تَخلق الطبيعة بعد، هذا الذي سيتحكم في حرية صامد، وليذهب العالم إلى الجحيم أو إلى العدم، لا فرق لي بين ذلك.

ـ هوِّن عليك يا صامد، أنا اقترحت فقط، واقتراحي من باب حرصي عليك، فكر جيدا بعقلك، ولا تجعل دماغك يتدلى من رأسك كعنقود عنب، لكن ليس الآن، فكر عندما يزول عنك غضبك، ثم ما الذي ستنفعنا به زيارة ذلك الذي تسميه الإخونجي، فهم أصلا لا علم ولا دراية، ولا يفقهون في شيء، لا تتعب نفسك واهتم بأمورك، ثم لا تنسَ أنك قلتَ لي إن أمك مريضة، إذن انسَ الأمر، واهتم بها.

كان صامد قد حسم أمره، فقد قرَّر، وقراره لا رجعة فيه، سوف يزور يوسف في مكتبته ويناقشه ويحاوره في موضوع

الإلحاد، ما الذي سيخشاه إن كان يعتقد جازما أن الطريق الذي اختاره طريق صائب، لم الخوف؟ ما دام معتقدا أن ما فضله لنفسه هو الصواب، هل سيكون جبانا مثل رامز ليخاف مِن أن ينتصر عليه في نقاشه؟ قد ينتصر عليه، لكن ليس انتصاره إلا لضعف حجته وعدم اطلاعه، أما أن يعاود الرجوع إلى خرافة الإسلام إن انهزم فذلك ما لن يتصوره أحد، خاطب صفوان قائلا:

ـ إذا أردت مرافقتي، فأهلا وسهلا بك، وستكون شاهدا على نقاشنا، ومحايدا كما قلتَ ليوسف، وإذا رفضت ذلك فستكون زيارتي له بمفردي.

حرك صفوان رأسه بتثاقل موافقا مرافقة صامد، وكان صامد مركزا بصره على عينيه ينتظر منه الجواب.

ـ لا تغضب يا ولدي، فالغضب نار تأكل قلب صاحبها قبل عدوه.

التفت صامد وصفوان في الوقت نفسه خلفهما ليجدا الشيخ العجوز واقفا بالقرب منهما يُحدثهما، ظهر الانبهار جليا عليهما، وانعقدت حواجبهما، هل هذا العجوز يتجسس عليهما؟ يظهر فجأة ويختفي فجأة، قام صامد وصفوان في الوقت نفسه ليقابلا بوجهيهما وجه العجوز.

ـ كيف تتم لك الصدف بالتمام حتى تلتقي بنا في كل مكان؟

سأله صفوان، فأجابه العجوز:

ـ هي أقدار قُدرت عندما كانت تُقدر المقادير.

التفت إلى صامد يخاطبه.

ـ الإنسان يعيش في الدنيا بقلب وعقل، وازن بينهما بُني، ولا تجعل أحدهما يطغى على الآخر، ولا تجعل الغضب يُوَلِّد الكبرياء الزائف.

قالها الشيخ العجوز ثم تركهما وذهب يترنح في مشيه بتؤدة وتمهل.

ـ بالمناسبة ماذا كان يقصد من كلامه الذي قاله لي في المكتبة، بأن الصاحب ساحب، والكتاب ساحب، فاختر الساحب**!**

ـ ظننتك فهمت مغزى كلامه، يقصد أن صاحبك يسحبك إما إلى الخير أو إلى الشر، فاختر الصاحب الذي تريد أن يسحبك للجهة التي تحب، والشيء نفسه بالنسبة للكتاب، فالكتاب خير جليس، وهو أفضل صديق، فاختر الكتاب الذي يسحبك إلى الجهة التي تود أن يسحبك إليها.

ـ هذا ما ينقصنا خرافة العجائز.

قالها صامد متنهدا.

*****

(12)

الصدفة

"الصدفة خير من ألف ميعاد"، هكذا يقولون، لعل من صاغ هذه العبارة ابتهج يوما بأن التقى حبيبا أو قريبا كان قد فرَّق بينهما الزمن، وأبعدت المسافات أجسادهما عن بعضها البعض، حتى يئسا من أن تلتقي المُقل مرة أخرى، فلما قُدِّر لهما لقاء جديد دون تخطيط أو ترتيب مسبق له، قال أحدهما إن المئة ميعاد لا تكفي لتكون خيرا من الصدفة، بل الصدفة تجاوزتها بعشرة أضعاف أخرى، لكن هل يُمكن أن ينطبق هذا المثال على صامد ويوسف؟ هل كانت الصدفة خير لهما، أم أنها جرَّت عليهما الويلات والنكبات من حيث لا يدريان؟ هل كانت عليهما بردا وسلاما أم نارا وجحيما؟

كان يوسف في المكتبة منشغلا بترصيف الكتب وتنظيفها، أحس بشخص يلج باب المكتبة، سمعه يُلقي التحية، حانت منه

التفاتة خلفه ليجد أن الزائر لم يكن سوى صامد وصديقه صفوان، كان صامد يحمل في يمينه حقيبة يدوية بها أوراق وكتب.

ترك يوسف ما كان بيديه، أقبل يرحب بهما بوجه بشوش، كان سعيدا بزيارتهما، هيأ لهما مكان الجلوس، أحضر عصيرَ برتقالٍ كان عنده في المكتبة، أفرغ لهما ما تبقى منه في كأسين، أخذ كل من صامد وصفوان كأسيهما، قال صامد.

ـ ما لهذا جئناك يا يوسف، جئنا تحقيقا للوعد الذي وعدناك به في زيارتنا الماضية لك، لمناقشة موضوع الإلحاد والإسلام، لهذا أرجو أن تترك التملق لي، أو الترحيب الزائد، وأن تكون مستعدا للمناظرة، فاشحذ أسلحةَ أدلتك وأرني ما لديك، وها هو صديقي صفوان سيكون محايدا وشاهدا على المناظرة، وسيكون مسيرا للنقاش.

أجابه يوسف مبتسما.

ـ يسعدني جاهزيتك هذه وتفاؤلك، وأرى أنك جلبت معك أسلحتك الكتابية، لكن ما ترحيبي بكم بهذه الطريقة إلا واجب أوجبتُه على نفسي أقابل به كل الناس، وليس فيه مبالغة أو نفاقا أو تكلفا أو تملقا لأحد، وسترى أني شخص آخر في المناظرة، وسيختفي وجه يوسف هذا ليُظهر وجها آخر.

قالها يوسف فضحك، تبعه صفوان وصامد في الضحك، أردف يتابع كلامه:

ـ لكن قبل البداية لابد أن نتفق على بعض قواعد المناظرة وقوانينها وآدابها.

أومأ صامد بالموافقة، أشار له بيده أن يُفصح عن هذه القوانين، سيقترح عليه يوسف بعضا منها، ثم بعدها سيترك له المجال ليقترح غيرها، اقترح بداية تجنب احتقار أحدهما للآخر أو الانتقاص من شأنه، أو السخرية أو الهزء به، واقترح عليه بألا يأتي أحدهما بكلام خارج موضوع المناظرة الذي سيحددانه سالفا، وأن يعترف الخاسر منهما بضعفه وخسارته ولا يتوارى خلف هزيمته، وكذلك لا مفر لكليهما من التسليم بالقضايا والأمور التي هي من المسلمات والبديهيات، ثم إن تبين لأحدهما خطأ معتقده وصواب معتقد غيره، فلابد منه أن يعتنقه إن تأكد له عقلا أنه كان على غير الجادة، لأنه لا فائدة من مناظرة من أجل المناظرة فقط.

اتفق صامد مع ما وضعه يوسف من قوانين، لكن إعلان الهزيمة والدخول في معتقد الآخر من الجولة الأولى في المناظرة لم يستسغها صامد، فقد ينهزم أحدهما لكن هذا لا يدل على أنه على خطأ، بل ربما لم يُحط جيدا بموضوع النقاش، قالها صامد ثم أضاف:

ـ كما أرجو أن تمتنع عن الاستدلال بنصوص دينية، فأنا لا أؤمن بها، ما يمكننا الاستدلال والمحاجاة به هو أقوال العلماء الصحيحة دون أن نختلق على أحدهم كذبا.

استدرك صامد يصحح فهم صامد الذي فهمه، فهو لم يكن يقصد أن يعترف بهزيمته من أول الأمر، فيوسف قد ينهزم لكن لا يعني ذلك أنه مقتنع بالإلحاد، ما قصده هو إن حصل لأحدهما الاقتناع الكلي بصحة معتقد خصمه وخطأ معتقده، فلابد منه أن يعتنقه، وإلا فإنه يكذب ويخدع نفسه، يعتقد بغلط أفكاره لكنه يتمادى في اعتناقها، أما النصوص الدينية فلن يستعملها يوسف كأدلة، بل كنصوص يدعم بها نفسه فقط، ولصامد أن يعتبر إذا نطق بها يوسف أنه لم يسمعها.

ـ كفاكما ثرثرة، اشرعا في مناظرتكما، وأنا سأحكم بينكما، صامد ملحد ويوسف مسلم، أو لنقل الأول يُنكر وجود الإله، والآخر يؤمن بوجوده، إذن سأسألك يا يوسف أولا، ثم بعدها انبريا في نقاشكما، وأنا سأتدخل بين الحين والآخر لرد النقاش إلى مساره، قل لنا يا يوسف: ما الذي يجعلك واثقا من أن الإله موجود؟

أسكتهما صفوان الذي كان يجلس بين يوسف وصامد اللذين كانا يقابل أحدهما الآخر، وكل منهما قد وضع بجانبه كتبا وأوراقا،

قال ذلك صفوان بثقة في نفسه، حاول أن يتقمص دور صحفي ماهر.

أجاب يوسف على سؤال صفوان بهدوء، قال إن كل شيء في الكون يدل على وجود الإله، فإذا أراد إثبات وجوده فلابد من الرجوع إلى الماوراء، إلى البداية، لِيروا مِن أين انطلقت هذه البداية، حينها سيجدون أن أدلة إثبات وجوده أكثر من أن تحصى، فيمكن للكل أن ينظر إلى هذا العالم الفسيح البديع ثم يتساءل من أوجده؟ حينها سيأتيه الجواب من كل ذرة في هذا الكون.

التفت بعد أن قال ذلك إلى صامد يسأله.

ـ هذا الكون العظيم، مَن أوجده؟ إن لم يكن قد أوجده إله عليم قادر، فقل لي يا صامد، من أوجد الكون؟

عدَّل صامد من جلسته، تنحنح مستعدا للجواب، قال وهو يتحدث باطمئنان إنه سيجيب بالعلم والمنطق، قال إنه لن يقول مثلا إن الكون أزلي أي إنه موجود منذ القدم لأن العلم أثبت أن كل ثانية تمر يتحول 4.7 مليون طن من كتلة الشمس إلى طاقة، فلو كان الكون أزليا لما وجدنا الآن أي أثر للشمس؛ لأن مليارات السنوات ستجعل من كتلة الشمس طاقة ثم تنتهي، ولتفككت أيضا الكواكب من حولها بما فيها كوكب الأرض، وهكذا كل نجم يفقد يوما فيوم جزءا من جسمه، وبالتالي فالكون يسير نحو نهايته، ومن البديهيات

أن لكل بداية نهاية، كما أن هناك ما يسمى عند العلماء بقانون اضمحلال الطاقة، وأن الشمس تفقد طاقتها، فلو كان الكون أزليا لوصل إلى درجة الصفر المطلق، ولانتهى من زمن بعيد، كما أن العلم يقول إنه في لحظة ما ستتعادل حرارة كل شيء في الكون، وعند هذه اللحظة سيحدث الموت الحراري للكون، ولو كان الكون أزليا لكان المفترض أن يصبح الكون متوقفا الآن، ميتا حراريا، لكن في الواقع الكون الآن في حالة أقل من الانتروبي القصوى، ولم يصل للموت الحراري بعد، ثم إن العلم الحديث أثبت أن الكون يتمدد ويتباعد، فلو أنه أزلي لتباعدت الأفلاك أكثر عن بعضها ولما رأينا نجما واحدا في السماء، وغير ذلك من الأدلة العلمية التي تثبت أن الكون ليس أزليا، أي إنه ليس قديما بل له نقطة بداية.

كان صامد يتحدث ويوسف يبتسم معجبا بحديثه واطلاعه الجيد في الموضوع، كان يتساءل بينه وبين نفسه، هل هذا الذي أمامي حقا ملحد أم أنه يتظاهر بذلك فقط؟ فبما أنه أثبت بالأدلة عدم أزلية الكون وأن له بداية ونهاية، فلابد أن يثبت حقيقةَ وجود الكون، قاطع يوسف صامد مستدلا على كلام صامد حول تمدد الكون بقوله:

ـ ذكرتَ أن الكون يتمدد ويتسع، دعني أذكر نصا قرآنيا يتحدث عن تمدد الكون، لكن لا تعتبره دليلا، فأنا أسوقه دعما لنفسي لا

إقناعا لك، يقول الله سبحانه في الآية 47 من سورة الذاريات: ﴿وَالسَّمَاء بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾.

حدق صامد في يوسف شزرا عندما تلا الآية، ثم أردف يقول إنه أيضا لا يؤمن بنظرية الكون الدوري التي أثبت العلم عدم صحتها، وهي تعني أن الكون يقوم على تكرار انكماشه ثم انفجاره إلى أن يظهر كون جديد بمعايير صالحة لنشأة الحياة؛ لأن العلم يقول إن هذه النظرية تجاهلت القانون الثاني للديناميكية الحرارية، والذي يتطلب إعادة ضبط الأنتروبي في كل كون جديد متكون، كما يؤكد العلم أيضا أن الكون كان يوجد به لحظة ظهوره حد أدنى من الأنتروبي، وهو ما يؤكد أن الكون لم يسبقه انكماشات.

بين صامد أنه لا يؤمن بتلك النظريتين؛ لأن العلم بكل بساطة يرفضهما، فهو كما يقول لا يسوق من كلامه ولا يعترف إلا بما يعترف به العلم، أما ما يؤمن به ويعتنقه فهو ما فصَّله عندما قال:

ـ هناك من يقول إن الكون وُجد صدفة، وهناك من يقول بالأكوان المتعددة، وهناك من يرى أن الكون أوجد نفسه بنفسه، لكن هذا لا يُلغي أنه يمكن أن تَتَحِد كل هذه الأسباب لتوجد لنا الكون، فلم هذا التعقيد الذي يُعقِّد به بعض المسلمين قضايا ثابتة علميا؟ لم يحاولون البحث عن إله لا يُرى من أجل إثبات حقيقة مرئية؟ ما المانع أن يكون الكون وجد عن طريق الصدفة تلقائيا نتيجة لأحداث عشوائية

دون الحاجة إلى مُوجد، ثم ظهور الحياة ذاتيا؟ وهذا ما يقرره الفيلسوف بول سارتر في روايته "غثيان"، إذ يقول: "لا داعي للوجود على الإطلاق وليس للحياة معنى، فأنا قد ظهرتُ صدفة كجرثومة لم يكن لي أن أوجد على الإطلاق".

أرسى صامد فرضيته على شاطئ الصدفة إذن، لكن لم يكن يعلم أن يوسف سيَخرقها ليُغرق سفينة صامد، ابتسم يوسف من "الجرثومة الصُّدفة" التي ذكرها صامد في استدلاله بمقولة سارتر، ثم قال مازحا:

ـ أترى هذه الطاولة يا صامد؟ هذه الطاولة ستدب فيها الحياة يوما ما، ولو بعد ملايير السنين، وستصبح واعية وذلك في لحظة من اللحظات، ثم ستكتسب القدرة على التفكير والإدراك، ثم ستقول لك صديقي صامد أنا طاولةٌ.

هذا ما تؤمن به بالضبط يا صامد، ضع الطاولة مكان الكون وستصل إلى النتيجة نفسها...

ضحك صفوان، فألجمها يوسف بحركة سبابته على شفتيه وأكمل:

ـ قلتَ إننا ـ نحن المسلمين - نستدل بشيء لا نراه على شيء نراه وهو الكون، وأنت هذا ما فعلته بالضبط، تستدل على الكون الذي

يُرى بالصدفة التي لا نراها، أين هي هذه الصدفة؟ ما لونها؟ كم وزنها؟ ما هو...

قاطعه صامد قائلا:

ـ أنا لا أقول إن الصدفة جسم وروح، أنا أحدثك عن أثر هذه الصدفة، فالصدفة طبعا هو قانون له أثر، كقانون الجاذبية، فأين هذه الجاذبية؟ الجاذبية نستدل بأثرها، والشيء نفسه قلتُه فيما يتعلق بالصدفة، وكطُرفة في هذا الموضوع فإني التقيتُ بك صدفة، والتقيتُ بعجوز في عدة أماكن متفرقة صدفة، يكلمني ثم يختفي عن أنظاري، فهل هيأتُ أسباب لقائه؟ طبعا لا، ولقاؤه معي ما هو إلا أثر لهذه الصدفة.

ابتسم يوسف من هذه الطرفة، وجدها مناسبة ليستعملها لما كان يريد قوله.

ـ هذا العجوز الذي صادفتَه، هل صادفته في أمكنة معينة وأزمنة معينة؟

هتف صامد: نعم، في عدة أمكنة وعدة أزمنة.

تحمس يوسف فقال:

ـ إذن أحداث هذه الصدفة وقعت في أماكن وأزمنة، لكن صدفة وجود الكون في أي مكان وفي أي زمان حدثت، وهو في الأصل

لم يكن هناك زمان ولا مكان؟ فالصدفة لها شرطان لوجودها إن سلمتُ لك بوجود الصدف، وهو الزمان والوجود، أي المكان، فالأثر الذي تتحدث عنه تحتاج معه الصدفة لزمان ما لتقوم فيه بإحداث أثرها، والزمان لم يكن موجودا، وتشترط أيضا وجودا ماديا مكانيا تقوم عليه لتُنتج مفعولها، والمكان لم يكن موجودا، فكيف تقول بدور الصدفة في إيجاد الكون مع أن الكون جاء من اللازمان واللامكان؟ بل كيف يُمكن أن يظهر أثر الصدفة دون ظهور الصدفة نفسها؟ فبما أنك تعترف أن الكون لم يكن أزليا وأن له بداية، فقبل تلك البداية لم يكن شيء، العدم هو الذي كان، والعدم هو الخواء هو اللاشيء، ثم تقول تحدث تفاعلات! أين ستحدث هذه التفاعلات والزمان والمكان غير موجودين؟ العدم وفقط يا صديقي.

وسأعطيك مثالا، لنفترض أنك تريد القيام بتجربة ما، لنقل تجربة كهربائية، وأنت تريد أن ترى نتائج هذه التجربة، فاحتمالك لظهور نتائج تجربتك يعتمد على العناصر التي استخدمتها في التجربة، مِن أسلاك كهربائية ومصباح وقاطع الكهربائي وغير ذلك، فهل يمكن أن نسمي ما قمت به تجربة دون وجود هذه العناصر أصلا؟ طبعا لا، كما أن أية تجربة عناصرها العدم فنتائجها العدم كذلك، والآن ممكن تبديل كلمة التجربة بالصدفة، فعناصر الصدفة غير موجودة، فيستحيل ظهور نتائجها فضلا عن ظهور الصدفة أصلا، مثال آخر، افترض معي أن طبيبا أراد صنع دواء ما، فإنه لابد أن يجمع

عناصر هذا الدواء من سائل معين وأعشاب وغيرها فيصنع الدواء، لكن هل يمكن تصور أن هذا الطبيب لم يجمع أي عنصر من عناصر صناعة الدواء وأي مادة من مواده، ثم فجأة وجد الدواء قد تشكل أمامه من العدم؟ أهذا يمكن؟ هذه هي الصدفة العمياء.

انتهى يوسف من شرحه، أخذ صامد زمام الكلام وهو يقول:

ـ لا يمكن أن نعطي لكل شيء تفسيرا، هناك في حياتنا أمور نراها وهي غامضة ولا نستطيع أن نعطيها تفسيرا ما، فكيف نعطي تفسيرا للصدفة التي حدثت آثارها قبل ملايير أو بلايين السنين؟ فأنا لو سألتك كيف تُفسر لي أن الذي تُسميه إلهاً هو الذي أوجد الكون ما استطعتَ إجابتي، وأنا لن ألزمك بالإجابة، فأصلا لا يُمكن إثبات فعل أحدٍ دون إثبات وجوده هو بداية، فأنا آنذاك يجب أن أعود معك إلى أن تُثبتَ لي وجود هذا الإله، وبعدها إن أثبته آنذاك يمكن أن ننتقل إلى إمكانية إثبات كيف أوجد هذا الكون؟

سكت صامد وهو ينظر إلى يوسف، فتحدث يوسف.

ـ انتبه عزيزي صامد أنك تُبطل أهم قانون اتفق عليه العلماء وهو قانون السببية، وهو أن لكل سبب مسبب، ولكل حدث مُحدث، هذا قانون علمي لا يمكن تجاوزه، فلو قلنا بالصدفة فإننا نقول بأركانها التي لا تنفك عنها، وهي أولا أننا نقرُّ بالعشوائية في الحياة وأن هذه العشوائية لها القدرة على فعل أي شيء، فإذا ما كنتَ في يوم ما

تذهب في الشارع ثم رأيت ملابسك تُنتزع منك لوحدها ثم تطير بعيدا عنك لتتركك عاريا، فلا تعجب من ذلك، فالصدفة التي تتسم بالعشوائية هي التي أحدثت ذلك، فلا سلطة حينها لقوانين الكون، ولا تسأل عن الجاذبية ولا عن غيرها، وحينها يمكن أن ترى أمورا غريبة تحدث، فلا تسأل عن تفسيرها، فقوانين الكون معطلة أمام الصدف، ففي نظرك كما قلتَ ليس كل شيء يحتاج إلى تفسير، آنذاك، امضِ في طريقك والبس ثيابا جديدة عندما تصل بيتك، ولا تسأل أو تُجب أحدا عن الذي حدث لك، فليس لكل شيء تفسيرا كما تقول.

انفجر صفوان بالضحك حتى لم يستطع أن يتمالك نفسه وهو يتخيل صديقه صامد يدخل على أبيه السيد فهمي عاريا كما ولدته أمه، ضحك قليلا يوسف وابتسم صامد، طلبا من صفوان أن يُجهض قهقهته، لكن صفوان لم يستطع ذلك فغادر المكتبة وهو يكركر ويتمايل، تركهما يكملان النقاش، أكمل يوسف يقول:

ـ والركن الثاني للصدفة هو اللامعنى أي يمكن حدوث أي أمر دون أن يكون من حدوثه معنى أو هدفا، فقد يدخل الآن صفوان ويصفعك على خدك، ثم يبرر أن ذلك حدث صدفة، فكيف يمكنك أن تقنعه بأن ما حدث ليس صدفة ولا معنى له ثم تطلب منه تفسيرا لفعلته تلك؟ والركن الرابع للصدفة أنها تتميز باللاقيمة أي أمورا قد تحدث لا قيمة لها، وتتميز كذلك باللامعيارية، ثم أخيرا الصدفة

تتميز باللاغاية أي ليس لها غاية من وجودها، فمثلا تقول: إن الكون وجد صدفة، فأصلا الصدفة لا تتسم بالغاية أي ليس لها إرادة، فكيف أوجدَتْ لنا الكون وهي لا عقل لها ولا إرادة لها لفعل ذلك؟ تخيلها يا صديقي كظلام أعمى لا يرى شيئا، كيف يمكنها أن تُنشئ لنا هذا الإبداع العظيم في الكون؟ فالكون وجد بمعايير دقيقة للغاية، وبمعنى وبقيمة وبغاية وبمعيارية، فكيف لفاقد الشيء أن يُعطيه؟ كيف للعشوائية أن توجد الدقة والروعة؟ ثم صدقني أن العلماء الذين يتنفسون ذرة صدق لم يعد أحد منهم يقول بالصدفة كسبب لوجود الكون، فهذا الفيزيائي البريطاني دينيس شياما يقول: "لم أدافع عن نظرية الكون المستقر لكونها صحيحة، بل لرغبتي في كونها صحيحة، ولكن بعد أن تراكمت الأدلة تبين لنا أن اللعبة قد انتهت". أرأيتَ؟ اللعبة انتهت، كان يدافع عن نظريته دون أدلة وهو يعرف ذلك، بل وحتى فيلسوف الإلحاد في القرن العشرين الذي اعترف فيما بعد في كتابه "هناك إله" أن الإله موجود، يقول: "يقولون إن الاعتراف يفيد الإنسان من الناحية النفسية، وأنا سأدلي باعترافي، إن نموذج بداية الكون شيء محرج جدا بالنسبة للملحدين، ذلك لأن العلم أثبت فكرة طالما دافعتْ عنها الكتب الدينية"، قال ذلك وكان ما يزال ملحدا، بل وحتى داروين يعترف إذ يقول: "لقد عبرتُ عن قناعاتي الداخلية بطريقة واضحة وناصعة، إن الكون ليس نتاج صدفة" ويقول في موضع آخر: "إن

مظاهر التصميم ودلائله شعور يغمر الإنسان بقوة ساحقة"، وحتى لا أكثر عليك من المنقولات التي أمامي في الأوراق، أختم بقول "فرانسيس كريك" وهو لاديني، وبالنسبة لنا لا فرق بينه وبين الملحد، يقول: "نشأة بروتين واحد وظيفي بسيط بالصدفة هو ضرب من الاستحالة يكاد يفوق 10أس 260"، تصور هذا الرقم الضخم! مستحيل 10 وأمامها 260 صفر وجود بروتين واحد فقط صدفة، ثم يعترف في الأخير ويقول: "كرجل متصف ومسلح بالعلم المتاح لنا، أستطيع أن أقرر بشيء من المنطق أن نشأة الحياة معجزة". معجزة.

قال يوسف الكلمة الأخيرة بانبهار، سكت عن الكلام ليرى وقعه على صامد، فلما لم يجد منه تجاوبا، قال متفكها وهو يقوم من مكانه ويتجه نحو الباب الخارجي للمكتبة أنه سيرى أين هو صديقه المشاغب صفوان، فهو تحفة نادرة لا يجب التفريط فيه، قالها ضاحكا وخرج، فابتسم له صامد في وجهه.

*****

(13)

ترتيبات في سبيل الإنقاذ

قد تستمر الحيوانات الأليفة في ألفتها ووداعتها ومهادنتها، مسالِمة للناس ولجنسها من الحيوانات ما لم يقترب هَول خارجي من أبنائها، وما إن يُشرف هذا الهول والخَطر على المساس بأحد صغارها، حتى تجد هذه الحيوانات قد انقلبتْ ألفتها إلى شراسة، ووداعتها إلى ضراوة، وخضوعها إلى عُرام، تهاجم هذا الخطر، تقاومه بمخالبها وأنيابها وكل ما في وسعها من أسلحة، هذه الفطرة ليست خاصة بالحيوانات، فحتى الإنسان قد يتحول إلى حيوان متوحش إذا دقتْ طبول قلبه ناقوس خطرٍ يُحدق بأحد أبنائه، كان أحد هؤلاء الذين يُمكنهم التحول إلى حيوانات غير أليفة هو السيد فهمي، وذلك لما وجد فيروسا خارجيا يسلب منه ابنه، يأخذه منه.

جلس السيد فهمي والسيدة رقية التي كانت متكئة على فراشها إلى ابنتهما جمانة، يُحدثانها بما دار في خلدهما، وبما اتفقا على الشروع في تنفيذه في التو واللحظة، كان السيد فهمي هو من أخذ

بادرة الكلام، جلس يخاطب ابنته وجها لوجه، يخاطبها بحسرة متهما نفسه بأنه قد قصر في حق أخيها من حيث لا يقصد، وأنه لم يكن على قدر المسؤولية التي تستوجب عليه مساندة ابنه في سرائه وضرائه، وقد تراءى له مِن نفسه أنه ما زال على تلك الحال حتى بعد أن ألحد أخوها، فلم يُعره وأهله اهتماما بعدها، لم يستقصوا شأنه أو يُفاتحوه في مكنونة نفسه، بل قاطعوه واعتزلوه، حتى يُخيَّل إلى الرائي أنه مرض خبيث يتجنبونه، فابتغى الآن أن يستغفر لزلته ويرمم خطأه بأن اتفق مع أمها بأن يكون شغلهم الشاغل بعد الآن هو المضي في إنقاذ صامد مِن حوض أفكاره العفن، لذلك فهو بحاجة إلى ابنته لتساعده، طلب منها وهو يخاطبها بودٍّ أنها إذا رأت من نفسها الوقوف بجانبه والسعي مع سعيه، وأن وقتها يسعها لما يريد أن يَقْدُمَ عليه، فإنه يود أن يُشركها في أمره ويُطلعها على الخط الذي رأى أن يكون مرشدا لهدفه.

كانت جمانة متحمسة، تَبَدى ذلك على وجهها، أفصحت لهما أن ليس في ذلك يستشير الآباء الأبناء، وأنها جزء منهما، فمن حقهما أن يوجهاها أينما شاءا.

ـ أنا عينكما التي تريان بها، وأذنكما التي تسمعان بها، أنا لحافكما الذي تغطيان به، أنا الأرض التي تدوسان عليها، أفصح يا أبي فإني معك، ولا حفظني الله إذا رددتُ لك أمرا أو خذلتك في شيء.

استبشر وجه السيد فهمي، أحاطته الغبطة من كل زواياه، أفصح لها أن هذا هو الذي عهداه منها، أخذ يحدثها بما استغرب له وأمها، ولربما هي الأخرى استغربت من خلوة أخيها لشهر كامل في غرفته دون أن يتم فصله عن عمله، بل الأدهى من ذلك أن مديره هو من أعطاه إجازة شهر، ولو طلب أكثر من ذلك لمنحه إياه، فهل يتقبل عاقل هذا الأمر إذا لم يكن هناك سر ما؟ إذا لم تكن لمدير مؤسسته مصلحة فيما صار عليه صامد؟ هكذا كان يتساءل السيد فهمي مع ابنته، لذلك ارتأى أن يزرعوا أعينهم ويستقصوا أخبار المؤسسة، وأخبار مديرها من حيث لا يعلم بأمرهم، ولا يعرف مكمن آصرتهم بصامد، وقد خَبِر السيد فهمي فصاحة ابنته وطلاقة لسانها، وحُسن منطقها، وروعة بيانها في أكثر من لغة، فرأى في نفسه ضعف ما هو عليه، فأراد أن يُشركها في أمره فتذهب معه إلى المؤسسة ليستطلعا أخبارها لعلّهما يجدان هناك سر ضياع ابنه صامد من بين يديه.

كانت جمانة مبتهلة مسرورة من هذه الفكرة، أحبت مدح والدها لها، وأحرجها التنقيص من قيمته رفعا لقيمتها وسؤددها، لم تستسغ أن يضع والدها من مكانته على حساب حظوتها، فقالت:

ـ يا أبتي، وهل الذي فكر في هذه الفكرة من حيث لم تجد طريقها إلى عقولنا نحن الذين تقولون عنا مثقفين، هل الذي فكر فيها يقول

عن نفسه إنه ليس له بيان وفصاحة ابنته، كفاك ذكاء وفطنة أنك فكرتَ في الفكرة التي لم تخطر لنا ببال.

أحس السيد فهمي بالفخر من ابنته، وهي بجانبه في ذهابه وإيابه، وفي كل شؤون أمره، إذن على بركة الله حان وقت العمل، ولا وقت لإضاعته.

ـ لننطلق الآن إلى المؤسسة أبي، أعرف مكان تواجدها، وليست ببعيدة من هنا.

استبطأ السيد فهمي ابنته حتى يلبس أحسن ثيابه وأجودها حتى لا يراهما مدير المؤسسة بعين الازدراء، ثم وعد السيدة رقية أن يأخذوها إلى المستشفى ليقوموا بالفحوصات اللازمة لها عند عودتهما، لأنه رأى أنهم قد أهملوها كثيرا، ولم يعطوا لها حقها هي الأخرى، فحالها لا يسر، ومرضها الذي يجهلونه يزداد يوما بعد يوم.

*****

وصل السيد فهمي وابنته جمانة إلى مؤسسة "داوكينز"، جلسا بمحاذاة منها على مقاعد اسمنتية في ساحة غالب مرتاديها تلاميذ تلك المؤسسة، كان التلاميذ حينها ينتظرون أن يُعلن الجرس عن بداية حصتهم الجديدة، لم يكن يدري السيد فهمي وجمانة من أين

يبتدئان عملهما، وما الذي يلزمهما القيام به، أيلجان على مدير المؤسسة يطلبان منه أن يَقبل جمانة أستاذة جديدة في مؤسسته؟ أم يتظاهران بأنهما يسألان عن قانون المؤسسة من أجل إلحاق أحد أبنائهم إليها؟ أم ماذا يفعلان؟

وهما كذلك يفكران ويتجاذبان في الطرق التي يرجوان أن يسلكاها، إذا بالسيد فهمي لفتَ انتباهه أمر حيَّره، التفت إلى ابنته جمانة يهمس قائلا: أترين ما أرى؟ هل استغربتِ مِن شيء ما؟

لم تستشعر جمانة ما استغرب له والدها، لذلك سألته أن يخبرها الخبر، أوضح لها سبب ذهوله وتحيره، كان ما استغرب له السيد فهمي أن كل التلاميذ المتواجدين في الساحة الخارجية للمؤسسة، يَظهر مِن مَظهرهم الخارجي أنهم قد انخرطوا في الثقافة الغربية انخراطا لا هوادة فيها، كان يُحدِّثها بذلك، لكنه استدرك قائلا إن الذنب ليس ذنبهم، بل ذنب آبائهم الذين أهملوا الحرص على تربيتهم والعناية بما ينفع مستقبلهم، فها أنتِ ترين الذكور تسريحات شعرهم غريبة جدا، فكيف تقبل المؤسسة بهؤلاء تلامذة عندها؟ وانظري إلى سراويلهم ممزقة من كل جانب، بل ليس حال السراويل تخص الذكور فقط بل حتى الإناث قد تفنن في ذلك، ولم يكتفين بذلك، بل جعلن تلك السراويل ضَيقة جدا حتى يعجب الرائي كيف أدخلنها في أجسادهن، وانظري إلى أقمصتهن قد أبدت ما

يجب ستره، واسمعي لصياحهن وقهقهاتهن ولعبهن مع الذكور وملامستهن لبعضهم البعض.

كانت جمانة قد أحست بالحرج الشديد لحديث والدها، أطرقت ببصرها مركزة به على الأرض، شعرت بالعرق يتجمع على جبهتها، وقطرة أخرى قررت التزلج من رقبتها مرورا بظهرها، تلفظت وهي تديم النظر أرضا:

ـ لا تستغرب من الأمر يا أبي، هذا هو حال جيل زماننا، وإن كان تلاميذ هذه المؤسسة قد تخطوا الحدود، فقد رأينا تلاميذ مؤسسات أخرى لكنهم ليسوا كهؤلاء في مثل هذه الجرأة والميوعة.

لكن السيد فهمي كان قد استغرب لشيء آخر، ليس الذي شرحه، أو الذي فهمته جمانة، استدرك أن الذي استغرب له وتعجب له هو مُخالفة تلميذة جالسة على مقعد بمفردها لهؤلاء التلاميذ، كانت تقرأ في كتاب معتزلة ذلك الجمع من التلاميذ وضجيجهم، بحجابها الكامل وكأنها ليست جزءا منهم، أو كأنها ليست من تلاميذ هذه المؤسسة.

الآن أدركتْ جمانة ما شغل بال والدها، انعقد جبينها من الدهشة، الأمر يدعو لذلك، اقترحت بتحفز أن يدعواها ويتحدثا معها في شأن أمرها، لعلها تخبرهما بما خفي عنهما، وافق السيد فهمي على ذلك، قامت جمانة إلى مكان جلوس التلميذة، رمق السيد

فهمي ابنته وهي تتحدث مع التلميذة، نظرت التلميذة إلى مكان جلوس السيد فهمي، حملت محفظتها وكتابها ورافقت جمانة إلى ذلك المقعد، قالت جمانة وهي واقفة بجانب التلميذة فوق رأس السيد فهمي.

ـ اسمي جمانة وهذا والدي السيد فهمي، في الواقع استغربنا اختلافك عن جنسك من التلميذات في طريقة لباسك واهتماماتك، فأحببنا أن تُفصحي لنا عن مكمن ذلك إذا كان الأمر يروقك ولا يزعجك.

أفصحت التلميذة تتحدث بحذر، قالت إن اسمها **براءة**، هي ليست من أهل هذه المدينة، التحقتْ بها مؤخرا؛ لأن والدها قد اضطره عمله الانتقال إلى هذه المدينة، ومسكنهما بجوار هذه المؤسسة، وبما أن السنة الدراسية كانت قد بدأت منذ أشهر، ومشاغل والدها تمنعه مِن أن يبحث لها عن مؤسسة تكمل دراستها فيها، وبما أن هذه أقرب مؤسسة للبيت الذي تسكنه، فإنه اختار أن يسجلها بها هذه السنة.

حرك السيد فهمي رأسه متفهما، سألها كيف وجدت هذه المؤسسة؟ لم تجب التلميذة، ترددت في إجابتها، كانت هي وجمانة مازالتا واقفتين، طلب منهما السيد فهمي الجلوس، جلستا، التفت إلى التلميذة مرة أخرى وهو يخاطبها "بابنتي"، يروم منها أن تحس

بالأمان في حديثها، فكل ما في الأمر أنهما يشغلهما أمر هذه المؤسسة، ولم يجدا غيرها لتُطلعهما على بعض شأنها.

أحست براءة بصدق الرجل، صدّقته في قوله، طفقت تتخلص تدريجيا من حذرها، أخبرتهما عن انطباعها من هذه المؤسسة، لم تتردد في أن تعتبرها أسوأ مؤسسة درستْ فيها، هي تُحس فيها بأنها في دولة غربية مميعة إلى أقصى حد، ليس على مستوى شهوات تلاميذها وحسب، بل على مستوى الشبهات التي يمررها أساتذتها، أغلب الأساتذة في المؤسسة إذا لم تحكم عليهم كلهم، إما علمانيون أو ملحدون أو شيعة أو لا يروقهم الإسلام، هكذا وجدتهم براءة، وأفكارهم هذه ينفثونها في عقول التلاميذ، تستطرد في حديثها وتتأسف من ضياع جيل هذه المؤسسة من التلاميذ، بل وسيُعيد هذا الجيل هو الآخر الكَرَّة مع الأجيال الأخرى القادمة عندما يتقلدون مناصب مختلفة في المسؤولية.

حدق كل من جمانة والسيد فهمي إلى بعضهما البعض باستغراب، سألتها جمانة كيف تتصرف والحال هذه في المؤسسة؟ أجابتها أنها في فصولها الدراسية تلتزم الصمت، وتكتب ما يتلوه الأساتذة على مسامعهم، ولا تبالي بما يخدش عقيدتها، وفي البيت أخبرتْ والدها بذلك فحثها على الصبر، ولم يجد مفرا أو ملجأ مِن إكمالها لسنتها الدراسية بهذه المؤسسة.

كان ما يشغل عقل السيد فهمي هو ابنه صامد، سألها عن أستاذ اسمه صامد.

ـ مدرس مادة علم النفس! آه، لا يختلف عن غيره من الأساتذة، ناقشته من قبل في مسألة من المسائل، فلم أجد منه إلا كلاما يوافق معتقده، وأظنه ملحدا هو الآخر، فعلى مدار الشهر الذي أقمته في هذه المؤسسة كنت أجد أحاديثه تميل إلى الإلحاد، ولم أسمع منه ولا من غيره من الأساتذة ولو مرة كلمة "الله"، إلا إذا جاءت في موضع السخرية والاستهزاء.

بدا الحزن والتأسف على محيا السيد فهمي، اعترف لها أن ذلك الأستاذ ابنه، وجمانة أخته، ولهذا السبب جاءا لينظرا في أمر المؤسسة لعل فيها علاقة بإلحاده، فبما أن كل الأساتذة على شاكلته، فلن تكون المؤسسة بعيدة عن الأمر، فلربما هي من تختار هذه النوعية من الأساتذة وتشجعهم على فكرهم.

وافقته براءة في تخمينه، فرامز مدير المؤسسة والإداريون الآخرون معه، مثلهم في فكرهم، بل أشد منهم، وكم لقيتْ من إساءات منه بسبب حجابها، فبعد أسبوع من مجيئها إلى المؤسسة وبخها، وقال إن الحجاب ليس عبادة بل هو مجرد عادة قبيحة اعتاد النسوة فعلها، قال إنه لا يحب أن تراها التلميذات فيتأثرن بشكلها، إما خوفا عليهن من أن يلبسنه، أو أن تتسبب لهن في اشمئزاز

نفسي، هو في كل الأحوال لا يريد ذلك لتلميذاته، بل كل يوم تقريبا تجد منه فضاضة وسوء معاملة، لكنها في سبيل الله صابرة.

كادت تترقرق دمعة من مقلتيها وهي تتحدث، واستها جمانة وهي تربت على كتفها لتربط على قلبها.

ـ يحزننا ما تقاسينه أختي، نحن هنا من أجل أن نضع حدا لهذا التخبط، فهل بإمكاننا أن نشركك في أمرنا، تساعدينا بما حباك الله من قدرة واستطاعة على فضح هذه المؤسسة التي تُخدر عقول أبنائنا، وتذهب بهم إلى الهاوية، فإن استمر الأمر على ما هو عليه، فإن خطرا كبيرا يحدق بهم، وينذر بضياع أجيال من التلاميذ، إن سَكَتنا على هذا الأمر فإننا شركاء في الجريمة، إذا كانوا مقتنعين بأفكارهم، فلا يحق لهم زرعها في أدمغة التلاميذ.

حرك السيد فهمي وبراءة رأسيهما، وتلفظا في الوقت نفسه بكلمة "صَدقت"، فأردفت جمانة تقول بصوت منخفض:

ـ خطرتْ في بالي فكرة، إذا وجدتِ يا براءة من نفسك شجاعة على مشاركتك لنا فسأعرضها عليكما.

تحمست براءة لسماع الفكرة، فليس أحب إليها من مساعدتهما في هذا الشأن، وإنها معهما في كل ما يودون فعله لإنقاذ ما يمكن إنقاذه.

ـ اعتبروني من الآن واحدة منكما، وسِرٌّنا لن يطلع عليه أحد، فسمعنا وآذاننا لك صاغية.

اقترب الثلاثة من بعضهم البعض وأخذت جمانة تُحدثهم بما خطر في بالها، والآخران ينصتان في اهتمام وقد تحمسا للفكرة.

*****

(14)

الأكوان المتعددة

عاد يوسف ليدخل إلى المكتبة ومعه صفوان، كان صفوان قد ألجم ضحكته، جلس كل منهما في مكانه، عدَّل صفوان من ثوبه وجلسته، اعتذر عن تصرفه في ضحكه المسترسل الخارج عن إرادته، التمس منهما استئناف المناظرة، توجه بوجهه نحو صامد.

ـ يقول يوسف إن الكون مُبدع ومبهر في ذاته، ولا يُمكن للصدفة أن توجده، إذن فمن برأيك أنشأ هذا الكون من غير الصدفة؟

كان صامد صامتا شاردا بأفكاره منذ أن خرج يوسف، يُفكر في التحليل الذي رد به يوسف عليه، تذكر شيئا فانقلب إليه حماسه عائدا بعدما غادره، ما كان تذكره هو أنه استدل على نشأة الكون بالنظرية المرجوحة على الراجحة، برهن بالصدفة، لكن هناك نظرية في نظره أقوى من الصدفة يرجع إليها سبب وجود الكون، فكثير من العلماء يقولون بها، وهي نظرية الأكوان المتعددة، فهذه الأكوان هي التي ساهمت في وجود كوننا هذا، هي أكوان لا نهاية

لها، كل كون يختلف عن الآخر اختلافا فيزيائيا طفيفا، إلى أن نصل إلى كوننا المميز والمدهش للغاية، وهو ما سمح لكوننا أن يؤسس لظهور الحياة، إذْ سادت في هذه الأكوان ظروف طبيعية مختلفة، وقد حدث أن توافرت في كوننا هذا الظروف المطلوبة لنشأة الحياة بقانون الاحتمالات، وهكذا ظهر كوننا من بينها، كان صامد يسترسل في شرحه لنظرية الأكوان المتعددة، وأعين صاحبيه ترمقه باهتمام، ختم كلامه يقول:

ـ وحتى أدعم كلامي بكلام العلماء، فإن الفيزيائي ستيفن هوكنج الذي توفي بالمناسبة يوم 14 مارس 2018، ورفض المسلمون الترحم على هذا الرجل العظيم الذي أبهر العالم بعلمه، يقول في كتابه الأخير الذي بين يدي الآن "التصميم الذكي" إن هناك أعدادا هائلة من الأكوان الأخرى تبلغ 10 أس 500 كون، وها هي عبارته اقرأها بنفسك.

مَدَّ صامد الكتاب ليوسف بزهو وإعجاب وعيناه تومضان كأنهما تقولان له، أفحمتك فما ردك، نظر يوسف في الكتاب، ثم نظر إليه كأنه يطلب منه الاستطراد، فلما تبين له أنه أنهى تأصيله لنظريته، تهيأ يوسف للكلام، ما كان استوقف يوسف بداية هو انتقاد صامد للمسلمين الذين لا يريدون الترحم على روح هوكنج، استغرب يوسف من ذلك، فكيف يقول صامد إن المسلمين لا

يريدون الترحم على ستيفن هوكنج**!**؟ يعني يريد أن يطلبوا له الرحمة من الله الذي لا يؤمن به لا هو ولا صامد، ما هذا التناقض؟ كيف يسألون له الرحمة وهو أصلا لا يعترف بها؟ هذا تنقيص من قدر الرجل في نظر يوسف، حيث يريدون له ما لا يعترف بوجوده.

قال ذلك يوسف ثم رجع للحديث عن نظرية الأكوان المتعددة التي استدل بها صامد، نظر إليه برأس مائل واضعا يده اليسرى على خده وهو يقول:

ـ ألم تنتبه إلى أنك لم تخرج بعد عن موضوع الصدفة؟ ما زلنا في موضوع الصدفة يا صديقي، لكن بلباس وحلة جديدة، والكلام نفسه الذي قلتُه عن الصدفة استحضِره هنا فهو يفيد هذا الموضوع أيضا، لذا لا داعي لإعادته، لكن أضيف على كلامي السابق وأقول إن هذا الرجل الذي تتحدث عنه يتناقض مع نفسه، أنظر هنا في هذه الصفحة من كتابه "التصميم العظيم" ماذا يقول، يقول: "فكرة الأكوان المتعددة فكرة مزعجة للغاية"، فما هذا التناقض يا صديقي**!**؟ يؤمن بالأكوان المتعددة لكن تزعجه هذه النظرية لأن أدلة وجودها غير متوفرة.

ومع تناقضه، سنعطي لمقولته التي ذكرتها وقتا لتحليلها، اسمع ماذا يفترض هوكينج، يفترض بحساباته تلك من أجل أن يهرب من

الاعتراف بالخالق الحقيقي للكون، يفترض أنه يوجد 10 أس 500 كون، هذا الرقم الضخم إذا كنت لا تعرف يعني 10 وأمامها 500 صفر من الأكوان، هذا الافتراض من أجل شيء واحد هو أن يتناسب مع نظريته M التي ستجمع كل قوانين الوجود، كلها، حتى لا يقول إن هناك إله أوجد الكون، ما هذا الافتراض العجيب؟ أي ميتافيزيقيا هذه؟

ثم إن علماء الكونيات المؤيدين لفكرة الأكوان المتعددة أمثال "ليونارد سوسكايند" يرون أن رصد كون آخر مستحيل علميا ومنطقيا، والسبب في ذلك يرجع إلى ما يعرف بأفق الجُسيم، وهو أقصى مسافة من تلك الجُسيمات التي تحمل المعلومات، والتي ما أن تصل للراصد يكون عمر الكون قد انتهى منذ مليارات السنين الضوئية، وأي كون آخر لابد أن يكون خارج أفق الجسيم.

ثم أنا لم أشاهد هذه تريليونات من الأكوان، هل شاهدتها أنت يوما يا صامد؟ وهل ستيفن هوكنج رآها؟ هذا أمر ميتافيزيقي لا ينبني على أي علم أو تجربة، ولو افترضنا أن هذه الأكوان موجودة وأن كوننا أفضل منها وتصلح فيه الحياة، فإننا بحاجة لرصد كون من هذه الأكوان يختلف عن كوننا في قوانينه الفيزيائية حتى نفخر بكوننا باعتباره مميزا عن الآخر، ثم إني أتصور لو أن المسلمين هم من قالوا ذلك، هم من يقولون: "أتدرون؟ إن الكون الذي نعيش

فيه ظهر من خلال أكوان لا نهاية لها". كيف سيكون حالهم بين الأمم من السخرية والتنقيص والاستهزاء؟ هذه النظرية خارج دائرة العلم المادي النظري؛ لأن حجر الزاوية في العلم هو الرصد والاختبار والتجربة، فهي مجرد فرضية فلسفية، وهذا ما يقوله عالم الكونيات جورج إليس: "إن فرضية الأكوان المتعددة ليست من العلوم ولا توجد داخل دائرة العلم وإنما في إطار الفلسفة"، وهذا ما يقوله البروفسور جون بولكنجهورن من أشهر علماء الفيزياء النظرية عن الأكوان المتعددة: "إنها ليست فيزياء إنها في أحسن الأحوال فكرة ميتافيزيقية ولا يوجد سبب علمي واحد للإيمان بمجموعة من الأكوان المتعددة... إن ما عليه العالم الآن هو نتيجة لإرادة خالق يحدد كيف يجب أن يكون؟".

قاطع صامد يوسف وقد بسط كفه في وجهه معترضا:

ـ لحظة، كيف تقول إنها خارج إطار العلم وأن الأمر ميتافيزيقي، وأنك لم تشاهدها يوما؟ وهل الإله الذي تؤمن به يمكن رصده بالعلم؟ أليس هو أيضا شيء ميتافيزيقي؟ هل سبق لك أن رأيت إلهك يوما؟ وهل رأيته أنت يا صفوان؟

رفع صفوان يديه مبتسما دلالة على الحياد، ثم أجاب يوسف:

ـ طبعا لم أره، لكن رأيتُ أثر أفعاله، أنا لا أطلب منك أن تريني هذه الأكوان، بل أبرز لي أثرا واحدا لها وسأكون لك من

الشاكرين، ثم إن إيماني بهذه الأكوان المتعددة أو الموازية أو الموجودة في المكان نفسه بخواص مختلفة لا تضر عقيدتي في شيء، فأنا أؤمن بعوالم كثيرة مثل عوالم الجن، وعوالم الملائكة، والعالم الذي ستكون فيه الجنة، والعالم الذي ستكون فيه النار، فأنا لا إشكال لدي في الإيمان بهذه الأكوان، لكن المشكلة تخصكم أنتم الذين لا تؤمنون إلا بالمادة، إلا بما هو ملموس، إلا بما ترونه، وعندما وجدتم أنفسكم غير قادرين على تفسير بداية الكون اضطررتم لتؤمنوا بعوالم ما وراء المادة لتفسروا الوجود، فهذا ليس من معتقداتكم.

ثم إذا آمنتُ بهذه الأكوان فإني لا أقول إنها أوجدت نفسها بنفسها، بل هناك من أوجدها، ثم لابد أن أسألك بعض الأسئلة وأرجو أن أجد الإجابة لديك، من أين ظهرت هذه الأكوان الكثيرة؟ وهل لهذه الأكوان المتعددة كون أم؟ ومن أين أتى هذا الكون الأم؟

صمت يوسف ينتظر الجواب، تنحنح صامد، لم يكن ينتظر هذه الأسئلة، نَظَر برهة في الأوراق التي أمامه ثم قال بشيء من التوتر:

ـ العلم يتطور، وسيأتي الوقت الذي سيُجيب فيه العلم عن هذه الأسئلة، فإذا لم يتوصل العلم حاليا للجواب، فغدا سيعرف العلماء الذين سيعيشون على هذه البسيطة جواب تلك الأسئلة، ثم إنه ليس

كل شيء يُفسَّر كما قلتُ لك سابقا، فبعض الأمور لا يمكن تفسيرها الآن، وقد نفسرها فيما بعد.

شرب يوسف كوب ماء إلى آخره، ثم هتف مبتسما ومعترضا، كان اعتراضه على فكرة صامد بأن العلم في يوم ما سيجد تفسيرا لكل شيء، فكيف يقول الملحدون بذلك؟ وفي الوقت نفسِه ينتقدون المسلمين ويقولون عنهم إنهم يستحضرون الإله وحكمة الإله عندما يصعب عليهم رد أمر ما إلى العلم والعقل، وها هم الآن يجعلون أيضا العلم يسد الثغرات التي لم يجدوا لها حلا أو جوابا، قال ذلك ثم أردف.

ـ من ناحية أخرى لا أدري يا صامد لم نختار الفرضيات الصعبة على الحقائق السهلة الواضحة؟ وبالمناسبة فاختياركم للأكوان المتعددة سببا لوجود الكون يخالف "شفرة أوكام"، فطبقا لشفرة أوكام فإن أبسط التحليلات لمُشْكِلة مُعَقدة هي الصحيحة، أي ينبغي اختيار أبسط نظرية وأبسط حل يناسب حقائق المعضلة، فسبب وجود الكون معضلة بالنسبة لبعض البشر، فالحل الصحيح لهذه المعضلة هو اختيار أبسط حل لها وليس أعقد وأغرب حل بافتراض تريليونات من الأكوان.

ـ ربما يكفي هذا.

قالها صفوان وهو يتهيأ للوقوف.

ـ نؤجل المناظرة إلى يوم آخر، فأقول صادقا إنكما كنتما مبهرين، ولقد انبهرت بسعة اطلاعكما، ورغم أن أمامكما بعض الكتب إلا أنكما لم تفتحاها كلها إلا نادرا، لكن سأخرج عن حيادي وسأقول لك يا صامد أرجو أن تكون موفقا في المرة المقبلة وأكثر إقناعا، فقد تبين لي أنك كنت تدافع فقط، بينما يوسف يهاجم ويسجل عليك الأهداف.

قالها وأطلق ضحكته المعهودة، والمعتوهة بالنسبة لصامد.

ـ ربما معك حق، هو كان في وضعية الهجوم، لكن في المرة الأخرى، سنتبادل الأدوار، وسنرى هل سيبقى على هذه الحدة في النقاش؟ أعترف لك يا يوسف أنك هزمتني في هذه الجولة، لكن هي جولة واحدة فقط، ولم تزعزع قط إلى حد الآن أفكاري وقناعاتي، فلنا عودة مرة أخرى لكن ستجدني أقوى مما كنت عليه اليوم.

صافح صامد وصفوان يوسف وتركاه في مكتبته ثم انصرفا.

*****

(15)

خطة البناء والهدم

كم يصعب على المرء أن تكون حياته وسط شخصين متناقضين ومتباينين في تصرفاتهما؟ طرفان لا أحد منهما يعرف الوسطية والاعتدال، أحدهما متشدد والآخر مُنحل، فيلاقي الذي يكون بينهما شدة مِن أحدهما وهوانا من الآخر، جلفة تعامل الأول وانحلال أخلاق الثاني، تشدد تصرفات أحدهما وميوعة أفكار الآخر، غلو معاملات أحدهما وخلاعة أفعال الآخر، تصلب قرارات الشقيق وتقلقل الزوج في دينه، تزمت عبادته وتساهل فيها من الآخر، فالأول في شدة من أمره، والثاني في رخاء منه، ولا أحد منهما في الوسط، زوج أميمة وأخوها كانا على النقيض من بعضهما البعض؛ فالأول خرج عن الإسلام والثاني يغلو ويتشدد فيه بعض التشدد.

كانت أميمة في غرفتها تفكر فيما قالته لأمها ولأخيها حسن بخصوص علاقتها بصامد، لم توضح لهما ما تنوي فعله، لم ترو عطشهما فيما عزمت القيام به، قالت لهما إن علاقتها بصامد هي

مسألة وقت فقط، ألحت عليهما أن يجعل هذا الموضوع وراءهما، أن ينسيانه، وحينما يحين الوقت المناسب ستفاتحه بخصوص علاقتهما، أصرا عليها أن تلتجئ إلى القضاء إذا رفض الطلاق، وسينظر القاضي في أمر طلب طلاقها نظرة المُتفهم، ولن يبقيها في عصمته طرفة عين إذا بينت له ما دفعها لتتخلص من عصمة هذا الرجل، كانت مناقشات حادة قد جرت بينهم، استطاعت أخيرا أن تنتزع منهما حلا وسطا، اشترطا عليها منذ تلك اللحظة أن تُحرِّم على عينيه النظر إليها، وعلى لسانه الحديث معها، وعلى سمعه كلامها، وعلى جسده لقاءها، لعل الله يحدث بعد ذلك أمرا، وافقت على مضض، فرُبَّ حيلة بعد ذلك تُسعفها إلى أن تمسك العصا من الوسط، كما أمسكتها الآن.

وما هما إلا يومان بعد أن أعطت لهما العهد بأن تُلزِم نفسها بما اشترطا عليها، إذا بصامد يلتقيها قرب كلية الطب وهي خارجة منها، استأذنتهما حينها جمانة بالانصراف وتركتهما، عاتبها على عدم الرد على اتصالاته، بينت له عذرها، حكت له شروط أهلها، فقال بجدية لم يخالجها مزاح أنه لا يتفهم أن يحرمه أحد من زوجه بسبب معتقداته، ولإنْ خُيِّر بينهما فسيختار حرية أفكاره، وإن كانت في صفهم فلتطلب الطلاق فستجده ملبيا طلبها.

اضطربت أميمة في مكانها بعدما سمعتْ قولته، حدَّثت نفسها تقول لها أبعد أن انطلقتُ في خطتي معكَ أفعل؟!، بينت له أنها لا

تود فراقه، ذكَّرتْه بما ألزمتْهُ به من قبل، وهو أن يبقى على أفكاره ما دام مقتنعا بها، وأن يعدل عنها إلى غيرها إذا تبين له خطأها، هذا هو شرطها الوحيد لتُبقي على ودها معه.

وهما كذلك، وما هي إلا لحظات معه، حتى رأت ما أرعب فؤادها، أبصرت ما جعل قلبها يدق طبول الحرب، إنه أخوها حسن مقبل عليهما بوجه يزفر ويربد حنقا وغضبا، وهي التي تعرف من أخيها أنه لا يحسن مقالة ولا أدبا ولا صوابا، لا يفهم من لغة الحوار إلا سبا وشتما، ولم تكن مخطئة فيما ذهب إليها تفكيرها حتى وجدته أمام صامد يأخذ بتلابيب ثيابه يخاطبه:

ـ ماذا تفعل أيها الكافر مع أختي؟

قامت أميمة منتصبة بينهما، أبعدت يدي أخيها عن ثياب صامد، حينها التفتَ إليها كأنه لم يتفطن لوجودها إلا اللحظة.

ـ وأنت ماذا تفعلين مع هذا المرتد؟ ألم تُعاهدي أمك بأن تجعلي مسافة البحر بينك وبين هذا ال...؟ أهذه هي الثقة التي وضعناها فيك؟ نحسبك حقا مسلمة متخلقة، لكن ربما تريدين أن تأتينا بإسلام يوافق هواك ورغباتك و...

قاطعه صامد لما رأى أميمة لاذت إلى بكائها ونحيبها، قال وهو يسوي ثيابه ويتحدث مع حسن بصوت مسموع واضح هادئ:

ـ حسن، استمع لي جيدا، ليس هذا بأسلوب حوار، وليس من أخلاق المسلم كما تزعم أنك كذلك أن تتهم أختك في شرفها وأخلاقها، أختك أطهر من أن تتصور، أشرف من أن تُدرك، هي لم تجدها مع عشيق أو حبيب، أو في خلوة أو دعارة، بل واقفة مع زوجها، فإسلامك يا هذا يعطي للزوج الاختلاء بزوجته بمجرد إتمام شروط وأركان الزواج التي كنت حاضرا عند إقامتنا لها، ثم نحن لسنا في خلوة، بل في مكان عام، ومنذ قليل كانت معنا أختي جمانة، فقَبل أن تطلب من أحد أن يتخلق بأخلاق دينك التزم بها أنت أولا.

صاح حسن وقد زاد غضبه، وأخذ الرذاذ يتطاير من فمه.

ـ أنا لم أعِب عليها زواجها عندما كنتَ مسلما، أما وقد صرت كافرا، فلا يجوز لها أن تبقى معك لحظة واحدة، فهذا الزواج باطل الآن وفاسد، وأنت من أفسده.

كان صامد إلى حد الآن هادئا متعقلا، يتكلم بروية، لا نعلم أهي حالة نفسية هو عليها الآن، أم هدوء مصطنع يُثبت به أن الإلحاد أخلاق؟

ـ صدقني أن ما أراه من جلفة وسماجة وغلاظة وسوء أخلاق منك لن أنسبه لإسلامك أو أعتبره نتاج دينك، لسبب واحد وهو أني التقيت بمسلم هو خير منك في إشراقة وجهه، وابتسامة ثغره،

وعذوبة كلامه، وحسن أخلاقه، وصفاء سريرته، وحب الخير لغيره، فلو كان عامة الناس مثله لدخل الناس دينه أفواجا، ولو كان عامتهم مثلك لخرجوا منه أفواجا، اسمع مني، لو أتيتَ تناقشني في ما أنا عليه، وتُبين لي بمنطق حكيم، وكلام ينبع من قلب أبيض أن بقائي مع أختك لا يجوز في دينك، لرأيتَ مني تجاوبا، ولما أحببتُ أن أفسد عليك وعلى أختك معتقدكما، حينها لن تجدني إلا معتذرا ومتفهما لما يوجد في دينك، ولربما ناقشتني في معتقداتي، فمن يدري لعلي أرجع عنها، لكن صدقني يا حسن، أسلوبك هذا تُنفر به الناس عن دينك، فالإسلام كما تقولون هو الأخلاق، فأظهر أخلاقك مع غير المسلمين لعلك تُحببهم فيه، حتى إذا لم يدخلوه، لن يعادوه أو يتآلبوا عليه.

أخذتْ هذه المقالة التي قالها صامد بلب حسن، أوقعته في حرج من نفسه، لم يجد جوابا إلا الصمت، لم يقل شيئا، تركهما وأراد الانصراف، فعل ذلك، ناداه صامد يلتمس منه أن يصطحب أخته معه إلى البيت، توقف حسن دون أن يدير ظهره لهما، التحقتْ به أميمة وجاورته في طريقه حتى وصلا إلى البيت في صمت دون أن يكلم أحدهما الآخر، لم يقل حسن لأمه شيئا مما حدث.

كانت أميمة تفكر في كل ذلك في غرفتها عندما وصلها اتصال مرتبِك حزين من جمانة تطلب منها أن تأتيها إلى البيت بسرعة، استفسرتها أميمة عن استعاضة صوتها، وسبب لكنة

الحزن فيها، فأرجأت إخبارها بالأمر حتى تأتيها، المهم أن تأتيها الآن بسرعة وستعرف كل شيء.

*****

في بيت السيد فهمي كان الحزن يُخيم عليهم هم الأربعة، السيد فهمي وجمانة وصامد، وأميمة التي عرفت بعد أن وصلت أن السيدة رقية مصابة بسرطان الثدي، كانوا قد أخذوها إلى المستشفى، أجروا لها التحليلات والفحوصات، فأعلمهم الطبيب بأسف أنها مصابة بمرض خبيث، مرض السرطان، لَيتهم اكتشفوا الأمر مبكرا، عَاتب عليهم الطبيب تأخرهم في الإتيان بها، حتى أتى هذا المرض الخبيث على جسد السيدة رقية، وأنه في مراحله المتقدمة، وليتهم جاؤوا بها في بداية مرضها، لكان ذلك أسهل عليهم في استئصاله، لكن وبما أنه الآن قد انتشر في جسدها، فيصعب ذلك، لذا فهي ستبقى في المستشفى تحت العناية المركزة، لعل الله يحدث بعد ذلك أمرا.

في المساء اتصلت أميمة بأمها تخبرها أنها ستبيت ليلتها مع جمانة، وأخبرتها بما حل بأهل السيد فهمي، فأذنت أمها لها بذلك.

في معرض حديثهما وحتى يكون النسيان، نسيان أحزانهم وبأسهم وكآبتهم رفيقا لهما بعض الوقت، أخبرت جمانةُ أميمةَ بما

فعلته هي ووالدها حينما زارا مؤسسة "داوكينز"، وبما اتفقا عليه مع التلميذة براءة.

لم تستحن أميمة الفكرة بداية، عارضتها خوفا من فقدان صامد لعمله، وأن ذلك لا شك سيُفقد كل من يشتغلون في تلك المؤسسة مِهنهم، لكن كانت جمانة على عكس تفكيرها تماما، صارمة في قرارها، فأن يفقد صامد وكل من يشتغلُ في تلك المؤسسة مِهنهم خير من أن يضيع أجيال من التلاميذ، هذا ما أفضت به جمانة لأميمة، أجيال من التلاميذ يا أختي أميمة سيضيعون في أخلاقهم ومعتقداتهم؛ فالتضحية بأخف الضررين خير من الصمت وحصول الضرر الأكبر، حينها تنهدت أميمة وحركت رأسها دليلا على الموافقة والاقتناع، قالت:

ـ إذن الآن نحن نلعب على وطرين، بناء وهدم، وكِلا الوطرين يجتمعان في "نقطة شخص" نعرفها أنا وأنت فقط، وسنسمي الأول خطة البناء، والثاني خطة الهدم، وكما أشركتُك في خطة البناء، ها أنت تشركينني في خطة الهدم.

ضحكت أميمة وجمانة، فعادت أميمة لتقول إن خطة البناء متقدمة جدا، ولم تكن تتصور أنها ستكون بهذا التقدم، كانت تظن أنها ستكون بطيئة، وأن ثمارها لن تذوق منها إلا بعد مرور سنوات، لكن تبين لها أن عملهما المشترك قد عجل بما قالته لجمانة

سابقا، وهو إما أن تُقنعه فيترك طريقه لطريقها، وإما أن يُقنعها فتترك طريقها لطريقه.

سألتها جمانة بلهفة، أن كيف حدث ذلك؟ فأخرجت أميمة شريطا صوتيا، وأخذتْ تُسمعه لجمانة التي اندهشت وانبهرت من هذا التقدم.

*****

(16)

(صامد)

الملحد الحقيقي الوحيد

سمعتُ المسلمين يوما يقولون: "إن الصحبة الصالحة هي التي تعينك على العبادة"، عجبا لهؤلاء كل شيء يربطونه بالدين والعبادة حتى وإن كانت الخُلَّة! لكن ما لا يعرفه هؤلاء أن الرفقة هي رفقة العقول، الحميم هو من يعينك على تطوير عقلك، وشحذ أدلتك لرد خرافة المخرفين، ودجل الدجاجلة وخزعبلاتهم، أن يكون لك صحبة يجمع بينكم العلم والعقل وقراءة نور الكتب، وتتعاونون على تبصير الناس بحقائق الأمور، وتنبهونهم من خداع المخادعين، فتلك هي الصحبة بحق.

هذه الصحبة الحقيقية كنتُ سألتقيها اليوم، كان لنا موعد معها، كنتُ بجانب رامز في السيارة، لبيتُ طلبه بعدما دعاني لأذهب معه لاجتماع سري يقوم به الأصدقاء الملحدون كل ثلاثة أشهر، كان الصمت سيد الموقف حينها، تركت ذاكرتي ترحل بي

في متاهات مختلفة، أول ما تذكرته الصاعقة التي نزلت على قلبي بعدما علمتُ بمرض أمي، غريب أمري، لماذا وافقتُ على الذهاب معه إلى هذا الاجتماع في الوقت الذي تحتاج أمي أن أكون بجانبها، وغريب أمر هذا العالم، لماذا كل هذا الشر فيه؟ ألا يمكن للإنسان أن ينعم فيه بالخير فقط؟ لكن أحس أني مَن تسبب لأمي في زيادة مرضها، فكما صرح الطبيب أن مرضها زاد بشكل مذهل منذ شهرين ونصف، أي منذ تلك اللحظة التي أعلنت في بيتي أني لم أعد مسلما، وأني غيرت أفكاري، أيمكن أن يكون ما سمعته أمي قد أثر على مناعتها، وبالتالي وجد هذا الفيروس الخبيث جسدها ملائما لانتشاره وعربدته، فزرع نفسه بتلك السرعة؟ إذن أنا من تسبب لها في ذلك، بل وأهملتها أيضا منذ ذلك الوقت.

انتقلت ذاكرتي بي إلى أفكار أخرى، كنت شاردا أفكر في السبب الذي جعل رامز يدعوني إلى هذا الاجتماع السري والمهم جدا حسب رأيه، أيكون على علم بمناظراتي مع يوسف، وعلم أني انهزمت في النقاش، فأراد أن يُلقنني من خلال عقلاء الملاحدة الذين سنجدهم هناك طرق المناظرة وسبل الإقناع؟ إذا كان ذلك هدفه، فلن أنسى له صنيعه هذا ما حييت، وسأغفر له سوء تعامله معي، فأنا بحاجة لذلك حتى لا أكون ضعيف الحُجة أمام يوسف، وحتى لا أكون محاميا فاشلا لقضية الإلحاد العادلة، لكن ماذا لو أن رامز يريد أن يَصرفني عن يوسف بهذه الطريقة حتى لا ألتقي به.

انتقل ذهني للتفكير في المناظرة، كيف استطاع يوسف أن ينتصر علي؟ لكن لم أعترف له بصريح العبارة بذلك...

مللتُ من التفكير، أردت أن أقطع هذا الصمت في السيارة وأتحدث مع رامز في موضوع يُقلقني وقد أثاره يوسف رغم أنه لم ينتبه له، لكن خشيتُ أن يسألني عمن جعل رأسي يضج بهذه الفكرة، أهو يوسف، والتقيتَ به رغم تحذيري لك؟ لكن رأيتُ أنه من الأفضل التطرق للموضوع فاستأذنت منه لأسأله، قلت له: إن المسلمين يؤمنون بأمور لا يرونها، أما نحن فطبعا نَبني معتقداتنا على المادة، وما نراه فقط، لكن هناك أشياء لا نراها ونؤمن بها، أيمكن أن نكون مثل المسلمين نحن أيضا، نؤمن بأمور ميتافيزيقية رغم عدم رؤيتنا لها؟

كما كنتُ أتوقع، رأيت احمرارا في وجهه، تحول هذا الاحمرار إلى فورة بركان وهو يسألني من أين لك بهذه الموضوعات السخيفة؟ لم أَصْدُقْه القول، قلت له: إني قرأتُها في كتاب، فجعل يقول كلاما أغضبني، فلو أني لم أكن في سيارته لتركته وذهبت.

تصوروا أنه أراد أن أخضع له حتى فيما يتعلق بالكتب التي يجب أن أقرأها، قال لي ذلك صراحة، أنه يجب أن أقرأ في هذه المرحلة ما يقترحه هو فقط من كتب، كنتُ منزعجا للغاية

بالتضييق الذي أجده منه على حريتي، حتى في قراءة الكتب، حتى في قراءة الكتب يجب أن يختارها هو بنفسه، أي وصاية هذه؟ قلت له وأنا أدفع الغضب.

ـ دعنا من ذلك الآن، أرجو أن تجيبني.

ـ بماذا تريد أن أجيبك، هل يروقك أن وضعتنا نحن والمسلمين المتخلفين في كفة واحدة؟ هم يؤمنون بالخرافات، أما نحن فنؤمن بالعقل، وليس شيئا غير العقل، فإذا آمنا بشيء لا نراه، فلا يعني أن العقل قد رفض وجوده، فإذا أقر العقل بوجود شيء فنحن نؤمن به وإن لم نره.

ـ مثلا هل العقل أقر بوجود بلايين من الأكوان الأخرى، أين هي هذه الأكوان؟ نحن نؤمن بها ولم نرها، لكن كيف يُقر العقل بوجودها؟

ما إن أكملت تساؤلاتي، حتى هب في وجهي كحفيف اللهب.

ـ العلم يُقرها يا صامد، العلم يُقرها، هل أنت من العلماء حتى يُقر عقلك بما لا تراه؟ ما يجب عليك هو التسليم فقط، التسليم بما يصلك من العلماء، التسليم بالحقائق وعدم السؤال عنها.

قلتُ بهدوء وتريث:

ـ ذلك ما يفعله المسلمون، يُسلِّمون بعدة حقائق ولا يسألون عنها، فأين الفرق بيننا وبينهم؟ فنحن ننكر على المسلمين إيمانهم بأمور غيبية غير ملموسة ولا محسوسة، لكن نحن نؤمن بأمور غير محسوسة كذلك، نؤمن بأكوانٍ لم نبصرها، نؤمن ببداية كون من شيء لم نتأكد منه عن طريق التجربة، نُسَلم بوجود العقل ولم نره، وغير ذلك من الموضوعات التي....

قاطعني رامز بعصبية.

ـ صامد، دعنا من هذه الفلسفات، أرى أنك أصبحت فيلسوفا، يا صديقي، الإلحاد ليس هو أن تعيش لَيلك موصولا بنهارك تفكر وتتأمل وتبحث وتسأل، خمد من روعك، عش حياتك هادئا، تمتع بمتع الحياة، هذا هو الأصل، أن تحس بنعيم الطبيعة ومُتعها، من كل وجه، من كل صنف، ومن كل طريق، تمتع بشبابك وبكل المتع، فقد تخلصتَ الآن من الدين الذي كان يقف عائقا أمام حريتك، وأمام مُتعك.

انبتَّ لسانه عن الحركة فانطفأ ضجيجه، فعلتُ مثله، سكتُّ وأنا عازم على البوح بكل ما يخالجني من أفكار لمجموعة الشباب الذين سنجدهم في استقبالنا، كنتُ على يقين أنهم سيجيبونني على تساؤلاتي عكس ما فعل معي رامز، قد يكون رامز ضعيف الحجة، لكن هؤلاء الذين سنلتقي بهم، لا أشك لحظة أنهم أعقل من رامز،

وأكثر دهاء وفطنة، بل لم لا يكون منهم علماء متخصصون في عدة علوم؟

تركتُ السكون يعود مرة أخرى إلى السيارة إلا من صوت عجلاتها التي زادت من حدتها بعد أن زاد رامز في سرعته لها.

*****

كانت الساعة قد تجاوزت العاشرة والنصف ليلا عندما أوقفنا السيارة في مكان قريب من المنزل الذي يتواجد به الأصدقاء، ترجلنا من السيارة وسرنا في طريقنا، كان المنزل معزولا عن بقية منازل وعمارات المدينة، موقعه في أقصى المدينة قرب شاطئ البحر، وصلنا الباب، ضغط رامز على الجرس، وما هي إلا لحظات حتى سمعنا الخطوات تقترب لفتح الباب، فُتح الباب، سمعتُ أصوات ضحكات رجالية ونسائية داخل البيت، صافحني مَن فتح الباب، أَذن لنا بالدخول، ولجنا، وجدنا كل الأصدقاء قد حضروا، كان مجموعهم سبعة شباب وتسع فتيات، صافحت الجميع وجلست، كان المنزل جميلا، يحتوي ثلاث حجرات، ومطبخ وحمام، وصالة كنا جالسين فيها.

من الوهلة الأولى تيقنتُ أن ما كنت أفكر فيه لأبوح به للشباب من أفكار هو مجرد حلم تبخر في الهواء، فقد تبين لي أنه

ليس بإمكان هؤلاء الإجابة عن أسئلتي، وأن هذه الجلسة ليست جلسة علمية، ولا حتى فلسفية، بل هي جلسة متعة، الخمر وبعض المأكولات على الطاولة، الفتيات شبه عاريات إلا من أقمصة ضيقة تُبرز أكثر مما تستر، كن ينظرن لي نظرات جريئة، الفِتيان يلبسون ما يغطي أجسادهم من السرة إلى الركبتين فقط، وبعضهم فقط يلبس أقمصة، حينها عرفتُ سبب دعوة رامز لي إلى هنا، هل سأشكره على ذلك أم لا؟ لا أدري.

كان في كل نصف ساعة يلج شاب وشابة معا إلى إحدى الغرف الثلاث، ثم يخرجون فيدخل غيرهم.

ـ لماذا أنت صامت؟ لم تقل شيئا منذ دخلت.

أخرجني أحدهم من جفلتي، كنت غارقا أفكر فيما كنت أتصوره، وفيما وجدتهم عليه، كنت أحسب أننا "صحبة علمية عقلية"، جسد واحد يعين أحدنا الآخر، إذا خَفيت مسألة ما على أحدنا يوضح له غيره ما خفي عنه منها، لأول مرة أحس أني وحيد، أو ربما الملحد الوحيد، أو ربما الملحد الوحيد الذي ألحد عن اقتناع، أجبته ببرود.

ـ لا تهتم، لا يُشغلك أمري، المهم أني سعيد بوجودي معكم.

ـ اشرب الخمر، ألا يعجبك؟

قالها آخر، فما أن خرجت كلمتين من فمي، "لا أنا..."

لم أكمل جملتي حتى سمعتهم كأنهم تآلبوا علي، "اشرب يا رجل اشرب، النساء ويشربن، وأنت الرجل وترفض"، مد أحدهم كأسا إلى كف يدي، أمسكت به فشربت، ثم أضافوا لي كأسا آخر، ثم ثالثا، فرابعا، حتى لم أعد أتذكر شيئا، ما كنت أتذكره أن أحدهم قال لي، والآن دورك، اختر منهن مَن تعجبك وادخلا إلى إحدى الغرف... ثم لم أتذكر بعدها ماذا فعلت، هل فعلتها، أم رفضت؟!

*****

كنتُ بين اليقظة والنوم عندما فتحتُ عيني، فَرَكْتُهما فاصطدم بصري بالعجوز، نعم ذلك العجوز، ذهلت، ماذا يفعل هنا، سألته باستغراب عن ذلك، فأجاب:

ـ بل أنت ماذا تفعل هنا؟ طريقك ليس من هنا، غير طريقك، كدت تصل من قبل، لكن الآن طفقت تبتعد، فكر جيدا، ما زال في إمكانك العودة ومتابعة الطريق، الوقت لم يمض بعد.

في الصباح، بل قل: في الساعة الرابعة بعد الزوال، استيقظت، فوجدت الكل نائم في حضن إحداهن، ولجتُ الحمام، أخذت حماما ساخنا، وحينها لا أدري لِم كنت أحس بتأنيب ضمير غريب يخزني، بندم أخذ بتلابيب قلبي يهزني، ينهرني، لمَ جئتُ؟ وماذا فعلت؟ ولم أنا هنا؟ لماذا تركتُ أمي وحيدة؟

تركتهم نياما وخرجت من البيت حذرا....

*****

(17)

الشريط الفاضح

أصبح الرأي العام اليوم على فضيحة مدوية، انتشر خبرها في المواقع والصحف الالكترونية ومواقع التواصل الاجتماعي انتشار النار في الهشيم، انتشر مقطع صوتي تجاوزت مدته أكثر من عشرين دقيقة، يتحدث فيه مدير إحدى المؤسسات الخاصة مع أساتذته في اجتماعهم الخاص حول القانون الداخلي السري للمؤسسة، ومما جاء فيه أن نصوص الإسلام مرفوضة في المؤسسة، وأن كل توجه نحو هذا الدين من تلميذ أو أستاذ يجب التبليغ به للمدير، فهذا قانوننا ويجب الالتزام به.

أثار المقطع حفيظة الناس، أصبح ذلك المقطع الصوتي قضية الرأي العام، ينشرونه ويشاركونه مع غيرهم، يعلقون على محتواه، يكتبون من خلاله المقالات والمنشورات، انقسم الرأي العام إلى قسمين: قسم يستنكر ذلك ويطالب بإغلاق تلك المؤسسة لأنها تحارب ثوابت الأمة، فلم يبق لها إلا أن تحارب الملكية، أو أن تُعلن

أن الصحراء غربية. وقسم آخر يرى أن صاحب المؤسسة حر في قوانينه، وأن المؤسسات الأخرى ينبغي أن تسلك مسلكه وتتخلص من التراث الإسلامي المتخلف الذي جعلنا في آخر الركب، أو على الأقل تنقيته وتجفيفه باعتباره منبعا للإرهاب.

أسرعت جمانة من غرفتها إلى أبيها الذي كان جالسا في الصالة وهي تصرخ بملامح مسرورة مبتهجة:

ـ أبي، أبي، هل تعلم، لقد نجحتْ أول خطوة من عملنا، لقد انتشر المقطع الصوتي في وسائل التواصل الاجتماعي بشكل رهيب، نشرته إحدى الصحفيات باسم مستعار، اسمع، ها هو ذا المقطع.

اقتربت بهاتفها من أذن والدها الذي انعقد جبينه وفكهُ السفلي متدلٍّ ببلاهةٍ من أثر الدهشة التي ألجمته عن التعليق وهو ينتظر ما سيسمعه.

"وقبل أن نُنهي الاجتماع لابد أن أذَكِّر مرة أخرى بالقانون السري لمؤسستنا، مؤسسة داوكينز، أولا: ما يهم أن يتلقاه تلامذتنا هو العلم والحرية في الفكر، وأرفض رفضا باتا تلقينهم أي شيء يتعلق بالإسلام، كيفما كان، حتى ولو عن طريق الاستدلال على قضية نقبلها، فالإسلام ونصوصه مرفوضة عندي في المؤسسة، ثانيا: كل من ثَبت في حقه أنه ينشر شيئا عن خرافة الإسلام، أستاذا كان أو تلميذا فأرجو التبليغ عنه، أما ما يخص تلك التلميذة

المحجبة، فسوف نتركها تكمل سنتها الدراسية هنا تفضلا منا فقط، وسأبلغ والدها أني لن أقبلها السنة المقبلة، فأَخْوَف ما أخافه هو أن تتأثر بها التلميذات الأخريات، وتتشكل عندنا هنا خلية إرهابية طالبانية. فمن أرادت الحجاب أو الصلاة فمؤسسات الدولة أو الخواص موجودة بكثرة. والأمر الثالث، أرجو أن تحاولوا نشر التنوير والإلحاد بين التلاميذ، هذا أمر غير ملزم، لكن لا أحسب أن الأساتذة العلمانيين أو اليساريين معنا هنا سيشكل لهم هذا الأمر أدنى حرج، ما رأيكم فيما قلته أيها السادة الأساتذة، السيد رضوان، هل من تعليق؟ الأستاذة نرمين، السيد إسماعيل، مدموزيل ميساء، السيد خالد، السيد صامد، الآنسة رانيا، آنسة مجدولين...

ـ نحن متفقون في كل ما ذكرت أستاذ رامز، نم على جنبك الأيمن فهمك همنا، وخرافة الإسلام لا مجال لها في مؤسستنا المتنورة".

ـ هذا عمل رائع، لم أكن أتصور أننا سننجح فيه بهذه السهولة، لكن هؤلاء لا قلب لهم، المسكينة براءة يصفونها بالإرهابية ويمقتونها.

قالها السيد فهمي، وفي الأثناء نفسها كان صفوان عند شاطئ البحر يتجول في صفحته الفايسبوكية، وإذا به يتفاجأ بمقطع صوتي انتشر في وسائل التواصل الاجتماعي، ولمّا سمعه تأكد أنه يخص المؤسسة التي يشتغل فيها صديقه صامد.

ـ يا إلهي، مؤسسة "داوكينز" التي يشتغل فيها صامد، كارثة أخرى ستحل بصديقي، سيفقد عمله هو وزملاؤه، لا شك في ذلك.

تحدث بها صفوان مع نفسه متحسرا.

في غرفة أميمة كانت هي الأخرى لا تقل دهشتها وفرحتها عن صديقتها جمانة، اتصلت بها تخبرها الخبر، فوجدت أن الأولى سبقتها في تلقي الخبر.

ـ نُشر باسم صحفية مجهولة الاسم، وضعتْ لها اسما مستعارا وأرفقتْه بتعليق ناري، يا سلام.

قالتها أميمة فأجابتها جمانة عبر الاتصال الهاتفي.

ـ نعم قرأت التعليق والخبر، نحن نسير في الطريق الصحيح، هذه مجرد خطوة أولى وسنُتبعها بخطوات أخرى إن شاء الله.

كان صامد هو الآخر قد سمع المقطع الصوتي، لكنه كان غارقا في الدهشة، كان يتساءل مع نفسه، من قام بتسجيل المقطع الصوتي؟ كل الأساتذة الذين كانوا يتواجدون في الاجتماع لهم الفكر نفسه، ومتفقون على الرأي نفسه، فمَن مِن مصلحته أن يقوم بتسجيل الاجتماع؟ هل المُحَجبة هي من فعلت ذلك؟ لا أشك فيها، رامز يثق فيها كثيرا، هذا أمر ينذر بالكارثة، من يكون يا ترى؟ بعض أساتذة الشيعة وبعض المحايدين كانوا قد انسحبوا من

الاجتماع، فلم يتبق في القاعة إلا من يثق فيهم رامز، إذن من صاحب الفعلة؟

ـ لا حول ولا قوة إلا بالله العظيم، لماذا كل هذا العداء للإسلام، ما الذي يكرهونه في هذا الدين العظيم.

كان يوسف يرددها في مكتبته بينه وبين نفسه، يستغرب كيف أن مؤسسة بأكملها لم يجتمع فيها من الأساتذة إلا الملحدون؟ وقد كان يعرف أن هذه المؤسسة هي المؤسسة التي يدرس فيها صامد.

ـ أي شيء يُخطط له هؤلاء الكفرة، أسأل الله أن يُدمركم.

كان حسن في أشد حالاته غضبا، يستمع للمقطع الصوتي، يدعو على أولئك المجتمعين بالويل والثبور.

كانت التلميذة براءة تستمع إلى المقطع الصوتي وهي تبتسم مما ورد في التسجيل الصوتي، تبتسم رُبع ابتسامة من حقد المدير عليها، وقد طارت ذاكرتها إلى اليوم الذي نفذت فيه الخطة، عَلمت أن الأساتذة سيقومون باجتماعهم العادي في ذلك اليوم، حَصَلَت على مفتاح قاعة الأساتذة التي تُقام فيها الاجتماعات، سبقتهم إليها، وضعت مسجل صوتي صغير خلف السبورة النقابية في قاعة الأساتذة، قامت بتشغيله، بعد انتهائهم من الاجتماع ومغادرة جميع الأساتذة القاعة، وكانت القاعة قد تم إغلاقها مرة أخرى، أخذت المفتاح، عادت إليها ثم حملت مسجلها الصوتي، أخبرت براءة

والدها قبل ذلك بما حصل معها أثناء لقائها بجمانة والسيد فهمي، والخطة التي طلبا منها تنفيذها، طلب منها والدها التعرف على السيد فهمي قَبل قيامها بأي شيء، بعد لقائه بالسيد فهمي أذن لها بذلك.

كان رامز يستشيط غضبا في مكتبه، من قام بتسجيل الشريط، من يكون؟ لم يتواجد حينها في القاعة إلا من أثق فيهم، إذن من فعلها؟ أخذ رامز يُقلب وجوه الأساتذة في ذاكرته واحدا تلو الآخر، يمرر وجوههم أمام بصره كصور متحركة، كلما استحضر وجها لم يَرْتب فيه، مرت أمام عينيه إحدى الأستاذات، أزاح وجهها عن عينيه بسرعة، قد يكون فعل ذلك لشدة ثقته فيها أو لشدة بغضه لشكلها، مرر صور الوجوه مرة أخرى، استوقفته صورة صامد، أوقف وجهه أمام عينيه مباشرة، هنا دخله الشك، انتقل من الشك إلى الريب، بل انتقل من الريب إلى اليقين، اليقين في أن ليس هناك من يستطيع فعل ما فُعل إلا صامد، خصوصا بعدما علم أنه يلتقي بالمدعو يوسف، كما أنه تركهم في لقائه مع الملحدين وانصرف دون أن يخبرهم، إذن لا شك أن ذلك الإخوانجي هو من أثر فيه، ولربما انقلب صامد عائدا إلى إسلامه، لكن يخفي ذلك عنا، هكذا كان يحدثُ نفسه، إذن أُقسِم بالطبيعة لأجعلن الانتقام نصب عيني، حدَّث بها رامز نفسه وهو يقبض قبضة يده اليمنى ويضرب بها

مكتبه، اشتعل غضبا، الدم يكاد ينفجر في وجهه، رأسه جمرة من نار.

لم يهدأ المغردون ونشطاء مواقع التواصل الاجتماعي عن الحديث عن تلك الفضيحة، ولم تمر تلك الأيام بسلام، فقد كان ما بعدها.

*****

(18)

القوانين أو الكون أوجد نفسه بنفسه

حانت جولة جديدة للمناظرة، دخل صامد وصفوان إلى مكتبة يوسف، أخذ كل واحد منهم مكانه لاستكمال المناظرة، كان صفوان أول من بدأ الحديث، يُذكرهما بخلاصة الجولة الأولى التي ذكر فيها صامد أن الكون وُجد عن طريق الصدفة، لكن بما أن يوسف دحض تلك النقطة، استدرك صامد وقال بالأكوان المتعددة، فانتهت الجولة الأولى بأن رد يوسف على النقطة الثانية أيضا، والآن يستشير صفوان صامد، يسأله هل يمكنه أن يأتي بنظرية أخرى لعله يُقنع بها يوسف، أم يحوِّل أنظاره اتجاه يوسف ليرى ما يقوله في سبب نشأة الكون؟

استوقف صامد صفوان، يريد أن يناقش مع يوسف نقطة أخرى، ليرى ماذا يقول فيها، أزاح صامد وجهه عن صفوان، التفت إلى يوسف يخاطبه:

ـ اقرأ يا يوسف ما يقوله الفيزيائي ستيفن هوكينك في كتابه "التصميم العظيم"، في الصفحة 165، يقول إن الكون أوجد نفسه بنفسه عن طريق القوانين، اسمع: "تماما مثلما فسر داروين ووالاس كيف أن التصاميم المعجزة المظهر في الكائنات الحية من الممكن أن تظهر بدون تدخل قوة عظمى، فمبدأ الأكوان المتعددة من الممكن أن يفسر دقة القوانين الفيزيائية بدون الحاجة لوجود خالق سخر لنا الكون، فبسبب قانون الجاذبية فالكون يستطيع ويمكنه أن يُنشئ نفسه بنفسه من اللاشيء، ويفسر لنا لماذا الكون موجود ولماذا نحن هنا؟"، أسَمِعتْ، قانون الجاذبية لوحده يكفي لوجود الكون؟ ما قولك في ذلك؟

تنحنح يوسف، أخذ يُرتب أفكاره في رأسه، دام ذلك برهة من الزمن ثم قال:

ـ أنت تقول إن الكون أوجد نفسه بنفسه، جيد، ما رأيك لو قلتُ لك إنك أنت أوجدتَ نفسك بنفسك، يعني لم تكن موجودا، فأوجدت نفسك دون أن تكون أصلا، كنتَ في العدم، أي لم تكن شيئا، لكنك ظهرت فجأة، ولمَّا سألناك كيف ظهرتَ؟ قلتَ خَلقتُ نفسي، ولما سألناك، كيف خلقت نفسك وأنت أصلا لم تكن موجودا؟ طلبت منا أن نتقبل الفكرة دون سؤال! هذا ما تريده منا أن نفهمه يا صامد، تريد أن تُبلد عقولنا، أليس كذلك؟

هذا يشبه تماما أن تُحضر سيارة مفككة إلى أصغر مسمار، وأجزاؤها كلها أمامك، ثم تسأل، كم هي الاحتمالية الرياضية لتتشكل هذه السيارة؟ بالطبع الإجابة وعلى استحالة وقوعها رياضيا هي 1 إلى 10 أس100 أو 70 أو حتى 50، ومع استحالتها فإن الفرضية أصلا خطأ؛ لأن الأجزاء لن تتحرك من ذاتها وتتراكب ويدخل بعضها في بعض إلا بفاعل...

قاطع صامد يوسف قبل أن يكمل كلامه وهو يقول:

ـ لقد قلتُ لك من هو هذا الفاعل، إنه قانون الجاذبية، هي التي باستطاعتها تشكيل هذه السيارة، بل باستطاعتها إيجاد الكون كله، وذلك عن طريق الجسيمات الأولية أو ما يسمى بالأوتار التي يبحث عنها العلماء في مختبر سيرن.

ـ حسنا، من أوجد قانون الجاذبية؟ هذا القانون هو أصلا يحتاج من يوجده، ثم إن الجاذبية لها علاقة بالكون، وهي جزء من الكون وأثرها يظهر على الكون في المكان والزمان، فكيف لمكان وزمان غير موجودين أن يظهر أثر الجاذبية في غيابهما؟

ثم إن هذا الكلام الذي قلتَه عن الأوتار، سَخِر منه الفيزيائي الشهير "راسل ستانارد" إذ قال في مقال له في الجارديان: "نظرية الأوتار تحتاج لمصادم هدروني بحجم مجرة لاختبارها وهذا غير ممكن... حسنا لو قلنا طبقا لنظرية M إن الكون خلق نفسه، فمن

أوجد نظرية M؟ ومن أوجد القوانين الفزيائية الخاصة بها؟ ... ورغم ذلك فلا توجد لها معادلة فيزيائية حتى الآن، اطلب منهم أن يكتبوا معادلة فيزيائية، لن يفعلوا؛ لأنهم لا يمتلكونها ببساطة"، هذا كلامه.

ثم أنت مرة أخرى تُعيدنا يا صامد إلى فرضية الصدفة، هل تستطيع الجاذبية أن تُحرك شيئا من تلقاء نفسها، أترى تلك الكرة الصغيرة في زاوية المكتبة؟ ماذا لو رأيتَها الآن تتحرك لوحدها دون أن يُحركها أحد؟ هل ستكون إجابتك أن الجاذبية هي من حركتها أم أنك ستَفر هاربا خوفا من أن تكون الأشباح هي من حركتها؟ هذا إذا كنت تؤمن بها أيضا.

ضحك صفوان، ثم أتمم يوسف وهو يَحك جبهته بأصابع يمينه.

ـ كرة القدم لا تستطيع أن تتحرك من مكانها إلا إذا قذفها اللاعب بقدمه، فهنا قانون الجاذبية ليس شيئا مستقلا، وإنما هو وصف لحدث طبيعي، فليس هو الذي أوجد كرة القدم، بل لم يحركها من تلقاء نفسه، بل احتاج هذا القانون لمن يضربها ليقوم بعمله، والخلاصة أن قوانين الفيزياء نَصِفُ بها أثرَها على الواقع لكن لا قدرة لها لتكون سببا في وجود هذا الواقع.

تنهد يوسف بعدما أنهى كلامه، كان يراقب شفتي صامد الذي بدا عليه أنه مستعد ليقول شيئا بتحفز:

ـ بالطبع نحن لا نعرف كل شيء، ولا نعرف ماذا حدث، لكن أجد من الحماقة أن نقول بما أننا لا نعرف ما حدث، إذن بناء على ذلك يوجد إله، والإله هو من خلق الكون.

فكر يوسف في كلام صامد، ثم قال مبتسما شبه ابتسامة:

ـ أنا إلى حد الآن لم أقل لك إن الإله هو من أوجد الكون، نحن الآن نناقش الفرضيات التي افترضتها، وكما ترى، فعقلا لا يصح البرهنة بها، عقلا هي مرفوضة، ولو قبلها العقل ولو بنسبة ضئيلة لفكرنا في إمكانية كونها مقبولة، لذلك كل عقلاء العالم يرفضونها، فهذا البروفيسور بول ديفيز الفيزيائي الإنجليزي يقول في الجارديان منتقدا هوكنج بشدة، "تبقى القوانين المطروحة غير قابلة للتفسير، هل تقبلها هكذا كمعطى خالد؟ فلماذا لا نقبل الله؟ حسنا وأين كانت القوانين وقت الانفجار العظيم؟ إننا في هذه النقطة نكون في المياه الموحلة"، وانتقده كذلك بروفيسور الرياضيات جون لينوكس إذ يقول: "إن قوانين الفيزياء لا يمكن أن تخلق شيئا فهي مجرد وصف رياضي للظواهر الطبيعية، فقوانين نيوتين للحركة لن تدفع كرة البلياردو على طاولة بدون لاعب يضربها، فالقوانين لن تحرك الكرة فضلا عن خلقها، إن ما يقوله هو خيال علمي بحت، من أين جاءت الخطة الكونية التي تَحدث عنها هوكنج؟ إنها ليست من الكون، فمن جعلها تعمل إن لم يكن الله؟".

ظهر التعب على يوسف وصامد، سكت يوسف وكأن لسان حاله يقول إنهما لن يصلا إلى أي توافق، نظر إلى صامد ينتظر تعقيبه، ولَمَّا لم يُعقب، خاطبه صفوان يسأله أن يضيف ما يمكنه إضافته، تدخل يوسف مؤجلا المناظرة إلى ما بعد صلاة العصر.

ـ يمكنك المكوث هنا يا صامد، وأنت يا صفوان هل ستذهب معي إلى المسجد أم ستبقى هنا؟

اضطرب صفوان، لم يجد جوابا، خاض معركة داخلية وهو يفكر في الجواب، فلما رأى يوسف تردده، لم يهتم بإجابته، تركه وانصرف للصلاة.

*****

الانفجار العظيم

بعد عودة يوسف من الصلاة، كان صامد مستغرقا في تأملِ كُتب وقراءة فقرات منها، اعتدل يوسف في جلسته، وكذلك فعل صامد، أخذ صفوان زمام المناظرة كعادته، كان طرف الكلام عند صامد قبل الصلاة، فسح له صفوان المجال للحديث، قال صامد وهو يضغط أزرارا من هاتفه:

ـ حسنا، سأقرأ عليك هذه المرة من موقع ويكيبيديا، أرجو أن تركز معي جيدا، سأتحدث عن نظرية الانفجار العظيم، يقول الموقع: "الانفجار العظيم أو Big Bang بالإنجليزية في علم الكون الفيزيائي هو النظرية السائدة حول نشأة الكون، تعتمد فكرة النظرية أن الكون كان في الماضي في حالة حارة شديدة الكثافة، فتمدد، وأن الكون كان يوما جزءا واحدا عند نشأته، بعض التقديرات الحديثة تُقدر حدوث تلك اللحظة قبل 13.8 مليار سنة والذي يُعتبر عمر الكون، وبعد التمدد الأول، بَرَدَ الكون بما يكفي لتكوين جُسيمات دون ذرية كالبروتونات والنيترونات والالكترونات، ورغم تكون نويات ذرية بسيطة خلال الثلاث دقائق التالية للانفجار

العظيم، إلا أن الأمر احتاج آلاف السنين قبل تَكوُّن ذرات متعادلة كهربيا، معظم الذرات التي نتجت عن الانفجار العظيم كانت من الهيدروجين والهيليوم مع القليل من الليثيوم، ثم التأمت سحب عملاقة من تلك العناصر الأولية بالجاذبية لتُكَوِّن النجوم والمجرات، وتَشكلت عناصر أثقل من خلال تفاعلات الانصهار النجمي أو أثناء تخليق العناصر في المستعرات العظمى... ونظرا لكون المسافة بين المجرات تزداد يوما بعد يوم، فبالتالي كانت المجرات في الماضي أقرب إلى بعضها البعض... لكن حالة الكون في اللحظات الأولى للانفجار العظيم كانت مبهمة وغير مفهومة، ولا تزال مجالا للبحث، كما لا تقدم نظرية الانفجار العظيم أي شرح للحالة الأولى قبل الانفجار العظيم، بل تحاول تفسير نشأة وتطور الكون منذ تلك اللحظة الأولى بعد الانفجار العظيم، إذ بالانفجار يبدأ الزمان والمكان، ولا ترى الفيزياء زمنا قبل الانفجار العظيم، فقد بدأ به الزمن من وجهة الفيزيائيين".

وضع صامد هاتفه على الطاولة، نظر إلى يوسف باعتزاز وافتخار، سكت ينتظر تعقيبه على هذه النظرية، وكأنه يقول، إذا رفضتَ الصدفة والأكوان المتعددة والقوانين أو أن الكون أوجد نفسه بنفسه، فكيف ترفض نظرية الانفجار العظيم؟ لكن زَهو صامد انقلب إلى دهشة عندما سمع من يوسف أنه يوافقه على النظرية، ويؤكد له أنه ولأول مرة سيتفق معه حول سبب نشأة الكون، والذي

يعود لنظرية الانفجار العظيم، ذهل صفوان كذلك، لم يفهما شيئا، كيف أن يوسف يرد سبب نشأة الكون للانفجار العظيم، تركهما يوسف في حيرة وهو يُتْمم.

ـ وأضيف إلى ما قلتَه أنه تم الوصول إلى نظرية الانفجار العظيم عن طريق التمدد الكوني، وترجع بدايات فكرة تمدد الكون إلى العالم الفيزيائي الألماني جوستاف كيرشوف الذي تحقق من أن أية جسم مادي، ومنها النجوم سيصدر منه ضوء أو إشعاع عند تسخينه تماما مثلما يتوهج الفحم بالتسخين، وسبب صدور ذلك الضوء هو الحركة الحرارية للذرات التي توجد داخل هذه الأجسام.

وقد قدم العالم البلجيكي جورج لومتر الفرضية التي أصبحت لاحقا نظرية الانفجار العظيم سنة 1927، ومع مرور الوقت انطلق العلماء من فكرته الأولى حول تمدد الكون لتتبع أصل الكون، ففي الربع الأول من القرن العشرين، بدأ العلماء في رصد النجوم خارج مجرتنا (درب التبانة) فاكتشفوا شيئا غريبا، وجدوا أن النجوم تتحرك بعيدا عنا في إزاحة سُميت بظاهرة الإزاحة الحمراء، والمفاجأة الكبرى التي نشرها إدوين هابل عام 1929 هي أنه حتى مقدار الإزاحة لم يكن عشوائيا، وإنما كان يتناسب مع بعد المجرة عنا، فكلما زاد بعد المجرة عنا كان تباعدها أسرع، وذلك ببساطة يعني أنه يستحيل أن يكون العالم ساكنا أو لا يتغير حجمه كما كان

يُعتقد، لكنه يتمدد ويتسع بالفعل، وتتزايد المسافات بين المجرات مع مرور الزمن، وأن كل الأجرام تتحرك متباعدة عن بعضها البعض، فتمدد الكون لا يتباطأ بل في تسارع دائم، وهذا التوسع الكوني يعني أننا بالعودة للخلف سنصل إلى نقطة البداية التي منها تكَوَّن الكون، وهو الانفجار العظيم الذي حدث في نقطة تسمى بالمفردة.

كان يوسف يتحدث وكأنه عالم فيزيائي يشرح ظاهرة حدثت منذ قليل فقط، شعر صامد بالابتهاج، أخيرا اتفقا على سبب نشأة الكون، فالآن هم متعادلون، لا غالب ولا مغلوب، أخيرا وصلا إلى سبب وجود الكون وهو الانفجار العظيم، وأخير انتهيا من هذه النقطة، كان ذلك ما يتلفظ به صامد، لكن يوسف شتت ابتسامة صامد التي كانت مرسومة بعناية على ملامحه وبدد بهجته وأجهضها قبل أن تكتمل وهو يقول مبتسما:

ـ أما متفقون فنعم، أما متعادلون فلا، لسبب بسيط وهو أني أتفوقُ عليك بشيء واحد، وهو أن هذه النظريات التي نتحدث عنها قد ذُكرت في القرآن الكريم، فأنا أختص بذكر هذه الآيات عنك، ففي شأن تمدد الكون يقول الله سبحانه وتعالى في سورة الذاريات: ﴿وَالسَّمَاء بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾، أي إن السماء التي هي جزء من هذا الكون في تمدد وتوسع دائم، أما عن الانفجار العظيم، فيقول الله سبحانه عنه في الآية 30 من سورة الأنبياء: ﴿أَوَلَمْ يَرَ

الّذِينَ كَفَرُواَ أَنّ السّمَاوَاتِ وَالأرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَآءِ كُلّ شَىْءٍ حَيّ أَفَلا يُؤْمِنُون﴾، ما يعني أن السماوات والأرض كانتا مادة واحدة ملتصقة لا فاصل بينهما، ففصلهما الله سبحانه، وذلك بحدوث ذلك الانفجار العظيم.

أما قولك انتهينا من هذه النقطة، فللأسف لم ننته منها بعد، فعندي بعض الأسئلة أرجو أن تجيبني عنها بدقة، هي ثلاثة أسئلة:

أولا: تلك المادة التي انفجرت، من أين جاءتنا؟ مَن أوجدها؟

ثانيا: لماذا اختارتْ تلك المادة أن تنفجر في ذلك الوقت بالتحديد؟ لماذا لم تنفجر قبل ذلك الوقت، بملايين السنين مثلا، أو بعد ذلك الوقت بآلاف أو ملايين السنين مثلا؟ لماذا في ذلك الوقت بالضبط؟ وهي بالمناسبة مادة غير غائية، أي لا تتميز بالغاية والإرادة، فكيف تفعل شيئا دون أن يكون لها إرادة؟

ثالثا: تلك المادة لم تكن حية، طبعا باتفاق العلماء هي مادة غير حية، لا حياة فيها، فكيف لمادة غير حية، لا حياة فيها أن تُعطي لنا الحياة؟ فالكون بعد الانفجار العظيم أصبحت فيه حياة، فكيف لمادة عمياء غير حية أن تعطي الحياة؟

اختر أحد هذه الأسئلة وأجب عنها.

شعر صامد بالغضب بعدما أدرك بداية أن الأمر قد انتهى وتم الحسم فيه، ليجد نفسه الآن في زوبعة ودوامة جديدة.

ـ أنت تعاند فقط يا يوسف، لا تريد إنهاء النقاش، ربما وجدتَ فيه متعة، أو أنك تُحس بالوحدة في هذه المكتبة فأردت أن نكون مؤنسين لك، لذلك تحاول طرح أسئلة على عواهنها فقط.

تحرك يوسف إلى زاوية من المكتبة، ويظهر أنه قام بشيء ما، ثم عاد وجلس وأجاب صامد قائلا:

ـ لا، ليس صحيحا، يمكننا النقاش في أي مكان تريد، ويمكنني إغلاق المكتبة، لكن استخدم عقلك يا صديقي، فكر جيدا، ألسنا نبحث عن الحقيقة؟ لا تتهرب منها، فكر بعقلك وأجب.

أحس صامد بعدم الارتياح، ظهر الامتعاض على ملامحه، والغيظ في عينيه، قال ووجهه مكفهر:

ـ أرجوك يا يوسف لا تعاند، قلتُ لك إن نظرية الانفجار العظيم تفيد أن الكون نشأ لوحده، فينفي ذلك حاجة الكون لمن يوجده، وكما قلتُ من قبل إن حالة الكون في اللحظات الأولى للانفجار العظيم كانت مبهمة وغير مفهومة، ولا تزال مجالا للبحث، والعلماء يحاولون تفسير نشأة وتطور الكون منذ تلك اللحظة الأولى، فبالانفجار يبدأ الزمان والمكان، ولا ترى الفيزياء زمنا قبل الانفجار العظيم، لذا من العبث السؤال في أمور لم تكن قبل الزمن والمكان، لكن ومع ذلك فالعلم ومع تقدمه وتطوره قد يُعطي لنا في المستقبل أجوبة على أسئلتك.

وما أن انتهى صامد من حديثه حتى سمعوا دوي انفجارٍ مربك لكرة بلاستيكية أو ما شابه ذلك، تشتتت شظاياها في كل مكان، انتفض صفوان وصامد من مكانيهما رعبا، خاطبهما يوسف مهدئا من روعهما:

ـ لا تخافا، مجرد كرةٍ انفجرت لوحدها... دون تدخل أحد ليكون سببا في ذلك... ماذا...؟ لم تصدقا ذلك؟ ألا تؤمن بذلك يا صامد؟ تؤمن بأن الكون الضخم وُجد عن طريق انفجار مبهم، ولا تؤمن بأن كرة انفجرت دون سبب. إذن؛ إذا سلمنا بأن هناك أحداثا تحدث دون سبب، دون تدخل قانون السببية، رغم أن لكل سبب مسببا، فلا تسأل عمن فجر الكرة؟

فهم صامد مغزى ما يريد يوسف أن يوصله له، قال محاولا الظهور بمظهر هادئ:

ـ أنا لا أقول إنه ليس هناك سبب، بل قلتُ إن العلم سيتوصل يوما ما إلى سبب ذلك، ربما تفاعلات لمواد كيماوية أنشأها الكون، ربما...

قاطع يوسف حديث صامد، كان يفكر في شيء ما عندما بدأ صامد حديثه.

ـ هل تعلم يا صامد أن العلم نفسَه قد رفع يديه عند هذه النقطة، واعترَف أن مجاله يتوقف عند الانفجار العظيم، ولا يمكنه إدراك

ما وقع قبل ذلك بتاتا، لا يمكنه رصد ما حدث إطلاقا، فالعلم يُخرج من اختصاصاته مسؤولية إجابته عن هذه الأسئلة التي طرحتُها عليك، ويقول لنا ابحثوا عن أجوبة تلك الأسئلة في مجال الدين أو الفلسفة، يعني أن العلم لن يصل مطلقا إلى الإجابة عن هذه الأسئلة ولو بقيت الحياة ملايين السنين؛ لأن العلم يتعامل مع المادة، لكن قبل المادة كان العدم، فالعلم لا يتعامل مع العدم، وحتى هذه التفاعلات الكيماوية التي تتحدث عنها، يجب أن تخبرني من أين جاءت؟ ومن قام بتفعيلها؟ ومن وضع قانون التفاعلات الكيماوية؟

صامد كأنه أدرك أن يوسف يريد ربط الكون بأن الإله هو من أنشأه، لم يستسغ هذا الربط المفترض، لذلك حثه على محاولة التفكير بمنطق آخر، فهناك بعض الأمور التي لا تستطيع العقول استيعابها، فهذا الخالق واحد من الأمور التي لا يستوعبها عقل صامد، ومهما حاول يوسف، فصامد لا يستطيع استيعابه، لذلك لا مجال للقول إن الإله هو من خلق الكون، هذا ما كان يوضحه صامد ليسوف لعله يفهمه، لكن ما فهمه صامد ليس هو ما يريد أن يصل إليه يوسف.

ـ أنا لم أتحدث عن الخالق، أنا أطرح تساؤلات فقط تتعلق بالانفجار العظيم، فإذا كان هذا الانفجار ليس كالانفجارات التي نعهدها بحيث تتشتت الأجزاء، وتتبعثر في مختلف الاتجاهات كما حدث للكرة قبل قليل، إنما العجيب أنه انفجار ذو دقة عالية، حتى

قال العلماء إنه لو اختلفت نسبة التمدد التي أعقبت الانفجار بحيث زادت بنسبة جزء من مليون مليار أي (0.000000000000000001)، لتَبعثرت أجزاء الكون، ولما سمح له بالوجود، ولو قلَّت نسبة التمدد بالمقدار نفسه لانهار الكون على نفسه وما تكون، فنجد هناك توازنا دقيقا للغاية بين كثافة الكون وبين سرعة تمدده، وهذا ما توصلتْ إليه نتائج علماء أمثال آلان جوث، وبول ديفيز.

إذن بالله عليك، ألا يجد عقلك أن هناك أسئلة مُلحة، تثيرها نفسك عندما تسمع بهذه الدقة في الكون عند الانفجار العظيم؟ هل يمكن لمجرد انفجار أن يضبط هذه المعادلات بهذه الدقة لوحده؟

صدح صامد منزعجا، وهو يضغط على أسنانه.

ـ كما قلتُ لك سابقا، نحن لا نعرف ما الذي وُجد قبل الانفجار العظيم، كلها فرضيات مؤقتة، وما زال العلم يبحث.

قابل يوسف صراخه بهدوء مصطنع، وهو يريد أن يعرف مِن أين جاءت الكتلة الأولى الهائلة التي انفجرت، فالانفجار وقع من مادة، والمادة لابد أن يكون لها مُوجد، وأنه قبل المادة كان العدم، يعني لا شيء، فالكتلة الأولى الهائلة التي انفجرت من أين جاءت؟ لا يمكن أن تكون جاءت لوحدها؛ لأن العدم يساوي العدم ولا يعطي شيئا، فالعلم يبحث في الموجود لا في العدم، العلم يعتمد

على الاستقراء، فإذا أراد العلم البحث في اللاشيء فإنه سيتوصل إلى اللاشيء؛ لأن العلم يعتمد على أمور مادية تنطلق منه تجاربه، لذلك كرر يوسف على مسامع صامد أن العلم ينتهي دوره عند المادة، أما قبل المادة، فلا يستطيع العلم إدراك شيء، كان ذلك ما يقوله يوسف قبل أن يقاطعه صامد وهو يقول:

ـ من قال إن العدم يساوي العدم، هذا خطأ، اسمع ماذا يقول العالم Brand lemley يقول: "قد يبدو للإنسان العادي أن لا شيء يُمكن أن يحدث من لا شيء، لكن لِعالم في ميكانيك الكم، فلا شيء يعني في الحقيقة شيئا".

جحظت عينا يوسف وهو يسمع هذا الاستدلال باستغراب، تلفظ يقول محاولا كتم ضحكته، ومسفِّها هذا الاستدلال.

ـ استخدم عقلك يا صامد قبل أن تنقل كلام شخص ما، وإذا كان ما يقوله صحيحا فليعطنا مثالا على أن العدم + العدم = 1، ماذا يعني بكلامه أن لا شيء يعني في الحقيقة شيئا؟ ما هذا الاستغباء؟ فالعدم هو العدم ولا شيء غير العدم، وقانون السببية سيتم تعطيله بهذا الكلام.

أحس صامد أن يوسف ينتقص منه، وهذا مخالف لأحد قوانين المناظرة التي وضعوها، قاطعه ليقول:

ـ لماذا تصر على تحريف النقاش يا يوسف، نحن اتفقنا أن الكون نشأ عن الانفجار العظيم، إذن معرفتنا بالقانون الذي أوجد الكون يُغني عن وجود المُقتن.

ـ لكن من وضع هذا القانون، هل القانون وضع نفسه؟ فالدول لها قوانينها ودساتيرها، فلا يمكن أن نتصور أن هذه الدساتير وُجدت بالصدفة، ثم لا يمكننا الالتزام بدستور لا نعرف من وضعه، هل وضعه أبله أم راشد؟ كما أن هذا القانون الذي نتحدث عنه لا يُرى، وإذا أردنا أن نرى أثره، فذلك يكون في الزمان والمكان، ويسري في مادة معينة التي هي الكون، أي إن القانون لم يُنتج المادة، بل العكس، المادة رافقها القانون، ولولا المادة ما كان هناك قانون، فقانون الانفجار العظيم هناك من أحدثه، فلكل سبب مسبب، إذن، مَن أحدث هذا الانفجار؟ وقبل حدوثه من أوجد المادة؟ وكيف خرجت الحياة من مادة غير حية؟ من أعطى الحياة للمادة غير الحية؟

ـ لا إجابة لدي على أسئلتك.

صاح بها صامد بانزعاج، وهو يحرك يديه في كلا الاتجاهين، وكأنه يضع نهاية للمناظرة.

ـ انتظرا، انتظرا، لم نحسم الأمر بعد.

نطق بذلك صفوان ثم أردف.

ـ أنتَ قلت ما لديك يا صامد، والآن حان دور يوسف لنرى ما في جعبته، يُمكنك أن تسأله يا صامد لو أردت ذلك.

عاد لصامد بعض هدوئه، تنهد ثم قال:

ـ رفضتَ كل النظريات التي عرضتُها عليك، فهل تريد أن تقول لي إن الإله هو الذي أوجد الكون؟ قلها إن شئت، ماذا تنتظر؟

قال يوسف مبتسما:

ـ أنا لن أقولها، لن أقول إن الإله هو الذي أوجد الكون، لكن سأثبت لك أن هناك قوة هي التي أوجدت الكون، ستكون جولة شيقة جدا.

تلفظ صفوان منهيا هذه الجولة من المناظرة، يطلب من الطرفان تأجيل المناظرة إلى جولة أخرى، وكعادته خرج عن حياده واعترف ليوسف أنه أبهره، تجرأ وسأل صامد عن رأيه في هذه الجولة، تفوه صامد بصوت خافت دون أن يجيبه.

ـ هو كما قلتَ نؤجل المناظرة ليوم آخر، يمكن أن نتفق عليه الآن.

حرك يوسف رأسه موافقا، لكن عقله كان يُفكر في أمر يقلقه، كيف يمكن أن تكون نهاية هذه المناظرة، وكل طرف متمسك بأفكاره؟

*****

(19)

فشل الخطة

وصلت سيارة الشرطة إلى مؤسسة داوكينز، خرج منها ثلاثة عناصر بزي مدني، اقتحموا إدارة المؤسسة، مضى مكوثهم مع مديرها رامز ساعة من الزمن، وهم كذلك وإذا بهم قد خرجوا من باب الإدارة ومعهم رامز، أدخلوه السيارة وانطلقت به حتى اختفت في الشارع، حدث هذا في اليوم التالي من انتشار الشريط الصوتي، لكن بعد ذلك اليوم، رجعت الأمور إلى طبيعتها، أصبح رامز لا يلتقي بأساتذة مؤسسته كثيرا، لكن الأساتذة لم يغيروا من جرأتهم في نشر أفكارهم الإلحادية بين التلاميذ، بل أحسستُ بهم يتفاخرون بذلك.

كان هذا كلام براءة تُحدث به جمانة وأميمة والسيد فهمي في منزله، تُحدثهم عما رأته في المؤسسة بعد انتشار الشريط الصوتي، عقب السيد فهمي متأسفا لفشل خطتهم، ربما يحظى رامز بقوة تدعمه، لذلك لم يُغلقوا مؤسسته، رغم أن الشريط دليل كاف

لتتحرك الدولة في هذا الصدد، فهو بكلامه المذكور في الشريط لا يحترم، بل يهين أحد ثوابت البلد.

كانت جلسة استثنائية عزم السيد فهمي عقدها، دُعيَّت لها التلميذة براءة من قبل جمانة، ثم اتصلت بعد ذلك بأميمة، اجتمع الأربعة يتباحثون في الأمر، يتشاورون فيما بينهم، تحدثت جمانة دون أن تنتبه لما تقوله:

ـ إذن خطة الهدم فشلت، لكن لن تفشل خطة البناء بإذن الله.

لم يفهم السيد فهمي وبراءة ماذا تقصد، لكن بعد أن قالت ذلك تذكرت شيئا ما، وذلك عندما رأت أميمة تشير لها بعينها أن تلتزم الصمت، رأتها تعض شفتها السفلى من جهتها اليمنى من حيث لا تراها غيرها، قالت أميمة تغير الموضوع:

ـ لابد أن نفكر في خطة جديدة، أقترح أن نتواصل مع صديق صامد، فأنا أعرفه، اسمه صفوان، ربما ينفعنا في شيء ما، وإن كنتُ أظن أن صامد لا يمكن أن يُصاحب إلا من هو مثله في أفكاره ومعتقداته.

لم ييأسوا بعد، مستقبل صامد يضيع كما يضيع تلاميذ تلك المؤسسة في مصيرهم، هكذا يرون الأمور، السيد فهمي أيضا يعرف صفوان، فقد كان يزورهم من قَبل بصحبة صامد، وقد فكر في الفكرة نفسها.

استغرقوا في التفكير، استحوذ الصمت على المكان، إذن مؤسسة رامز تحظى بقوة تدعمه، فحتى لو خططوا لخطة أخرى مماثلة للتي سبقت، فلن يجدي معها نفعا، هذا ما كانت تقوله جمانة، أشارت عليهم بتغيير مسار الخطة دون أن تكون المؤسسة هي المقصودة أصالة، فهدفهم هو إنقاذ التلاميذ من مصيرهم الذي يهددهم، وإنقاذ صامد أيضا.

تحدثت براءة وقد أبانت عن ذكائها وفطنتها، لمحتْ فكرة تتوهج في رأسها، أحبت مشاركتها مع أعضاء المجموعة.

ـ ما رأيكم أن نستقصي أثر رامز، نراقبه في حركاته وتحركاته، لعل وراءه من هو أقوى منه، لعل الإلحاد شبكة عنكبوتية، لا يمكن أن يكون رامز وحده له هذه السلطة حتى لا تُغلق مؤسسته، فإذا وجدنا من يتواصل معهم رامز، فحينها سنصطاد عدة عصافير بخطة واحدة، أو ربما نعثر له على سقطة وخطأ جسيم لا تستطيع الدولة والحال ذلك رحمته، حينها ربما تُغلق مؤسسته، وبالتالي سنكف شر الأساتذة عن التلاميذ، ونكون قد كفينا المجتمع شرهم.

تلألأت وجوه المجموعة ابتهاجا لهذه الفكرة، لكن ما هي إلا برهة حتى انقلب ابتهاجهم إلى دهشة وترقب عندما سمعوا صوت المفتاح في الباب، أدركوا أن الداخل لن يكون إلا صامد قد أتى في غير موعده، فالساعة يجب أن يكون في آخر حصة تدريسية له،

ثانية واحدة وإذا بالباب يُفتح، وإذا باستغرابهم ينتقل إليه هو الآخر عندما وجد تلميذته براءة في فناء المنزل مع أهله، ألقى التحية، لكن لم يستطع أن يُلجم لسانه عن السؤال، فيما تفعله هنا براءة؟ وكيف أدركت منزل أستاذها؟ وبل كيف تعرفت على أهله؟

لم يكن أحد قد حضَّر الجواب لهذه الأسئلة، فبدأت الشفاه ترتعد استعدادا لجواب وهمي، إلا براءة كانت متماسكة تبتسم، أبانت مرة أخرى عن دهائها وحصافتها ورزانتها، قالت وهي تبتسم، وتزيد من ابتسامتها اللامعة المتلألئة.

ـ جئتهم أشكو لهم سوء تعاملك معي.

ابتسم صامد ابتسامة فاترة لابتسامتها، لكن الجواب لم يكن ليشبع فضوله، استمرت براءة في الحديث لمَّا وجَدَتْ عينيه الجاحظتين تلحان عليها ليعرفا الجواب.

ـ في الحقيقة التقيتُ بجمانة صدفة أمام المؤسسة التي أدرس فيها، وعرفتُ بعدها أنها أختك، بل كان باستطاعتي أن أعرف أنها اختك دون أن تخبرني بذلك، ألا ترى أن ملامح الشبه بينكما قوية جدا، إلى درجة أن من يراكما يظنكما توأمين، بعدها دعتني إلى البيت فلبيتُ طلبها.

"التقتْها صدفة"، الصدفة مرة أخرى، حرك صامد رأسه دلالة على التصديق، ثم استأذنهم ليتجه نحو غرفته، لكن وساوس عقله لم

تفارقه وهو في الطريق إلى حجرته، هنا سقطت من سقف البيت فكرة أصابت رأسه، وجعلته منبهرا، أتكون هذه المجموعة الجالسة هنا هي من خططت ونفذت لتسجيل ونشر شريط الفيديو؟ أتكون براءة هي من قامت بذلك، ثم أمدتهم بالشريط وقاموا بنشره؟

كانت هذه الأسئلة تتلاطم في رأسه، كان مُسْتلق على ظهره ويديه تحت مؤخرة رأسه في فراشه، بملابس عمله، غارق في تفكيره.

لم يكن صامد في فصله الدراسي في الساعتين الأخيرتين من مساء هذا اليوم، فقد دعا المدير أغلب الأساتذة ومنهم صامد لاجتماع طارئ، أخبرهم فيه بالمستجدات المتعلقة بالشريط المسرب منذ أسبوع، وبما طرأ بعد ذلك من اقتحام الشرطة للمؤسسة، والتزام رامز وتوقيعه في ورقة يُصرح فيها أنه سيكف عن نشر مثل تلك الأفكار في مؤسسته، لذا أمرهم أن يتخلوا عن نشر أي فكر يتعلق بالإلحاد في هذه الأيام، ثم يعودون بعد أن تنتهي هذه الزوبعة الإعلامية إلى سيرتهم الأولى.

ثم لأول مرة يُوجه لهم السؤال بشكل صريح مباشر، من منكم قام بتسجيل الشريط المسرب ونشره في وسائل التواصل الاجتماعي؟ كلكم حضرتم الاجتماع، من فعلها؟

كان رامز يقلب عينيه في وجوه الأستاذات والأساتذة الجالسين أمامه، لكن صامد لاحظ أمرا أرابه، لاحظ أن رامز قد استقرت عيناه عليه أكثر من استقرارها على غيره، أحس بشكوكه نحوه، أحس بنظرات الشك والريبة تراقبه، لم يرغب صامد في الدفاع عن نفسه، يقول في نفسه إنه بريء، فلِم يتحدث ويُبرئ نفسه من شيء لم يفعله. كاد بعدها أن يستفسر المدير عن سبب تلك النظرات الموجهة إليه، لكنه استيقظ من أفكاره بضربة رامز القوية على الطاولة غاضبا، وهو يقول:

ـ لا تريدون أن تعترفوا، إذن قسما بالدماء التي تجري في عروقي، لانتقمن من الفاعل قريبا، ولاجمعن له كل أخطائه وأسدد له فتورتها بالجُملة.

كان صامد في غرفته يفكر في كلام المدير، ويعرف أنه هو المقصود، لكن لا يدري كيف سيكون هذا الانتقام منه؟ هل بفصله عن عمله، أم يتعدى ذلك إلى شيء آخر؟ أما الآن وقد شك في هذه المجموعة الجالسة في فناء المنزل بأنها هي الفاعلة، فهل سيفضح أمرها حتى لا يفقد عمله؟

*****

(20)

(يوسف)

الانتقام المعاكس

خرجتُ لصلاة الفجر كالعادة، لم يكن لي علم بما سيقع بعدها، علم الغيب هو اختصاص الخالق سبحانه وحده، لو اطلعنا على الغيب أو على ما سيكون في غد لما استقامت حياتنا، ولعشنا في خوف وترقب، فليس أجمل من أن تعيش حياتك دون أن يُنغصها عليك عِلْمُكَ بما سيأتي، لكن أصْدقكم القول، لم أكن أتصور إطلاقا ما حدث لي في ذلك الفجر، مررتُ بعدة أزقة أختصر الطريق للوصول إلى المسجد، النوم غلبني ذلك اليوم فتأخرت بضع دقائق عن الصلاة، كنتُ أسمع المؤذن من ذلك الزقاق يقيم الصلاة، في تلك اللحظات شعرت بخطوات خلفي تسلك مسلكي نفسه، في البداية حسبتُ أصحاب الخطوات أشخاصا مثلي تأخروا عن الصلاة، لكن ما هي إلا برهة حتى أدركت خطأ تخميني ذاك، وذلك عندما سمعت صوتا غليظا فظا لأحدهم يأمرني بالتوقف، توقفت، نظرت

خلفي في شبه الظلام المخيم على ذلك الزقاق، وجدتُ خلفي مباشرة ثلاثة أشخاص ضخام البنية، لم يتركوا لي فرصة تفحص وجوههم، انهالوا على كل موضع من مواضع جسدي لكما وركلا وضربا، قام اثنان منهما بتكبيل يداي بأيديهم خلفي، وأعطوا الفرصة للثالث ليتمتع ويتفنن في تعذيبي وإدماء وجهي بلكماته القوية وضرباته الموجعة في كل موضع من جسدي، أحسستُ بسواد في عيني، أدركت حينها أني فاقد لبصري لا محالة، تيقنت أن بؤبؤ عيني قد خرج من محجره، أحسستُ بألم فظيع في كل أنحاء جسمي، غامت الدنيا في وجهي، وقبل أن يرسلوا لكمتهم الأخيرة لتودع حواسي عملها على إثر تلك اللكمة، سمعتُ أحدهم يخاطب أذني بصوت غليظ قبل أن تفقد عملها، "إذا التقيتَ بصامد مرة أخرى، فاعلم أن الموت سيكون مصيرك، هذا آخر إنذار لك، إياك أن تلتقي به مطلقا"، نجحوا في أن تلتقط أذني هذه الكلمة، وفي أن يُسمعوها لي، بعدها سافرت إلى عالم آخر لا دراية لي به.

*****

(21)
(صامد)

اضطراب أمواج العقل

يا للعجب! صفوان يُصلي، اتصلتُ به وقت الظهيرة لآخذ منه موعدا نلتقي فيه نتبادل أطراف الحديث، اعتذر لأنه يدخل اللحظة إلى المسجد لصلاة الجمعة، وأنه سيلتحق بي إلى شاطئ البحر بعد الصلاة.

لم أعلق على اعتذاره، تركته وشأنه وأخذتُ ما أحتاجه من خيمة صغيرة ومأكل ومشرب وتوجهت صوب شاطئ البحر، كان المكان هادئا ومريحا، كان شبه فارغ من الناس، لا يُسمع فيه صوتٌ سوى صوتُ تلاطم أمواج البحر، هو نفسه الصوت الذي أحسه بداخلي، لكنه ليس تلاطم الأمواج، بل تلاطم وتخبط الأفكار في رأسي، لن أُخفي عنكم أن رامز كان صادقا، هذا ما كان يخافه علي، وهذا ما وقعتُ فيه، ها أنا ذا أجد نفسي قد عدتُ إلى مرحلة الشك بعد تلك اللقاءات مع يوسف، كنتُ قد تخلصت من الشك إلى

اليقين بعدم وجود إله، الآن ورغم أني ما زلتُ متيقنا من عدم وجود إله، لكن ما أصاب رأسي من ريبة ومرية يُخيفني، يُرعبني، كيف وُجد هذا العالم؟ أريد جوابا، أريد أن أعرف، لن أتخذ لنفسي المنطقة الرمادية وأقول لا شأن للكون بوجود إله من عدمه، بل لن أكون لا أدريا، وأردد كالببغاء "لا أدري"، بل لابد أن أدري، ولِم أنا هنا إن لَم أدرِ، فاللاأدرية، حالة من حالات الجبن الفكري كما يقول العبقري ريتشارد داوكينز، إذن مَن أوجد الكون؟ لن تكون الصدفة بحال من الأحوال، فالصدفة كما بين يوسف تحتاج إلى عناصر، إلى زمان ومكان، لكن حينها لم يكن زمان ولا مكان، كما أن الأكوان المتعددة فرضية مستبعدة، بل حتى الذين يقولون بها، يستدركون ويشكون فيها، ثم كيف نعيب على المتدينين إيمانهم بالغيب والخرافة؟ في حين نؤمن نحن بهذه الأكوان التي لم يرصدها العلم يوما، ولم يُثبُت وجودها، لابد لشيء من الموضوعية هنا، ثم هل يمكن أن تكون قوانين الكون أوجدت نفسها؟ لكن قوانين الكون هي جزء من الكون، فلا يُمكن لمَوْجُود أن يُوجِد نفسه دون تدخل عوامل أخرى في إيجاده، إذن من أوجد الكون؟

النظرية السائدة الآن لنشأة الكون هو الانفجار العظيم، لكن كيف يمكنني الإجابة عن أسئلة يوسف؟ نعم المادة غير حية، إذن من بعث في الكون الحياة؟ لماذا تلك المادة انفجرت في تلك اللحظة

وهي مجرد مادة عمياء لا إرادة لها؟ من أوجد تلك المادة من الأصل؟

لكن لحظة! لماذا يخاف رامز من أن أناظر يوسف؟ لماذا أحِسُّ أنه يتعقبني، أو قد كلف شخصا ما لفعل ذلك؟ أَوَصَلَ به الحال إلى هذه الدرجة ليُقَيِّد حريتي، ويفرض على شخصي ما يراه مناسبا لي، غريب أمره، لن أنسى ردة فعله عندما حدثته عن يوسف، هل كل تلك الانفعالات خوف وجبن؟ أم حقد على المسلمين؟

لكن هل هي حالة خاصة به، أم تشمل كل الملحدين؟ يوم زرنا الشباب الملحدين في تلك المنطقة كنتُ آمل أن أجد نقاشا محتدما، وآراء، وصولات وجولات علمية، وشباب متسلح بالعلم والنظريات الصحيحة، متقد ذكاء وحماسا للدفاع عن قضيتنا العادلة، لكن لم أجد منهم إلا اهتماما بشهواتهم، أنا لا أعيب عليهم ذلك، بل الطبيعة هي التي خلقت فينا هذه الشهوات ويجب تلبيتها وعدم كبتها أو دفعها كما يفعل المسلمون، لكن الأولى الآن هو التصدي لخرافة الإسلام، الأولى الآن إنقاذ الشباب من الدجل والإرهاب الذي استحوذ على عقول خيرة أبناء الوطن.

كنتُ مضطربا حينها، لم أستقر على قرار، لا أدري ما أصاب عقلي، أصبحتْ فكرة الانتحار ولأول مرة تُلح على عقلي

بشدة، سأؤجل هذه الفكرة، فليكن الانتحار آخر حل ألتجئ إليه إذا بقي هذا الاضطراب يصاحب قلبي، أحس بسوداوية في عيني، أحس بظلام يحوم حولي، أين أنت يا صفوان؟ لقد تأخرت، لابد أن يكون المتخلفون قد انتهوا الآن من طقوسهم، لا يمكن أن يستمروا فيما يفعلونه كل هذا الوقت.

كنت أفكر في تأخر صفوان وإذا بي أحس بخطوات قادمة من خلفي، التفتُ فزعا لأجد أن القادم ليس صفوان، بل ذلك العجوز!

ـ قل لي بحق السماء من أنت؟ كيف تتبدى لي فجأة كلما أردت ذلك؟

سألتُه مغضبا، وشرارة الغضب تنبعث من مقلتاي، لكنه قابل ذلك ببرود شديد، لم يقل شيئا، تحرك ببطء، جلس بجانب المكان الذي كنت جالسا فيه.

ـ اجلس، اجلس.

قال ذلك وكأنه يتحدث مع شخص يعرفه، أردتُ أن أجاريه، جلستُ بجانبه تاركا مسافة نصف متر بيني وبينه، أعدت السؤال على مسامعه.

ـ أنا مجرد عجوز جِئت إلى هذه الحياة لأتخذ منها مقاما وموطنا قصيرا، ثم أتركها يوما ما وأرحل، كل الناس يفعلون ذلك، وأنت

أيضا تفعل ذلك، جئتَ إليها، اتخذت منها بيتا ومنزلا، ثم ستتركها وترحل.

هدأتُ قليلا، أردتُ أن أعرف مكنون هذا العجوز وأن أتسلى معه بعض الوقت حتى يأتي صفوان، سألته لأستشف ما بداخله، سألته أن يخبرني من أين جئتُ أنا؟ كان العجوز يشاهد أمواج البحر، يتابع مد البحر وجزره بين ارتفاعه وهبوطه باستمتاع، كنتُ أتفحص ملامح وجهه الغابرة، بتجاعيدها الكثيفة على جبهته وخديه، استمر صمته هنيهة من الزمن كأنه لم يجد جوابا، ودون أن يلتفت إلى وجهي قال:

ـ جئتَ من العدم...

قاطعته متسرعا بلهفة.

ـ وسأعود إلى العدم؟

أجاب بنبرة الصوت نفسها.

ـ جئتَ من العدم، ثم خُلقت من تراب، من طين، من صلصال من حمإٍ مسنون كالفخار، ثم كنت النطفة التي تحولت إلى عَلَقٍ، وقد كانت النطفة سببا في وجودك في رحم أمك، ثم خرجت طفلا، ثم بلغت أشدك، ثم قد تكون شيخا، ثم ستعود إلى تراب، إلى حياة أخرى.

قلتُ له وقد وضعتُ كفي على خدي أتفحص وجه العجوز.

ـ قلتَ إني جئتُ من العدم، كيف يمكن أن آتي من العدم، مِن لا شيء، هذا لا يمكن عقلا!؟

ـ إذا كنت تقصد سبب وجودك، فأنت تعرف ذلك، فنطفة الرجل عند التقائها ببويضة المرأة كفيلة بأن توجدك، فهذا سبب وجودك، لكن أغمض عينيك، اسرح بذهنك في هذا الفضاء الواسع...

وجدتُ نفسي أخضع لما يمليه علي العجوز دون أن أشعر، أغمضت عيني وبدأت أتصور وأتأمل ما يقوله.

ـ تعمق أكثر، تخيل الكون خال من بشر، تخيل الكون عندما كان مفتقرا إلى هذا الكائن، الآن اسأل نفسك، من أوجد هذا الكائن عندما لم يكن موجودا؟ قلتُ لك من قبل إن هناك مادة خُلق منها، وهي التراب، لكن من أوجد هذه المادة عندما كانت هي والعدم سواء، أليس الإنسان الآن وُجد من العدم؟ فإذا سألتَ كيف ذلك، وأنت تقارن ذلك بقوانين الحياة؟ أقول لك: إذا سلَّمتَ أن الكون لم يكن، ثم كان، فأنت تسلم يقينا أن هناك من كوَّنه وخلق الإنسان من لا شيء فيه، إذن الكون ثم الإنسان وُجد من العدم، أما كيف ذلك؟ فستعرف ذلك قريبا.

فتحتُ عيني، وجدتُ العجوز ما يزال يتحدث وبصره على شاطئ البحر لا يلتفت يمنة ولا يسرة، قلتُ له، حسنا، ماذا نفعل هنا وإلى أين نحن ذاهبون؟

ـ نحن هنا من أجل الإصلاح، من أجل الخير، من أجل عمارة الأرض، من أجل الوقوف في وجه الفساد، من أجل عبادة من خلقنا بإصلاح أنفسنا، ونحن ذاهبون إليه ليَميز الخبيث من الطيب، والمُفسد من المصلح، والظالم من المظلوم، والكافر من المؤمن.

قال جملته الأخيرة ثم وقف مستعدا للذهاب.

قلت له وأنا أحاول تأخيره عن الانصراف.

ـ ومن أعطى له الحق ليفعل كل هذا دون استشارة منا؟ ومع من استشار ليضع تلك الشروط ويختار منها مَن يعتبره كافرا مِمَن يعتبره مؤمنا؟ إذا كنت تقصد أن هذا الذي تسمونه الإله هو الذي فعل كل هذا، فللأسف إلهك ليس بعادل، اختار قوانينَ مجحفة في حق البشر.

كان قد تحرك بعض الخطوات إلى الأمام، فلما ألححت عليه بكلامي ذلك، توقف، صمت برهة ثم التفت بتثاقل ناحيتي، لا أخْفيكم أني ذعرتُ وفزعتُ، أحسست بقلبي يدق بقوة، ربما تجاوزت حدودي وأسَأتُ لإلهه، سألني وهو يحدق في وجهي:

ـ هل كنت موجودا ليستشير معك؟

قلت: لا

فقال: فكيف يستشير معك وأنت غير موجود؟ فإذا أوجدك ليستشير معك، فمن يضمن ألا تقول له، ولِم أوجدتني لتستشير معي؟

قلتُ حسنا، ولم وضع هذه القوانين المجحفة؟ لم لا يكون من يدخل جنته إذا كانت هناك حقا جنة، لم لا يدخلها من هو أكثر نفعا للبشرية؟ كمن يصنع الطائرة ومصابيح الكهرباء، والهواتف التي تنفع الإنسانية؟

لأول مرة أرى شبه ابتسامة كادت تخرج من ثغره، حينها قال:

ـ ومن قال لك عكس ذلك، هذا هو القانون الذي ألزم به نفسه، فهو لا يظلم أحدا، فجعل جنته يدخلها أكثر الناس إصلاحا، أكثر الناس نفعا للبشر، لكن عليهم أن يمتلكوا المفتاح أولا.

سألته وهو يغادرني ويتحرك ذاهبا بتؤدة عن المقصود بهذا المفتاح، فأجاب دون أن يلتفت "أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدا رسول الله".

*****

ذهب العجوز، تركني في حيرة من أمري، من يكون؟ ماذا يريد مني؟

وأنا كذلك في غيبوبة التساؤلات، إذا بصفوان يُقبل متأسفا ومعتذرا عن التأخر، ثم ما أن لبث لينقلب اعتذاره لتساؤلات عن حالي، وعن تغير مزاجي، فلم أكتم عنه شيئا، وجدت نفسي تخبره عن سبب سوء حالي، وهو تأخره أولا، والمحادثة التي كانت مع العجوز ثانيا، سألني عن موضوع حديثنا، أخبرته بكل ما قاله، تبسم ضاحكا، استفسرته بحركة من رأسي عن سبب ضحكه، فأجاب:

ـ خطيب الجمعة اليوم، تحدث عن الموضوع نفسه، يمكن أن يكون العجوز قد حضر خطبته فأراد أن يعيدها على مسامعك، فقد قال الخطيب إن الإنسان خلقه الله في هذه الحياة من أجل العبادة، ثم بين أن العبادة لا تقتصر على أركان الإسلام كالصلاة والصوم فقط، بل العبادة شاملة لكل أفعال وأقوال الخير، أي إن كل فعل تنفع به غيرك، أو إصلاح تقوم به فتلك عبادة، فصِلتك لعائلتك وإدخال السرور عليهم عبادة، ومساعدة الناس في شؤونهم عبادة، وإكرام الضيف عبادة، وتنفيس كروب الناس عبادة، والتيسير على الناس في الديون عبادة، فكل هذه الأفعال هي إصلاح للأرض التي نعيش فيها، ومَن قام بها فهو في عبادة، وهذا ما يقصده العجوز ربما.

قلت معترضا:

ـ لكن المسلمون أكثر الناس إفسادا في الأرض، فضائحهم لا تنتهي، أنا لا أتحدث عن المسلمين العاديين بل عن شيوخهم، فضائح جنسية واغتصابات، سرقة، رشوة، أين هذا الإصلاح؟ بل قل: هم المفسدون ولكن لا يشعرون، ومع ذلك يعدهم ربهم بالجنة.

أجابني صفوان بلا مبالاة.

ـ أنا لا أدري هل هم كذلك أم لا؟ ما يهمني هو نفسي، وأعترف لك أني مسلم خسيس، ولا أصلح أن أحمل هذه الأمانة، لكن يا صديقي لا تحكم على من يقرأ الرسالة، بل يجب أن يكون حكمك متعلقا بالرسالة، فهل رسالة الإسلام تسمح بما ذكرت الآن؟ طبعا لا، إذن الإشكال في المسلمين لا في الإسلام، ثم هذا الذي وصفتَ به المسلمين ليس على إطلاقه، لكن في المقابل أنا قرأتُ إحصائيات عن الغرب تدمي القلب، إحصائيات عن جرائمهم وبشاعة أفعالهم، فإذا شئت ذكرتُها لك، فأنت تعرفني حافظ جيد.

قال ذلك وضحك بعفويته، أجبته معترضا:

ـ لن تكون مثل جرائم المسلمين، وأتحداك.

ما أن سمع صفوان بالتحدي، حتى التبس وجهه بالغضب، ثم قال:

ـ لم أكن أزمع النقاش، جئتُ لأتمتع بهذا الجو الدافئ، لكن بما أنك مُصر فاسمع ما لم يكن بحسبانك، أو كان بحسبانك لكن تتغافل ذلك، الجرائم لا حد لها في الغرب، هناك إحصائيات تُثبت ذلك،

فإذا رجعنا إلى إحصائيات معدل جريمة القتل الدولية سنة 2018، نجد مثلا المكسيك سجلت سنة 2018، 33341 جريمة قتل بزيادة نسبة 15.5 عن سنة 2017، في الولايات المتحدة أسفر العنف المسلح سنة 2013 عن جرائم تفوق جرائم المكسيك، إذ بلغت 33636 جريمة، و الرقم نفسه أو ينقص منه بقليل نجده في البرازيل وكندا وبنما وكولومبيا وفنزويلا، جرائم قتل مروعة يا صديقي تحْدُثُ في تلك البلدان كل سنة، كل سنة آلاف الجرائم، أليس هذا هو الفساد الحقيقي؟

آه يا صفوان، ما تذكرُه الآن من إحصائيات، لا يبلغ معشار ما يُحدِثه الإرهابيون المسلمون من إزهاق للأنفس، قلت له ذلك فهتف في وجهي غاضبا، نجحتُ في استفزازه، أحِسَّ أنه تغير، أصبح يدافع عن الإسلام عكس ما كان يفعله من قبل، أيمكن لصلاة الجمعة أن تُحدث فيه هذه الاندفاعية؟!

ـ صامد، لقد تحدثنا في هذا الموضوع من قبل، وذكرتُ لك جرائم غير المسلمين وأعدادها، لا أحب أن أكرر كلامي، وهذه إحصائيات معتمدة وليست من نسج خيالي، الأمر لا يتعلق بالقتل فقط، فبالإضافة إلى جرائم القتل، يوجد معها الانتحار بشكل مروع في الدول الغربية كأمريكا، والسبب هو ارتفاع الأمراض النفسية، والغريب أن أكبر نسبة من عدد الأطباء النفسيين في العالم كله

توجد بهوليود، وأكبر معدلات اكتئاب على الإطلاق تقترن حصريا بالدول الغربية الغنية، كأمريكا وإيطاليا وإسبانيا وبلجيكا، بينما تنخفض نسبة الانتحار في الدول الإسلامية كالسعودية وسوريا والكويت، حتى أن مدير مركز هارفرد للبحوث دعا إلى إنشاء لجنة خاصة في مجلس الشيوخ الأمريكي للبحث في تأثير التكنولوجيا على الإنسان والمجتمع، هذه الإحصائيات يا صديقي صامد سببها الاضطرابات النفسية التي ترافق غالبا غير المؤمنين من الملحدين والشكاكين.

سأنتقل بك إلى إحصائيات الزنى، أو ما تسميه أنت بالعلاقات الحرة، فهذا في الأصل نوع من أنواع الإفساد حتى لو لم تتفق معي على ذلك، فهذه العلاقات الحرة تجاوزت 50 % بعد الزواج في الغرب، يعني أن نصف مجتمعهم يخون زوجاتهم أو أزواجهن، هل ترضى أن تفعل بك زوجك ذلك؟ أما قبل الزواج فالنسبة تكاد تكون 100%، تخيل أن ابنتك ستفعل ذلك.

قاطعتُ صفوان، لست راض عن أسلوب كلامه، كيف يسمح لنفسه أن يربط إحصاءاته تلك بي أنا وزوجي، صرخت في وجهه.

ـ ما شأنك بي أو بأهلي، العلاقات الحرة هي حق للإنسان يمارسه مع من يشاء، نعم من باب الوفاء تجنب الخيانة، لكن مَن يمنعني من أن أمارس علاقات جنسية مع من شئت إذا كان ذلك الطرف

الآخر راض عن تلك العلاقة؟ أما زوجي أو ابنتي فلهما حقوق البشرية نفسها ككل، ولهما من العقل والذكاء ما يجعلهما يفعلان ما يتناسب مع حياتهما دون أن يفرض عليهما أو يمنعهما أحد من شيء.

هدأ صفوان لما رأى فورة بركان غضبي، قال بهدوء:

ـ حسنا أنت تقول ذلك، لكن قل لي بالله عليك، أو بحق ما تؤمن به، ما ذنب مليون طفل يَتم إجهاضهم سنويا في أمريكا وفقا للوثائق الحكومية الرسمية؟ نعم مليون طفل يا صديقي، وهذا العدد سيكون في 20 سنة فقط، عشرون مليون أي إبادة شعب كامل، دولة كاملة، بل منذ سنة 1989 إلى 2019 بلغ عدد حالات الإجهاض أكثر من 56 مليونا، إنهم يدفنون شعوبا كاملة تحت الأقدام، ما ذنب آلاف النساء اللاتي يُقتلن سنويا على يدي أزواجهن؟، أكثر من 1300 امرأة تُقتل سنويا على يد الزوج في أمريكا، ولا أخال الخيانة الزوجية إلا سببا لذلك، بل إن السويد من أكثر الدول احتقارا وإساءة للمرأة، لماذا؟ لأنها من أكثر دول العالم إباحة جنسية، ومن أكثرهم في معدلات الاغتصاب بجانب فرنسا وألمانيا وروسيا، هذه الجرائم كلها لها علاقة بما تسميه: "العلاقات الحرة".

سكت للحظة ثم قال بخجل وقد نكس رأسه أرضا، ينظر في رمال شاطئ البحر:

ـ أنا هنا لا أدافع عن المسلمين، بل أنا واحد من هؤلاء الذين كانوا يمارسون هذه العلاقات، لكن الآن أعتبرها زنى وذنبا سيحاسبني الله عليها إن لم أتب، ولا تحسب أن يوسف قد أثر علي، ربما كان سببا في ذلك فقط، وإلا فإني كنت أفكر من قبل في الإقلاع عن تلك المعاصي.

دعني أكمل لك هذه الإحصائيات، فبالإضافة إلى الإجهاض نجد عدد المشردين في الولايات المتحدة الأمريكية قد تجاوز 550 ألفا خلال سنة 2016، هؤلاء المتشردون سببهم أنهم ولدوا دون أن يعرفوا آباءهم وأمهاتهم...

أراد صفوان أن يكمل، لكن دون مقدمات صمت ثم قال:

ـ أرجوك دعنا من هذا الحديث، أشعر بتأنيب الضمير مرة أخرى، لا يمكن أن أتحدث عن هذه الجرائم الفظيعة وأصف نفسي بالطهرانية وقد كنتُ فاسدا من قبل، لكن أعدك أني سأتحسن الآن وسأكون من المصلحين لا من المفسدين...

ـ أسكت.. أسكت

قاطعتُه، صفوان يرهقني بتناقضاته وغرابة أطواره، ينقلب في كل لحظة، آه، أحس برأسي سينفجر، أعضائي تتمزق، عيناي ستخرجان من محجريهما، دماغي بركان سأرى ما تُخرجه فوهته عما قليل، أصمتْ يا صفوان، أحس بي لستُ أنا، أحس بعشرات

الأشخاص يتلبسونني، أحس بدوار في رأسي، أُصمتْ، أصمت يا صفوان، أحس بالأرض تدور، تدور، تزيد من دورانها، تزيد من سرعة دورانها أكثر، أصمت يا صفوان، دوران مهول لا أتحمله، من يوقف هذا الدوران، صداع في رأسي، صداع، صداع، صداع، أسكت أيتها الصخرة الملساء.

سقطت بقوة الدوران الذي أصابني على الأرض، لم أشعر إلا وصفوان فوق رأسي يلطم وجهي لأستفيق.

انتهت فسحتي البحرية، لم تكن فسحة، كانت جحيما بحق السماء، عدتُ إلى المدينة، مررت بالكلية، التقيت بأختي جمانة وزوجي المستقبلية أميمة، شاركتهما الطريق إلى المستشفى لزيارة أمي، وجدنا حالتها تزداد سوءا، هنا سقطتْ على رأسي صاعقة الموت، أيمكن أن يفرق الموتُ بيني وبين أمي؟ هل سيبدأ بي أم بها؟ مَن أنت أيها الموت حتى تتحكم في رقاب الناس؟ كيف تأخذ من شئت، ومتى شئت دون أن تستشير معهم؟

أكرهك أيها الموت.

*****

(22)

(يوسف)

في عداد الأحياء

علمتُ فيما بعد أن المصلين لما خرجوا من صلاة الفجر، وجدوني غارقا في دمائي، كدمات تسيل منها الدم في وجهي، ثيابي البيضاء طُليت بلون أحمر، أخذوني حينها على وجه السرعة إلى المستشفى، أدخلني الأطباء العناية المركزة.

علمتُ فيما بعد أيضا أني أصبتُ بكسور على مستوى ذراعي الأيسر، وفي أنفي، لكن ولله الحمد لم أفقد بصري، كانت حينها عيناي تحتاجان لراحة مؤقتة، ضمدوها بضمادة بيضاء، لم يستثنوا ولو جزءا واحدا من رأسي، كانت الضمادة تلف رأسي كله مثل المومياء.

مكثتُ في العناية المركزة ليومين، عندما أفقت، كان أول شيء فكرتُ فيه بعدما علمت بالمدة التي استغرقتها في غيبوبتي هي صلاتي، أرجو ألا تظنوا أني أبالغ، أو أني أحَاسِبُكم بمدى

تَديني، ما في الأمر أن ذلك ما حصل وذلك ما شعرتُ به، حاولتُ أن أستلقي لأداء الصلاة، لكن الطبيب منعي، فصليتُ متيمما وبعيني دون أن أستقبل القبلة.

في اليوم الموالي للحادثة، أو لِنَقل في اليوم الموالي لتلك الجريمة، كان من المفترض أن يكون لي موعد مع صامد وصفوان لاستكمال المناظرة، جاءا في ذلك اليوم في الموعد، وجدا المكتبة مغلقة إغلاقا محكما، علموا حينها أني لم أفتح المكتبة طيلة اليوم، فلو كنت أغلقتها من أجل الصلاة لكنت أغلقت الباب الزجاجي فقط، لكن لا أدري ما الذي دفع صامد ليقول لصفوان إني تهربتُ من المناظرة، ولم أرغب في استكمالها، حينها طلب منه صفوان بأن يتصلا بي ليتأكدا من ذلك، فلما اتصلا وجدا هاتفي مغلقا، تأكدتْ الشكوك بقوة في رأس صامد، وأكد لصفوان أني أدْبرتُ وفررتُ من المناظرة، طلب حينها من صفوان أن يُعلن انهزامي، ويُعلن انتصاره، لا أدري لِمَ صامد أصبح شخصا مزاجيا، هذا ما قاله لي صامد بلسانه في اليوم التالي بعد خروجي من العناية المركزة.

فقد كان صامد أتى لزيارة أمه في المستشفى في الجناح الخاص بمرضى السرطان، جاء هو وأبوه وأخته وزوجه، كانوا قد دخلوا لزيارة أمه، وبعدها خرجتْ أخته وزوجه ليُحضِرا لها الدواء، وعندما مرا بالجناح الذي أتواجد فيه، لمَحَتْ أختُ صامد وزوجه أختي تعبر إحدى ممرات المستشفى قافلة إلى البيت، حينها

استوقفتاها ليتحدثن، لا تسألوني كيف تعرف أخت صامد وزوجُه أختي؟ لن أخبركم، فأنا لستُ مثل أخت صامد لا تترك لسانها تحت شفتيها.

على كل حال، لما سألاها عما تفعله في المستشفى، أجابتهم بما وقع، حينها أخبرتا صامد بأن شابا ربما يعرفه اسمه يوسف يرقد في المستشفى، جاء صامد مسرعا، كانت أختي قد عادت إلى البيت، علم صامد بالسبب الذي أخَّرني عن إكمال المناظرة، بعدها وجدتُهم كلهم فوق رأسي، كنتُ نائما حينها، لم يتوخوا إيقاظي، تركوني نائما وهم يتفحصون وجهي، بعدها استيقظت، اطمأنوا علي، سألني صامد عما حدث، أخبرته ألا علم لي بما حدث، قصصتُ عليهم ما تعرضتُ له، تذكرت الكلام الأخير الذي سمعتُه قبل أن أفقد الوعي، قلتُه لصامد، قلتُ إن المعتدين ربما يعرفونك، ويرفضون لقائي بك، كان الكل في حيرة، شرعتْ أخت صامد وزوجه في البكاء، هكذا هن النساء يتأثرن بسرعة.

بعدها اتصل صامد بصفوان وأخبره بما وقع ودعاه للقدوم للمستشفى لزيارتي، حين جاء صفوان وجد صامد وأباه فقط معي في الحجرة الطبية، كانت الفتاتان قد اتجهتا للجناح الآخر في الغرفة التي ترقد فيها أم صامد، صِحتُ من غفوتي بفعل الجَلبة التي أحدثها صفوان عند قدومه وهو يسأل بحيرة عما حدث، لم أدر كيف نمت؟ ومتى نمتُ مرة أخرى؟ ومتى غادرت النسوة؟

سألني والد صامد، هل رأيتُ وجوههم؟ أخبرته أنهم لم يتركوا لي فرصة لذلك في جنح الظلام، وأن الشرطة سألتني السؤال نفسه فأجبتُ بالنفي، ووعدوني أنهم سيقومون بتحرياتهم.

بعد أيام زارني صامد في بيتي، كنتُ بمفردي، كانت صحتي قد تحسنت بعض الشيء، سألني هل سأستجيب لطلب المعتدين كي يقطع زيارته لي في المكتبة؟ أكدتُ عليه ألا أحد مِن حقه أن يمنعني مما أقوم به، ولا أحد من حقه أن يفرض علي ما يرضاه الله لي، لكن لا أدري لما استدركتُ وأخبرت صامد أني أخاف عليه أن يتعقبوه هو الآخر ويُلحقوا به الأذى، وأنه إذا رغب في عدم القدوم إلى المكتبة فذلك أسْلَم له، حينها رأيت منه شجاعة لا توصف، لا أدري في الحقيقة هل هي شجاعة؟ أم كبرياؤه هو الذي أعطاه تلك الشجاعة، أقسَمَ لي مؤكدا أنه لن يقطع زيارته لي حتى يَثْبُت لأحدنا خطأ أو صحة ما هو عليه، وأن ليس من حق أحد أن يفرض عليه أمورا أو يمنعه من أمور حتى لو كان الإله، هذا لو افترض وجوده، لم أشأ أن أعلق على جملته الأخيرة، آلمتني في صدري، لكن تظاهرتُ بعدم سماعها، قلتُ له بما أنك مُصر على ذلك، فسنحدد الآن موعدا للمناظرة، حددنا موعد المناظرة، خرج وهو يتمنى ويطلب لي الشفاء، لكن لا أدري ممن يطلب لي الشفاء؟ على أيٍّ، أشكر له ذلك.

*****

(23)

لنا في الحياة لقاء

يقولون إن الدنيا أصبحت قرية صغيرة، وهي كذلك، لا لأنك فقط تختصر فيها الزمن فتأخذ وجبة غذاء في إفريقيا، وفي اليوم نفسه تتناول وجبة عشاء في أمريكا، ولا لأنك تقطع الكيلومترات بوسيلة مريحة مجهزة، بل بإمكانك التقاء الأشخاص الذين فرَّقت بينكم الحوائل، ولو دون تخطيط مسبق لذلك، فكم من شخص جمعتك به الأقدار في هذه القرية الصغيرة؟ وكم من شخص فكَّرتَ من قبل أنك تود رؤيته؟ وإذا بك في هذه القرية الصغيرة تلتقيه دون موعد بينكما، فقد كان السيد فهمي في خلده يود رؤية صفوان والتحدث معه في أمر ابنه، لعله يعرف منه ما لا يعرف هو عن ابنه، وقد جاءته هذه الفرصة عندما التقى به في المستشفى، في زيارته ليوسف، لذلك لما كان السيد فهمي في المستشفى وجدها فرصة وأخذ من صفوان موعدا.

ها هما الآن في المكان الذي اتفقا أن يلتقيا فيه، كانا في "مقهى الأصدقاء"، فضَّلا أن يجلسا على الكراسي الخارجية للمقهى، كان الجو دافئا ومريحا، كانت الشمس تُرسل أشعتها الدافئة فتلمس من حين لآخر جبهتيهما أو خديهما فيضطران لتقزيم مساحة نظر العينين بإغماض أعينهم نصف إغماضه، دافعين بذلك خيوط أشعة الشمس.

لم يكن صفوان يدري سبب دعوة السيد فهمي له، ولم يكن السيد فهمي يدري من أين يبدأ حديثه معه؟ ساحا في موضوعات شتى، وفي الحديث عن مجالات عدة، تراءى للسيد فهمي ألا وقت لتأخير الشروع في البوح عما جاء من أجله، حينها انطلق في الحديث عن موضوع الدعوة، فضل أن يُطمئن صفوان وألا يتركه يُفكر كثيرا في سبب الدعوة، فالأمر يتعلق بابنه صامد فقط، كان صفوان متيقنا من أن سبب الدعوة يخص صامد، تأسف السيد فهمي لما اختاره ابنه من معتقدات، هو لا يريد إلا إنقاذه من وحل تلك الأفكار، يريد أن يعود له ابنه، فقد أحسَّ أنه فقده، لكن لم يجد مَن يساعده على ذلك، كان صفوان غارقا في تفكيره عندما وصل إلى سمعه صوت السيد فهمي يطلب منه المساعدة.

لم يكن يدري صفوان فيما يمكنه مساعدته، ظل صامتا، حائرا، السيد فهمي اختاره ليساعده؛ لأنه أقرب أصدقاء صامد إليه، وأنه ربما يعرف عن ابنه كل شيء، فهو يشاركه في كل شيء،

حثه السيد فهمي على مساعدة بعضهما البعض ليبحثا عن طريق الحق، إن كانا صديقين حميمين حقا، قال ذلك ملمحا إلى إمكانية كون صفوان ملحدا أيضا.

كان صفوان يضع كلتا قبضتي يديه على ذقنه، منتبها لما يقوله السيد فهمي، حينها تحركت شفتا صفوان ليشرع في الحديث، تأسف هو الآخر عما أصبح عليه صديقه صامد، فَهِمَ صفوان من كلام السيد فهمي أنه يشك في إسلامه، لذلك شرع صفوان يتحدث عن نفسه.

ـ صدقني عمي فهمي، أنا أخطأت كثيرا في حياتي، لكن الآن أحاول أن أكون شخصا آخر، كنت آتي أمورا قبيحة، كنت قاب قوسين أو أدنى من الإلحاد، بل لم تكن هذه القضية تهمني، ما كان يهمني هو شهوات نفسي، لم أكن شجاعا مثل ابنك لأختار لنفسي طريقا واحدا، بل كنت أريد أن أسير في كل الطرق ما دامتْ فيها مُتع حياتي، لذلك فِكرة مراقبة الله، أو وجود الإله، لم أكن أفكر فيها، عندما صارحني ابنك بإلحاده، لم أستغرب، لم أجد في الموضوع شيئا جديدا، ظلَّت صداقتنا مستمرة، هو على أفكاره، وأنا دون أن أهتم بذلك الموضوع، استمر الأمر هكذا، حتى قدر الله أن يلتقي ابنك بيوسف، وقدر الله أن يُحددا فترات مختلفة يلتقيان فيها في مكتبته يناقشان أمر الإلحاد والإسلام.

قاطع السيد فهمي صفوان متسائلا:

ـ صامد يناقش ذلك الشاب في المستشفى حول الإسلام والإلحاد، إذن الآن فهمت المقصود من تَحذير ذلك المعتدي على يوسف بأن يترك صامد وشأنه، وألا يلتقي به.

ـ نعم يتناظران في ذلك، لكن لا تقلق، فيوسف شاب مثقف وذكي، استطاع في كل جولات المناظرة أن يهزم صامد، لم يكن صامد في أغلب الأحيان يجد إجابات على تساؤلات يوسف، أما المعتدي فربما أعرفُ من يكون.

كان صفوان يتحدث، والسيد فهمي يُتمتم أنه لم يكن يعرف هذا، استمر صفوان في حديثه، وأن الذي جعله يُغير من لامبالاته وعدم اهتمامه بفكرة مراقبة الله هو حضوره لجولات المناظرة التي كانت بين يوسف وصامد، وأن كلام يوسف جعله يبحث ويقرأ أكثر عن مراقبة الله، حينها عاهد نفسه أن يُصلحها ويبدلها إلى أفضل، فبدأ يصلي ويحضر الجَماعات والجُمعات، لم يكن مرتاحا في حياته الماضية رغم الشهوات التي يُلبيها لنفسه، لذلك قرر أن يتخذ طريقا جديدا في حياته وهي إصلاح نفسه، وإلزامها بطاعة خالقها وخالق هذا الكون العظيم الفسيح.

استبشر السيد فهمي خيرا من كلام صفوان، اغتبط لانصلاح حاله، ورجا الله أن ينصلح حال ابنه أيضا.

ـ هنيئا لك يا ولدي هذه الهداية التي وجدتها، فلا أخال أنك تضَنُّ بها لنفسك عن صديقك، فما وجهك بلئيم وجد كنزا واحتفظ به لنفسه عن غيره.

بشَّر صفوان السيد فهمي أنه هو الآخر يُفكر في طريقة ليساعد بها صامد، وأن لَيله كله يقضيه متفكرا في أمر صامد.

ـ الليلة ما قبل الماضية أحجمتُ عن النوم أفكر في أمري وأمر صامد، ولما راجعتُ شريط ذكرياتي، وجدتُ أني ربما تسببت في انقلاب صامد إلى الإلحاد بدون قصد، حينها وعدتُ نفسي أن أكَفِّر عن ذنبي بأن أكون سندا وعونا لصامد ليجد طريق الحق، لم أتفطن لمرور الوقت وأنا أفكر في هذا الموضوع حتى أذن المؤذن لصلاة الفجر، صليتُ، بعدها نمتُ.

كانت جلسة تفاؤلية حماسية بينهما، بعدها تذكر السيد فهمي شيئا، التفت إلى صفوان يسأله:

ـ قلتَ إنك تعرف من اعتدى على يوسف! من يكون؟ ولماذا؟

قال صفوان وقد أخفض من صوته مقتربا بوجهه إلى وجه السيد فهمي:

ـ يغلب على ظني أن الذي فعل ذلك بيوسف هو مدير صامد، فهو ملحد أيضا، وكان قد منع صامد من الالتقاء بيوسف، ثم بعدما انتشر شريط فيديو ربما قد علمتَ بمحتواه، حينها قال لي صامد إن

نظرات مديره تتهمه بتسجيل ذلك الشريط ونشره، فإذا جمعتُ كل هذه الخيوط المتناثرة، فسيتبين لي لا شك أن رامز مدير المؤسسة هو المعتدي.

كان صفوان يتحدث والسيد فهمي يحرك رأسه، ويقول في نفسه، إذن الخطة التي خططنا لها ونفذناها، اتهم مدير المؤسسة صامد بالقيام بها.

انتهت الجلسة التي كانت بين السيد فهمي وصفوان، عاد إلى بيته منشرح الصدر، فصفوان سيكون عونا لصامد لرجوعه إلى الإسلام، أو على الأقل لن يكون سببا في إغراقه أكثر في هذه المستنقعات.

أخبر السيد فهمي جمانة بما علمه من صفوان، فقد عرف الآن أن صامد يلتقي بيوسف الذي وجدوه في المستشفى، ويتناظران حول الإلحاد والإسلام، لم تستطع جمانة أن تُمسك لسانها أكثر من ذلك، ولِمَ تمسكه وقد عرف أبوها كل شيء، ولم تمسكه عن أبيها، أليس هو أبوها؟ فكيف تُخفي عنه أسرارا؟ في حين أنه بث لها مكنون سره عندما طلب منها مرافقته لمؤسسة "داوكينز"، شرعتْ تخبره بكل شيء.

*****

(24)

بناء الحب وهدم الحدود

قال الشاعر:

متى يبلغ البنيان يوما تمامه **** إذا كنت تبنيه وغيرك يهدم

فلو ألفُ بان خلفهم هادم كفى **** فكيف ببان خلفه ألف هادم

لن تكتمل أركان البنيان، ولن يصل الباني إلى مراده، وخلفه هادم بمعوله يأتي على نسف لبنات البنيان نسفا، إذا كان هذا حال الباني مع الهادم، والهادم يعرف أنه يهدم، فكيف بهادم يستوي عنده البناء والهدم؟ لا فرق عنده بين الهدم والبناء، من قال إن البناء أمره حسن، وأن الهدم أمره سيء؟ مِن أين أتوا بهذه القوانين؟ مع من استشاروا حتى يجعلوا البناء في خانة المحاسن، والهدم في خانة المقابح؟ البناء والهدم سواء ولا فرق بينهما، بل إن الهدم والبناء مصطلحات فضفاضة لا تسكن على حال، فقد يكون البناء شر، والهدم خير، قد يكون الهدم بناء، والبناء هدم، قد تَبني بالهدم، وتَهدم بالبناء.

وإذا كان الأمر كذلك فلا هدم ولا بناء، بل هي أفعال يراها كل فاعل أو راء أو مستمع من زاويته، فقد يرى الرائي في الخيانة بناء، ويرى فيه الآخر هدما، قد يرى في الحب هدما، ويرى الآخر فيه بناء، قد يُصنِّف الناس المرأة في خانة الهدم، وقد يُصنفها الآخرون في خانة البناء، قد يظهر للبعض أن الحرية الجنسية هدم، لكن هي في الحقيقة بناء.

كان شيء من ذلك يُفكر فيه رامز وهو في شقته، شقته الواسعة والمفروشة التي يحتل موقعها وسط المدينة، يسكن بمفرده فيها بعد أن طلق زوجه، أو لنقل بعد أن طلقته زوجه، أو بعد أن ترك أحدهما الآخر، بعد أن استفحلت الخيانة الزوجية بينهما.

قبل زواجهما اتفقا على أن كلاهما حر في حياته، سواء الجنسية أو الاجتماعية أو الثقافية أو العملية، فكان رامز يأتي أحيانا بصديقاته إلى المنزل ويُدخلهن على زوجه باعتبارهن مجرد صديقات، وكانت هي الأخرى تفعل ذلك، بل إن الأمر تجاوز ذلك إلى علاقات جنسية على مسمع أحدهما، حتى جاء اليوم الذي ملت زوجه منه، فتركته وغادرت البلاد نحو أوروبا، اتصل بها يسأل عنها، قالت له إنها طلقته، فقال لها وأنا أيضا طلقتكِ، هكذا بكل هذه البساطة، بل أبسط من البساطة نفسها.

بعد ذلك أصبحت شقته وكرا للدعارة، لا ليست وكرا للدعارة، هي علاقات جنسية حرة رضائية بين الطرفين كما يُسميها رامز، كان رامز قد تمكن من إغواء ومواقعة، عفوا قد تمكن من الملاطفة والتودد إلى أستاذات مؤسسته الأربع، فاستطاع أن يأتي بهن إلى شقته.

إلا أستاذة واحدة، أستاذة مادة التربية الأسرية، كانت تختلف عن غيرها من الأستاذات في شكلها، وتنعدم فيها جرأة الأخريات، أرسلتْ له رسالة في بريده الالكتروني منذ سنة، منذ أن تركته زوجه بالضبط، أخبرته أنها أستاذة وأنها تود الاشتغال في مؤسسته، قالت له بصريح العبارة أنها ملحدة، لكنها تستعمل حجابها تقية لنشر الإلحاد، هذه هي طريقتها الخاصة لنشر أفكارها.

إذن هي محجبة! هكذا تمتم لما قرأ رسالتها، لم يجبها، لكن بعد يومين هزمه فضوله، فاستدعاها إلى مؤسسته، ما إن رآها حتى رأى كوكبا ذريا باهرا، قد كسب من الجمال ما لم تكسبه غيرها من أستاذات مؤسسته، ناقشها في أمور، ارتاح لها، بل ارتاح لجمالها، وأخذ جمالها بلب قلبه، وتلابيب فؤاده، قبِلها أستاذة للتربية الأسرية في مؤسسته، منذ تلك اللحظة وهو يُفكر كيف يأتي بها إلى شقته؟ لم يُصرح لها يوما بذلك، مظهرها وسمتها يُخيفه، نظراتها ترعبه، حدودها معه تزعجه، غموضها يُقلقه، ليس غموض أفكارها فهو متيقن أنها ملحدة فعلا، وأنها أكثر جُرأة في نشر الإلحاد بين

التلاميذ من غيرها، فكم من حصة حضرها معها في فصلها؟ فوجدها دون مواربة تدعو إليه صراحة، وكم مِن يوم سمعها من حيث لا تراه؟ ولا تعلم بوجوده أنها لا تذكر كلمة الإله في دروسها قط، سأل التلميذات اللواتي يثق فيهن عنها فأكدن لها أنها لا تختلف عن غيرها من أساتذة المؤسسة.

واليوم وهو يقرأ في إحدى المواقع الالكترونية عن التربية الجنسية بين دعوة المتنورين لتدريسها في المؤسسات التعليمية، وبين رفض المتخلفين الإسلاميين لذلك، وجد إحدى الناشطات الإسلاميات تدعو إلى تدريس التربية الجنسية في الأقسام الدراسية وهي تقول: "سيكون مناسبا تسليط الضوء على أهمية التربية الجنسية وضرورة تضمينها في البرامج الدراسية وفق مقاربة تربوية وعلمية مدروسة"، لم يستغرب من هذه الدعوة، بل إنها دعوة جاءت متأخرة، فهؤلاء الإسلاميون متخلفون دائما في كل شيء، أما هو فإنه طلب منذ مدة من أستاذة مادة التربية الأسرية أن تقتطع حصصا من زمنها الدراسي لتدرس لهم هذه المادة، وهي تفعل ذلك بالفعل، أما وقد شرع المتأسلمون يدعون إلى تدريس هذه المادة نظريا، فإنه سيسبقهم بخطوة متقدمة.

فكر أن ينتقل في التربية الجنسية من مجرد دروس نظرية إلى دروس شبه تطبيقية، أو تطبيقية ولِم لا، المهم أنه يُفكر في البناء وإن اعتبر غيره ذلك هدما، وبهذه الخطوة سيُسقط عصفورين

بحجرة واحدة، وبما أن المؤسسة لا تصلح لمثل تلك الدروس، فإنه فكر أن يختار بداية، مجموعة من التلميذات والتلاميذ، يأتي بهم إلى شقته لدراسة هذه المادة تطبيقيا، ولكي يُسقط العصفور الثاني مع هذا العصفور الأول، فلابد أن يُقنع أستاذة مادة التربية الأسرية بأن تأتي معه إلى هنا من أجل أن تُدرس للتلاميذ هذه المادة، وسيكون لها تعويض جزافي مبهر على ساعاتها الإضافية تلك.

هذا هو البناء الحقيقي بالنسبة لرامز، بناء المشاعر، بناء العواطف، بناء الحب، بناء الجرأة، هدم العُقد النفسية، هدم الخجل، هدم الحدود المفترضة بين الجنسين، بناء الإنسان، هدم ثنائية الأنثى والذكر، فلتقترب الأجساد إلى بعضها البعض، فالذكر أنثى والأنثى ذكر، فليحيا الحب بينهما دون فواصل، فمتى يبلغ بنيان رامز يوما تمامه؟ إذا كان هو يبني بطريقته وغيره يهدم، هذا وهو وحده يبني، فكيف به وحده يبني وخلفه ألف هادم؟

إذن سيعمل على إنجاح هذه الخطة بنفَس طويل، ولن يستعجل في قطف ثمرتها.

*****

(25)

قوة أوجدت الكون

شُفي يوسف وعادت له عافيته، اجتمع بعدها مع صامد وصفوان في مملكته، "مكتبة الحكمة"، لاستئناف المناظرة، كالعادة أخذ صفوان خيط الحديث موجها أسئلته هذه المرة ليوسف:

ـ يوسف، صامد ذكر نظريات، أو اعتبِرْها فرضيات، اعتبَرَها هي من تسببت في نشأة الكون، وقد اعترضتَ عليها كلها إلا نظرية الانفجار العظيم، لكن قلتَ إن لك عليها مؤاخذات أو أسئلة، لكن لم يجب عليها صامد، إذن حان دورك، بين لنا أجوبة هذه الأسئلة إذا كنت تعرف لها جوابا؟ وقل لنا من أوجد هذا الكون في نظرك؟

بِسكوت صفوان عن طرح أسئلته، التصقت الأعين بشفتي يوسف تنتظر منه الإفصاح عما يود قوله، بِسكوته تجهزت الآذان كأجهزة لاستقبال الموجات الصوتية، لا حركات ولا سكنات تفوتها، بِسكوته تيقظت الأذهان وطُرِد الشرود وتأهبت الأفهام للفهم.

كان هو الآخر في حالة تركيز شديد، كأنه يختار الكلمات التي يُفضي بها لهما، بعدها أنشأ يقول بروية وهدوء أنهما اتفقا في الجولة الماضية على أن الانفجار العظيم هو سبب فقط في نشأة الكون، وكان قد طرح بعض الأسئلة على صامد، قال له كيف تستطيع مادة غير حية، غير عاقلة، أن تُخرج لنا حياة عاقلة وقادرة على التكاثر؟ أي كيف انتقلت اللاحياة إلى الحياة؟ كيف انتقلت المادة الميتة إلى خلايا حية؟ كما أن السمة الأساسية المميزة للكائنات الحية إضافة إلى القدرة على التكاثر ونظام تشفير المعلومات ومعالجتها، هي الغائية، أي لها هدف المحافظة على وجودها، وهو هدف لم يكن موجودا في المادة غير الحية التي نشأ منها، وقبل هذا وذاك، من أوجد هذه المادة العمياء غير الحية من اللازمان واللامكان؟ أي كيف ظهر الوجود من اللازمان واللامكان؟ فعندما كانت هذه المادة موجودة، لم يكن هناك زمان ولا مكان طبقا لعلماء الفيزياء، ثم ختَم كلامه في تلك الجولة، بأنه لن يقول إن الإله هو الذي خلق الكون، إنما سيترك ذلك لصامد ليقول به إذا كان منصفا، وضع يوسف تلك المقدمة والتمس منهم أن يركزوا معه جيدا الآن وهو يتمم كلامه.

ـ سأقول إن هناك قوة هي التي أوجدت الكون، قوة لا نعرفها، لكن هذه القوة، لابد أن تتميز بثلاث ميزات في غاية الأهمية ليكون باستطاعتها إيجاد الكون.

أولا: أن تكون هذه القوة غير خاضعة للزمان والمكان، أي لا يسري عليها الزمان والمكان، أي هي خارج عُنصري الزمان والمكان، فإذا قلنا إنها خاضعة للزمان والمكان، فإننا حينها نستطيع أن نقول إن الكون أوجد نفسه بنفسه لأنه هو جزء من الزمكان، هذه الأولى.

ثانيا: أن تكون مطلقة الإرادة ولا يتحكم أحد في إرادتها، فإذا قلنا إنها لا تحتاج لإرادة، فالمادة التي نشأ منها الكون كانت غير غائية أي لا إرادة لها، وهذه المادة تستحيل أن توجد الكون وهي غير غائية.

ثالثا: أن تكون هذه القوة مطلقة القدرة، أي لها قدرة مطلقة على فعل كل شيء، فبدون هذه القدرة الهائلة لن تستطيع إيجاد الكون.

الكلمة لك الآن يا صامد، قل لنا، من تكون هذه القوة التي يشترط فيها أن تكون مطلقة القدرة، مطلقة الإرادة، لا تخضع للزمكان؟ علما أنه لن تستطيع هذه القوة إنشاء الكون إذا انتفت فيها إحدى هذه الشروط.

غرس صامد عينيه في وجه يوسف وهو واضع يده اليمنى على خده، بعد برهة على تلك الحال قال وهو يرفع حاجبيه ويدقق النظر بعينيه:

ـ معرفة القانون، ومعرفة سبب وجود الكون والذي اتفقنا أنه وجد من الانفجار العظيم يُغني عن وُجود المُقتن، ثم إن العلم كفيل بأن يجد في المستقبل هذا المُقتن وهذه القوة بهذه الشروط.

أجابه يوسف منفعلا، وقد بدا الانفعال جليا على صوته.

ـ لكن هذا ليس من اختصاص العلم، العلم يقول إن هذا الصانع الذي صنع لنا هذا الكون لابد وأن يتميز بهذه الشروط، لكن لن يستطيع تحديده لنا.

تلفظ صامد يقول بجزم ويقين إنه لن يستطيع الإيمان بقوة كيفما كانت حتى يثبتها العلم، فهو لا يؤمن إلا بما يثبته العلم.

شرح يوسف فكرته موضحا:

ـ ما أقصده أن العلم التجريبي لا يمكن أن يُخضع هذه القوة للتجريب، ولا يمكن له رصدها، لكن هو رصد أثرها في كل أنحاء هذا الكون، فكل شيء في الكون يدل على أثر هذه القوة، وهي محددة عند جميع العقلاء بصانع معروف قد أتقن صُنعه.

قاطع صفوان يوسف يطلب منه أن يُفصح لهما عن هذا الصانع، فقد شوقهما ليُدركوا كنهه، لكن يوسف كان يرجو أن يكشف صامد عن هذه القوة وعن هذا الصانع، تأسف يوسف من عناد صامد، أفصح لهما عن هذا الصانع الذي لم يكن يخضع للزمان والمكان عندما خلق الكون من مادة عن طريق الانفجار

العظيم، ويتصف بمطلق الإرادة ومطلق القدرة وهو الله الخالق الذي له إرادة أزلية، وهو أراد كل شيء في الأزل، لكن آثار تلك الإرادة تحدث متى شاء، كما أن هذا الخالق لا يسري عليه الزمان والمكان، فالأزمان جميعا متساوية عنده قبل ظهور الأحداث فيها.

وهذا الصانع يعترف بوجوده علماء وفلاسفة، فمثلا تشارلز داروين صاحب نظرية التطور يقول في كتابه "أصل الأنواع": "أما وجود حاكم للكون، فهذا مما دانت به جموع من أعظم العقول التي وُجدت على الإطلاق"، بل إن المذيع جون فريمان سأل كارل يونج عملاق علم النفس التحليلي، هل تصدق وجود الإله؟ فقال يونج "أنا لا أصدق، بل أعرف"، وفي سنة 1992 قال أنتوني فلو عندما كان ملحدا: "يقولون إن الاعتراف يفيد الإنسان من الناحية النفسية، وأنا سأدلي باعترافي، إن ظهور هذا العالم من اللازمان واللامكان شيء محرج جدا بالنسبة للملحدين، ذلك لأن العلم أثبت فكرة طالما دافعتْ عنها الكتب الدينية"، ليعترف يوم 9 ديسمبر سنة 2004 بقوله: "إن الحجج الأكثر إثارة للإعجاب على وجود الله هي المدعومة بالاكتشافات العلمية الحديثة، وتلك الحجج الخاصة بالتصميم الذكي أقوى بكثير عما كنتُ قد رصدتها من قبل"، وقال: "السؤال الفلسفي الذي لم تتم الإجابة عليه حتى الآن بشأن نشأة الحياة هو، كيف للكون الذي يتشكل من مادة عمياء بلا عقل أن يُنتج كينونات تحكمها الغائية والمقدرة على التكاثر والكيمياء

المشفرة؟ إننا الآن لا نتعامل مع بيولوجيا إنها فئة مختلفة تماما من المشكلة" وهنا في 2004 اعترف بوجود إله، وفي 2007 أصدر كتابه "هناك إله".

إضافة إلى أنتوني فلو الذي اعترف بوجود الإله، هناك ملاحدة آخرون اعترفوا بذلك أمثال فرانسيس كولينز وعبد الوهاب مسيري.

تنهد صامد بنَفْسِ الأسف مُتفهما أسف يوسف، رجاه ألا يُتعب نفسه، فاستيعاب وجود خالق ولو بهذه المواصفات صعب على صامد أن يعترف به، ولا يتصور وجوده.

يوسف لم يوافقه الرأي، أكد عليه أنه يستطيع تصوره، لو كان الأمر كما تقول لانتفت حاجتنا لتجشم عناء إثبات امتناع وجوده في كل جولات هذه المناظرة، لأن الشيء المستحيل عقلا، والذي لا نتصور وجوده مطلقا، لا نُتعب أنفسنا في نفيه، فهو بداهة غير موجود، فلا يمكنك أن تخوض في قضية ممتنعة لذاتها، فكيف يأتي المرء في عدة جولات ليناظر على أن الإله غير موجود، وهو مقتنع عقلا أن هذا الإله غير موجود؟ كأن تأتي وتُتعب نفسك لتقول إن الغول الذي يتحدثون عنه في الأساطير غير موجود! أو تتعب نفسك لتنفي أن الفضائيين غير موجودين! فمن هذا الذي يُتعب نفسه من أجل نفي وجود شيء هو عقلا لا يتصور وجوده؟

فإنكارك للخالق، يقول يوسف، عائد من تصور مُعين، وهو أن هناك خالق وتريد نفي وجوده، وإلا لو كنت تعلم عدم وجوده ما تعبت في نفيه، بل إن سؤال الخلق، يستحوذ على خواطر الأطفال ما إن يبدؤون بالنطق، إذ إن ضرورة معرفة الصانع مغروزة في فكر كل إنسان منذ وقت مبكر جدا، بل قبل تشكل الوعي ذاته، وبالتالي فكيف يستوعب الطفل ذلك ولا تستوعبه أنت أيها الراشد؟

تهلل وجه صفوان من حيث لا يراه أحد، قال صامد مستدركا:

ـ لا أستوعب وجوده لأني لا أراه، لا أسمع صوته، أين هو؟

افتر ثغر يوسف، حك رأسه بإبهامه متصنعا التفكير وعيناه تبحثان عن شيء وهمي بالسقف وهو يسأل صامد:

ـ هل سمعت بدولة اليابان؟

ـ نعم

ـ أين تقع؟

ـ شرق أسيا

ـ هل سافرت إليها يوما؟ هل رأيتها مباشرة؟

ـ لا

ظهرت بشاشة وجه يوسف وهو يقول:

ـ إذن كيف تؤمن بوجود دولة اليابان وأنت لم ترها؟ مجرد أنك سمعت عنها، إذن لا يلزم عدم رؤيتها إنكار وجودها، أما مسألة وجود الله فهي تقوم على شواهد كثيرة وأدلة كثيرة، وطرق إثبات وجوده كثيرة جدا وليست هي الحواس الخمس فقط، لكن أستغرب أنك تطلب مني أن أثبته لك بأضعف طرق الإثبات، وتركت أقوى طرق الإثبات؛ فالاستنتاج الرياضي، والاستنتاج العلمي الذي أخذ منا كل هذه الجولات في المناظرة هي أقوى طرق الاثبات من مجرد استنتاج مادي بالحواس الخمس، فإن هذه الحواس ضعيفة؛ لأن العين مثلا لا تستطيع التفريق بين الحقيقة والسراب، وألوان لا تستطيع إدراكها، والأذن مثلا، لا تستطيع التفريق بين الكلمات، فموجات صوتية لا يستطيع الإنسان سماعها، وبالتالي الحواس الخمس ضعيفة حتى تطلب أن نجعلها وسائل للإثبات.

ـ حسنا، أنت تقول إن الإله هو من أوجد الكون، وتقول في الوقت نفسه بقانون السببية أي إن لكل حدث مُحدث، فإذا كان سبب وجود الكون هو الإله، فبالقانون نفسه، قانون السببية، من أوجد هذا الإله؟

قالها صامد وكأنه وجد ما يمكن به إعجاز يوسف، ليجد ولأول مرة يوسف يضحك مقهقها، ثم ينظر في وجه صامد ويشير له بأصبعه وهو يقول له مستغربا:

ـ أحقا لا تعرف ذلك؟ هل حقا فاتك معرفة من خلق الإله؟ ذلك أمر معروف يا صديقي، حسنا بما أنك لا تعرف سأقول لك، الإله خلقه إله آخر.

حدق صفوان في وجه يوسف بذهول، سرت فيه دهشة من رأسه إلى أخمص قدميه، ألجمتْ لسانه على التعليق، ماذا يقول يوسف؟ كان صامد أيضا قد استغرب من الجواب، لم يدم صمته طويلا ليقول:

ـ ومن خلق ذلك الإله الآخر؟

قال يوسف بسرعة وبثقة:

ـ خلقه إله آخر.

ـ ومن خلق ذلك الإله الآخر؟

ـ إله آخر.

ـ حسنا، من خلق الإله الأول؟

قال يوسف وقد أحس بنشوة الانتصار؟

ـ لم أسمعك جيدا، أعد سؤالك على مسامعنا بصوت مرتفع.

ـ قلتُ لك من خلق الإله الأول؟

رفع صامد بها صوته، قال يوسف بنشوة الانتصار:

ـ أرأيتَ ماذا تقول؟ أنت تسأل عن الإله الأول! عقلك يرفض التسلسل اللانهائي، فعندما جاريتُك وظللتُ أقول لك، خلقه إله آخر ثم آخر، رفض عقلك تلك الفكرة، فأراد أن يبحث عن المخرج وهو "الأول"، كما أفصَحَ عن ذلك لسانُك، وبما أنك تسأل عمن خلق "الأول"، فسؤالك هنا خاطئ، غير منطقي، فعقلا ومنطقا، الأول لا يوجد قبله شيء، يوجد الصفر الذي هو العدم، الأول هو الأول، فالأول لن يكون هناك أحد قد أوجده لأنه هو الأول.

أحس صامد بالخجل لأنه أوقع نفسه في هذا الفخ، قال مستدركا:

ـ قلتُ ذلك لأني لا أتصور مَوْجُودا لا مُوجِد له.

قال يوسف شارحا بعفوية:

ـ لأنك ببساطة تقوم بعملية التنزيل على ما تراه، فتُخضع الإله لقوانين المادة، فنحن دائما عاجزون عن تصور أي شيء يختلف عما اكتسبناه في خبراتنا العلمية، ونحن لم نقابل في حياتنا مَوْجُودا لا مُوجِد له، وهذا هو سبب العجز، لذلك قلتُ لك بداية أن هذه القوة لا تخضع للزمان والمكان ولا تخضع لقوانين الفيزياء والتي منها قانون السببية، فهو الذي أوجد هذه القوانين، ولا يُمكنه أن يُخضع نفسه لها، فهو لا تسري عليه هذه القوانين المادية التي نرى أثرَها في حياتنا، لا الزمان يسري عليه، ولا المكان يخضع له، وقانون

السببية يسري في الزمان والمكان، فهو بكل بساطة غيب ولا تنطبق عليه القوانين التي تنطبق على مخلوقاته.

حاول صامد أن يفهم ما قاله يوسف فقال:

ـ حسنا، ما المانع من أن يسري عليه قانون السببية، وأن يكون له مُوجد؟

ـ السبب بسيط جدا، التسلسل اللانهائي في الأسباب يعني شيئا واحدا وهو أن هذا الكون لم يكن ليكون موجودا أبدا.

سكت يوسف وابتلع ريقه، مد يده لكوب ماء، شرب منه، ثم استمر في كلامه عندما رأى علامات الحيرة وعدم الفهم على ملامح صامد.

ـ أعطيك مثالا: أنت عندما ذهبتَ إلى مؤسسة "داوكينز" تبحث عن عمل.

جحظت عينا صامد مشدوها، كيف يعرف يوسف أنه يشتغل في مؤسسة "داوكينز" بالضبط؟ أصرها في نفسه، لم يبدها له، يوسف لاحظ ذلك فارتعشت شفتاه، شعر بأنه قد تسرع وأفصح عن شيء لم يكن عليه الإفصاح عنه، لكن توارى اضطرابه خلف كلامه، فأكمل دون أن يُبدي شيئا ما دام صامد لم يسأله عن ذلك.

ـ ذهبتَ إلى رئيس المؤسسة تطلب منه الاشتغالَ في مؤسسته، تصور أن هذا الرئيس له رئيس آخر، واعتذَرَ منك أنه لن يقبل طلبك حتى يستشير رئيسه، ورئيسه الآخر هو أيضا له رئيس، فاستأذنه حتى يستشير مَن فوقه، وهكذا إلى ما لا نهاية كل واحد منهم يستشير رئيسه من أجل أن يقبلوك للعمل في المؤسسة، في هذه الحالة، هل تستطيع أن تشتغل في تلك المؤسسة؟ طبعا لا تستطيع؛ لأن الاستشارات اللانهائية لن تنتهي، هكذا الكون، لو كان للإله إله أوجده إلى ما لا نهاية، فكل واحد يستشير من فوقه من أجل إيجاد الكون، وبالتالي فإن الكون لن يُخلق إطلاقا.

ـ وااو رائع.

تفوه بها صفوان دون شعور، أمره يوسف مبتسما أن يلزم حياده، ثم أكمل.

ـ وإذا كان للإله مُوجِد فإنه لن يكون مُطلق الإرادة، وشرط الألوهية، أو مِن شروط مَن أوجد الكون أن يكون مطلق الإرادة، ولا يخضع لقوة أحد، كما أن تصور إله يحتاج إلى خالق يَخلُقه ويعتني به، مجرد هذا التصور ينفي عنه الألوهية؛ لأن هذا الإله الذي يسري عليه فعل الخلق ويحتاج إلى العناية حتى يكبر مثلا ليس بخالق.

قاطع صامد يوسف يستوضحه عن سبب امتناع وجود إلهين أو أكثر لهما القوة والإرادة نفسهما.

ـ نحن نريد أن نقنعك بإله واحد فقط وترفض، وإذا بك تضيف إِلَهًا آخر.

أضحكتْ صفوان تلك الجملة التي قالها يوسف، وجعلت صامد يبتسم، أردف يوسف يُحدِّثهم:

ـ قال الله سبحانه وتعال في سورة المؤمنون في الآية 91: ﴿مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَٰهٍ ۚ إِذًا لَذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ وقال في الآية 22 من سورة الأنبياء ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا ۚ فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾، ماذا تعني هذه الآيات، تعني أنه لو كان هناك آلهة كثيرة فطبعا هنا سنتصورهم مثل البشر، لأن الإله إذا كان له شريك فلم يعد إلها، بل اعتبِرهم كجنس من أجناس ما، وبالتالي طبائعهم ستكون كطبائع البشر، فأولا لن يتفقوا في أمور أو في كثير منها، أولُ أمر سيختلفون فيه هو قوانين الكون كيف ستكون؟ إذن سيختلفون، ولو افترضنا أنهم أو أنهما اتفقا، وقسما بينهما الكون، فهنا لا يُعتبران إلهين؛ لأنهما لا يتصفان بالكمال، بل يخضع أحدهما لسلطة الآخر، ويتكبر أحدهما على الآخر ويعلو أحدهما على الآخر، وبالتالي سيفسد ما خلقاه، وربما استيقظ

أحدهما ليلا وقتل الآخر، وقبل كل هذا وذاك، فأن يكون للإله شريك فهو ليس بإله.

ظهر اليأس على صامد، خاطبه صفوان وهو يضحك.

ـ عندما كان يوسف في الهجوم، سجل عليك أهدافا، والآن بعدما غيرتما مواضع تواجدكما وأصبح يوسف في الدفاع، كذلك استطاع الوصول إلى شباكك وتسجيل الأهداف عليك، لكن أنا محايد، وأسألك الآن هل ستعترف بهزيمتك يا صامد؟

بدا على صامد الإعياء والإرهاق، العرق تجمع في جبهته، الغضب مشتعل في ضلوعه لكنه يكتمه، رأسه يضج بأفكار لا قِبل له بها، لماذا يحدث معه هذا؟ ما هذه التناقضات؟ كُتُب تُقنعه بعدم وجود إله، صفوان يُقنعه بالتناقضات، يُصدقه في أمر وضدِه، يوسف يحاول إقناعه بوجود إله، لن يؤمن به، لا وجود لهذا الإله، إله لا يراه، رؤية لا تتضح له، وضوح مضبب، ضباب يحمل مطرا، أمطار خارج المكتبة تبلل الأرض، أرض تَتَحمل رعودا وبروقا، بروق تضرب رأسه، رأسه يتحمل ما يهدمه يوسف، يوسف يشخص ببصره نحوه، ينتظر منه أن يعترف بهزيمته، هزيمته لن تكون بهذه السهولة، فيقول:

ـ لا أؤمن بوجود هذا الإله، لم أقتنع بما قلتَه يا يوسف.

ـ حسنا، نؤجل المناظرة لجولة أخرى، وليكن دليل العناية، ودليل التناغم هو دليلي وبرهاني معك في تلك الجولة.

خرجا من المكتبة، اعتذر صفوان من مرافقة صامد، سيذهب مع يوسف للصلاة، وبعدها سيلتحق به إن انتظره، اعتذر له صامد بأنه لن ينتظره، بل يفضل أن يكون بمفرده الآن.

*****

(26)

(صامد)

على حافة الجنون

أفي ليل أنا أم في نهار؟ أشمس في الفضاء أم قمر؟ أأشجار ماثلة أمامي أم أحجار؟ أجِبال تلتف حولي أم أعداء بشرٌ؟ أأرض تحت أقدامي أم صفحة السماء؟ هل أنا موجود أو أن وجودي وعدمي سواء؟ هل أنا إنسان أو صخرة صماء؟ هل أنا عاقل أو مَذهوبٌ به؟ أو أسْبَلْتُ على عقلي رداء الحمق؟ كأني أبصِر طريقي، بل أبصر السراب، كأني أمشي إلى القمة، بل أمشي رويدا رويدا نحو الخَرق، نحو الخَطِل، نحو الهبل، نحو الحمق، هل سيَفسد عقلي أو على أبواب الجنون أمسَيتْ؟، شمس ساطعة براقة وأنا أسأل هل في نهار أنا أو في ليل؟ غابة أشجارها صنوبر وبلوط وسرو وكافور وبلوط، وأنا اسأل أهي أشجار أم أحجار؟ إذا لم يكن هذا بلاهة وحمقا فقسما عليكِ يا نفسي قولي لي ما معنى البلاهة والحمق؟

أشْكُوكَ يا يوسف لربك إن كان موجودا أن ينتقم لي منك، أنت من أرداني، أنت من أهلكني، مهلا يا نفسي، أُفٍ عليك، أتشكين يوسف لإله لا تعترفين بوجوده؟ لماذا لم ينتقم هذا الإله من الظالمين، من الطغاة، من الجبابرة؟ لَم ينتقم منهم، فكيف ينتقم من حبيبه يوسف لملحد مثلي؟

قسما لقد اختلط عقلي، لم أكن أعرف ما حل بي، هِمتُ على وجهي لا أدري إلى أي واد أو إلى أي أرض أو على أي بسيطة ستقف قدماي وتكتفي بالمشي؟ حتى وجدتني في هذه الغابة المقفرة من الناس، متى وكيف وصلتُ إلى هنا؟ لا أدري، ما أدريه أني فضلتُ أن أكون بمفردي، أن أحس بوجودي وحيدا، ما الذي دهاني؟ أشك أني سأجن، هل مجرد التفكير في وجود إله من عدمه يرسل الشخص إلى مستشفى المجانين، لِم لا يرسلني التفكير نفسه إلى الحقيقة؟ الحقيقة التي عنها أبحث، البحث الذي أتعبني، التعب الذي نزل كسحابة على عقلي، عقلي الذي أحِس أنه سيرسلني إلى مستشفى المجانين، ما هذه الدائرة المغلقة التي أدور فيها!؟ ما هذه الحياة التي أعيش فيها!؟ بئس الحياة، أيها الموت أين أنت؟ لا تكن جبانا، اقترب مني، ها أنا ذا، واجهني، أريد مقابلتك، خذني من هذه الدنيا، أترجاك، أنا لستُ في مستواك لأتحداك، بل عبد ذليل لك يرجوك أن تأخذه.

ما هذا يا صامد؟ أين كبرياؤك؟ أين عزة نفسك؟ أجعلت مِن الموت إلها تألهه، تعبده، تتضرع إليه؟ وأنت نفسك الذي ترفض الخضوع والعبودية، صامد اصمد، لن يُفسِد ويُسفِّه يوسف عقلك، ولن يجعلك تخضع لشيء حتى لو كان الموت، الموت لن يأتيني ليتحكم في رقبتي، أنا من سآتيك، نعم أنا من سأختار وقت مجيئك لي، لن تكون سوى ضيف ذليل أسمح له بدخول جسدي، وأعطيه روحي هدية، هدية أعطيها لك أيها الموت بإرادتي، لن تأخذها مني رغما عني، أنا مَن سيقرر متى ستأتيني؟ فكن على استعداد فإني قريب سأدعوك، لا تخف أيها الموت، سأحدد لك المكان الذي ستجدني فيه، أترى هذه الشجرة؟ نعم هذه الشجرة الباسقة ذات الغصون الوارفة، أترى بالضبط ذلك الجذع الممتد؟ نعم هو نفسه، هناك سأستقبلك في جسدي، هناك ستجد حبلا ملتفا حول عنقي، خذ حينها هديتك وامضِ، امضِ في طريقك، لا تسألني أين ستضعها؟ اتركها معك، أو أحيِ بها جسدا ميتا، أو لا شأن لي بها.

لم لا تفعلها الآن يا صامد؟ أرح نفسك من هذا العذاب، أنت بحق لست عاقلا، لو كنت عاقلا لفضلت الراحة على العذاب الذي تعيشه، تأكدتُ أن عقلك قد تركك، ولك مني الدليل على ذلك، ألستَ قد شككتَ قبل قليل في أن إله يوسف موجود؟ وأنا أعرف أن عقلك لن يخونك، فلو كان عقلك معك لما فكرتَ ولو طرفة عين في أن إلهاً ما يوجد على هذه البسيطة، ثم ألستَ تعيش العذاب؟ تعيش

البأس، تحيى المعاناة، ومع كل ذلك تفضل هذا الجحيم على الراحة الأبدية، على النعيم المقيم، فلو كان عقلك معك لتخلصت من حياتك، لتعيش الأمان بدل الألم، والأمن بدل البأس، والطمأنينة بدل التأوه، والارتياح بدل سطوة الحياة على ذاتك، والهناء بدل الوجع.

صامد حقا جُننت، أين هذه الروح التي تتحدث عنها؟ أين هذا العقل الذي ذهب عنك ولم تر ذهابه؟ أيكون العقل هو الإله؟ يقول يوسف إن إلهه لا نراه لكن نرى أثر وجوده، عقلي كذلك لا أراه وقد رأيتُ أثر وجوده، أثْبَتَ وجوده بأن نفى وجود إله يوسف، تربعْ على عرش الوجود، عقلي هو الإله ولا إله غيره، لكن عقلي غادرني الآن، عد أيها العقل وأعدك أني سأحترم وجودك، أعرف أنك تركتني عندما وجدتني أقابل ذلك المعتوه الإخوانجي، أعلم أنك رأيت مني استخفافا بك عندما ناظرتُ يوسف فتركتني، عُد وسأحترمك بل سأعبدك، لكن أنت أيضا أيها العقل تتحمل وزر ما أنا فيه، تركتَ يوسف دفاعا وهجوما يهزمني، يستغل ضعفي، بل ضعفك ويسجل أهدافا في مرماي، أنت ضعيف أيها العقل، لا تستحق العبادة، اذهب إلى غير رجعة، لا حاجة لي بك، سأستبدلك، نعم سأستبدلك بعقل أنثى، الأنثى ألطف، الأنثى أحن، الأنثى أحلى، لا حاجة لي بعقل ذكر، اترك رأسي وارحل، سأخضع لعقل أنثى.

يا إلهي جننتُ، نعم أقصدك أنت أيها العقل، ولا أقصد إله يوسف، لن أعترف بوجودك يا إله يووووووسف.

رفعتُ بها صوتي حتى كادت حنجرتي تتمزق، حتى سمعت صدى صوتي يتكرر في الغابة والجبال.

ـ هون عليك يا ولدي.

ما هذا الصوت، أهو عقلي، أم إله يوسف؟ حانت مني التفاتة خلفي لأجده هو، نعم هو، العجوز، ما الذي أتى به إلى هنا؟ هذا المكان كان أول مكان أراه فيه.

ـ ابتعد مني أيها العجوز، ما الذي أتى بك؟ ماذا تريد؟

ـ كوخي يوجد بالقرب من هذا المكان، كنتُ أمر من هنا فاستوقفني صراخك، ما الذي ألمَّ بك يا بني؟ تحدث ستجد أذني صاغية، وصدري حانيا.

لا أدري ما الذي يمنعني من الصراخ في وجه هذا العجوز، لا أدري لمَ أحس بأن له قَدْرا ورفعة، وأنه يتوجب أن أنزله شأوه ومكانته، فكرتُ لثانية أن أشتمه، أصرخ في وجهه، أضربه، لكن هربت هذه الفكرة من رأسي كفأر جبان.

ـ لا أدري ما بي، أحس باختناق في صدري، بموجة، بل موجات بَحرية غاضبة في رأسي، عواصف رعدية في عيني، غضب، غضب، غضب.

ـ لوكنتَ صادقا ما غضبت، لو كنت مخلصا في تفكيرك ما اختنقت العَبرات في صدرك، كن منصفا ليوم واحد، اعترف بالحقيقة كيفما كانت، اقْبَل الفكرة حتى لو كانت صبارا، رحب بها في روحك حتى لو كانت علقما، دع عنك كبرياءك، عنادك، اخفض أنفك، تقبل ما اقتنعتَ به، حينها ستتأكد أن هذا العذاب غادرك إلى غير رجعة دون أن تجد له أثرا في نفسك.

لم أجبه، لم أقل له شيئا، تركته كعادته يمضي في طريقه كلما نثر كلماته في وجهي، بعدها، كان قد ابتعد، لا أدري لم قلت له بصوت مسموع مرتفع أعدك بذلك؟ لكن عقلي لم يتقبل فكرة وجود الإله، فهل الإله موجود؟

كان بعيدا، رغم ذلك سمعت صوته يتردد في أذني، كأن أحدهم تحدث به بالقرب من أذني، "اسأل نفسك"، ترددت هذه الكلمة في أذني، "اسأل نفسك"، "اسأل نفسك"، "اسأل نفسك".

سألتُها فلم تجبني.

(27)

التنـاغم

آنت جولة جديدة للمناظرة، الكل في موعده، أخذوا أمكنتهم، يوسف يظْهَر بياض أسنانه ابتسامة، صفوان حركاته خفيفة سريعة نشاطا، أما صامد فهو في عالم آخر، كأنه في عالم الموتى وهو جالس معهم، كأنه في معسكر المقبورين وجسده فوق التراب، لن يؤمن، ولن يفكر في أن يؤمن بهذا الإله، لكنه لماذا يأتي إلى هنا؟ من يُرغمه على ذلك؟ هذا ما لا يفهمه هو نفسه، لا جواب له على هذا السؤال، فلا تسألوه.

هَمَّ صفوان بأن يفتتح المناظرة كالعادة ويسأل يوسف عما كان يقصده بدليل التناغم؟ لكن أسكته صامد بكفه، توجه بوجهه جهة يوسف يقول مغضبا.

ـ لا تضيع وقتي، إذا كان في حوزتك جديدا يمكن إضافته وترى أنه يختلف عما سبق فآتني به، وإن كنت تردد نفس كلام الببغاء الذي قلتَه من قبل، فإليك عني، فليس لي وقت لهذا.

استغرب يوسف من أسلوب صامد، حاول أن يبتلع غضبا بدأ يطفو فوق صفحة وجهه، نجح في ذلك، هدأ ثوان قبل أن يتكلم، لكن كانت الصرامة في كلامه جلية، كل الجولات التي مرتْ، أتيتكَ فيها بأدلة وبراهين لو كان للصخرة قلب لخشع قلبها من عظمة الإله، لكن يبدو لي أن قلبك أقسى من الصخرة، وأشد من الحجر، هكذا قال له، لكن ومع ذلك قد وافاه اليوم بدليل جديد يدل على وجود الله، وهو كما قال سابقا يسمى دليل التناغم، أي دليل العناية والتسوية والإبداع والإتقان، فما يمكن ليوسف فعله الآن هو أن يفتح بصيرته على هذه الأدلة، أما إقناعه واقتناعه بوجود الإله، فذلك ليس من شأن يوسف، قال ذلك ثم أردف شارحا وكاشفا عن دليله الجديد.

ـ يا سيدي، المقصود بدليل التناغم هو أن هذا الكون الذي نعيش فيه، على درجة كبيرة من الإتقان والإبداع والدقة التي لو أنها اختلت شيئا ما، لما كان هذا الكون موجودا، فهو قد ظهر إلى الوجود بمُعايرة دقيقة للكثير من الثوابت الفزيائية والطبيعية، والتي لو اختل ثابت منها بقدر جزء مليار مليار جزء لاختل الكون قبل أن يبدأ، أو لتوقف عند مرحلة البيضة الكونية، وهذه الثوابت من البديهيات عند العلماء التي لا يقوم العلم التجريبي بدونها، حتى إن الفيزيائي روبرت لافين قال في كتابه "كون متميز: إعادة ابتكار الفيزياء من أساسها"، قال: "علماء الفيزياء يقومون على فرضية

مسبقة أن العالم دقيق ومنظم، وأن أي فشل للعلم في تعزيز هذه الرؤية هو قلة إدراك بسبب عدم الدقة في إجراء القياسات الكافية".

إذن بناء على ذلك، فلا يمكن أن يكون الكون نتج عن طريق الصدفة أو العشوائية أو عن أكوان غير عاقلة، لابد مع هذه الدقة أن يكون مُوجِد هذا الكون صانعا مُبدعا مُتقنا عالما بما يصنع ويفعله.

فهذا ستيفن هوكينج الذي تستدل بأقواله دائما، يقول في كتابه "موجز تاريخ الزمن": "إن سرعة توسع الكون سرعة حرجة جدا إلى درجة أنها لو كانت في الثانية الأولى من ظهور الكون أقل من جزء من مليون في مليار جزء لانهار الكون حول نفسه قبل أن يصل إلى وضعه الحالي"، فقل لي بالله عليك من ضبط تمدد الكون بهذه الدقة؟

يقول ماكس تيجمارك عالم الكونيات الأمريكي: "لو كانت القوى الكهرومغناطيسية أضعف عما هي عليه ب 4% فقط، لانفجرت الشمس فور تكونها، والنتيجة ذاتها إذا زادت القوة الكهرومغناطيسية عما هي عليه، إن ثوابت الكون الطبيعة تبدو معدة بعناية عند مستوى ما، فلو كانت القوى النووية أضعف مما هي عليه الآن لما تكون الهيدروجين، ولظل الكون مجرد غبار

كوني"، فقل لي بالله عليك من ضبط القوى الكهرومغناطيسية بهذه الدقة؟

لو كانت النسبة بين كتلة البروتون إلى كتلة الالكترون أقل قليلا مما هي عليه لما وجِدَتْ نجوم مستقرة، ولو كانت أعلى قليلا لما ظهرت الأنظمة التشفيرية في خلايا الكائنات الحية DNA، لأن الأنظمة التشفيرية تعتمد على توازن ذرات الكربون التي تشكل القواعد النيتروجينية في أنظمة التشفير، فقل لي بالله عليك: من ضبط نسبة البروتون والالكترون بهذه الدقة؟

قوى الجاذبية لو كانت أقوى قليلا مما هي عليه الآن لما استغرقت حياة الشمس ـ التي ستتكون بعد ذلك ـ أكثر من عشرة آلاف سنة، فقل لي بالله عليك من ضبط قوى الجاذبية بهذه الدقة؟ حتى قال ليونارد سوسكايند أستاذ الفيزياء النظرية بجامعة ستانفورد والمؤسس لنظرية الأوتار الفائقة، أن مُعطياتنا عن الثوابت الكونية، مثل النسبة بين الإلكترون والبروتون تقف كلها على حد سكين، نعم يا صامد ثوابت تقف على حد سكين دقيق وكلها مستقلة عن بعضها البعض.

أترى الأرض يا صامد؟ مَن سواها بحيث تصلح مهدا ومستقرا للإنسان، وحتى للنباتات؟ فلو كانت قشرة الأرض أسمك مما هي بمقدار بضعة أقدام لامتص ثاني أوكسيد الكربون

الأوكسجين، ولما أمكن وجود حياة للنبات، أترى الجَمَل، من أعطاه الصورة الخَلقية التي تُلائم عيشته وأسفاره الطويلة في الصحراء؟ فقد خُلق برقبة طويلة تُعلي رأسه وتنأى بنفسه عن غبار الرمال، ومنح شفة مشقوقة يستطيع بها أن يتناول أشواك البوادي دون أن تُؤذيه، وأُعطي سناما يختزن فيه الدهن إن أعوزه الطعام يوما في الصحاري القاحلة، من فعل ذلك بالله عليك؟

مَن جعل الماء بمقداره فلا تغرق الكرة الأرضية؟ من جعل الشمس تدور في مدار محدود ولا تصطدم بكوكب آخر؟ فلا يوجد احتمال أن يقترب مجال مغناطيسي لنجم مِن مجال نجم آخر أو يصطدم بكوكب آخر، إلا كما يُحتمل تصادم مركب في البحر الأبيض المتوسط بآخر في المحيط الهادي، يسيران في اتجاه واحد وبسرعة واحدة، وهو احتمال بعيد بل مستحيل.

ثم إن الشمس لو انزاحت عن مدارها الذي تسير فيه وابتعدت عنه فإنه سيتجمد كل شيء في الأرض، ولو انزاحت عن مدارها الذي تسير فيه واقتربت من الكرة الأرضية فإنه سيحترق كل شيء في الأرض، بل يقول كريسي موريسون: "تدور الكرة الأرضية حول محورها مرة في كل 24 ساعة، أو بمعدل نحو ألف ميل في الساعة، والآن افرض أنها تدور بمعدل مائة ميل فقط في الساعة، ولم لا؟ عندئذ يكون نهارنا وليلنا أطول مما هو الآن عشر مرات، ففي هذه الحالة قد تُحرِق شمس الصيف الحارة نباتاتنا في كل

نهار، وفي الليل قد يتجمد كل نبات الأرض"، فقل لي بالله عليك يا صامد من ضبط دوران الشمس والأرض بهذه الدقة؟

كان يوسف يتحدث ويشرح ويناقش بمفرده، صامد في عالم آخر كأنه جثة هامدة، استفز يوسف برود تجاوبه، سكت عن الكلام، رمقه بنظرة متفحصة.

ـ هل تَعي ما أقوله، هل تُنصت لي؟

سؤال يوسف اقتلع صامد من جفلته، جاءه الصوت كأن مَن صاح به في جزيرة نائية، أو كأن صامد نفسه في عالم الأموات وجاءه الصوت من عالم الأحياء، كان يسمع موجات صوتية، لم تسمح له أذنه بفك شفراتها، وحين سمع سؤال يوسف قال بلا مبالاة.

ـ لم أقتنع.

لم يغضب يوسف، صفوان هو من غضب، ثار في وجه صامد يُسائله كيف لم يقتنع؟ كيف أن كل ما يقوله يوسف نظام دقيق يحتاج إلى من يوجده وأنت لم تقتنع به؟ حدج يوسف في صفوان يطلب منه الصمت، ثم توجه إلى صامد قائلا:

ـ مِن حقك ألا تقتنع، لكن من حقي أنا أيضا أن تُقنعني، بما أننا في مناظرة فأقنعني من وضع هذا الإتقان العظيم في الكون؟ فأنت تؤمن مثلا أن من صنع المصباح يعلم تماما معنى الكهرباء

ومساراتها، وفائدة المصباح وحساسية الفتيلة، ولذا فوجود المصباح دلالة مباشرة على أن له صانع مُتقن، إذن لهذا المصباح نظام به تعقيد لا يمكن تبسيطه، وبالتالي فيه دلالة أولية تفيد الصنع المتقن، وإذا كنت تنفي الصنع المتقن عن المصباح أو تفترض ظهوره بالصدفة فأنت المطالب بالدليل ولست أنا، فهذا مجرد مصباح يتكون من أربعة مكونات، فما بالك بالإنسان الذي يتكون من 3 مليار مكون في كل خلية من خلاياه؟ وما بالك بمكونات الكون؟ فقل لي من أتقن صنعه؟ من أوجده؟

ـ لا أعلم.. ! لا أدري.. ! لم أعد أدري شيئا مما تقوله.

قال ذلك صامد بيأس، بدأت الدمعات تجتمع وتترقرق في عينيه.

لم يرحمه يوسف، أكمل يسأله سؤالا بعد آخر، وكأنه يريد منه أن يجعله مُنهارا تماما:

ـ يا صامد من وضع صمامات معدتك حتى لا يرجع الطعام إلى فمك فتتأذى؟ من وضع صمامات الإخراج على مؤخرتك وقضيبك حتى لا تتأذى ثيابك في كل لحظة؟ من جعل قوة ضخ القلب للدم تتعادل مع الطاقة التي تحتاجها العضلات بحسب الجهد المبذول؟ من جعل عظام جمجمتك لا تلتحم حتى تنزل من بطن أمك آمنا بسهولة ويسر؟ فلو كانت ملتحمة يا صامد لما نزلتَ من بطن أمك إلا بعد تكسرها. وعندما تأكل فاكهة ما وتتلذذ بطعمها، قل لي من

ضبط كمية السكر بها بحيث ترُوقك؟ من يجعل براعم النباتات تتجه بعد الإنبات مباشرة نحو مصدر الضوء إلى أعلى، وتتجه الجذور نحو الأسفل وهي غير عاقلة؟...

بحركة غير اعتيادية ولم يتوقعها يوسف وصفوان قام صامد من مكانه ودفع الطاولة نحوهما حتى اصطدمت بساق صفوان وجعلته يتوجع ألما إثر ارتطامها بساقه اليمنى، أتبع فعله ذلك بصراخ وهو يقول:

ـ عن أي إتقان تتحدث، عن أي إبداع تتفوه، الزلازل، الأمراض، البراكين، الأوجاع، هل هذا هو الإتقان؟

صبر صفوان، أو تصبَّر، ابتلع ألمه، بينما قام يوسف يُهدئ من روع صامد، أجلسه، أعطاه كوب ماء، صفوان أزاح وجهه عن صامد، لم يكلمه، لم ينظر في وجهه، بعدما مرت العاصفة قال يوسف بهدوء:

ـ عدم وجود أشياء غير متقنة في الكون كوقوع زلازل وحدوث أمراض لا ينفي عنه وجود الإتقان فيه، بل بالعكس يؤكد وجود الإتقان فيه، فكيف حكمت على هذه الأمثلة التي ذكرتها بأنها تناقض الإتقان لو لم تكن تعرف معنى الإتقان في الكون، فلو لم يكن ثمة إتقان أصلا لما أدركتَ وجود أشياء غير متقنة، فكيف تتحدث عن عيب في التصميم في عالم بلا تصميم؟ فالكون متقن،

لكن ما يقع فيه من أمراض وزلازل لغاية ما، لحكمة، كما أن الكون ليس إلها ليتصف بالكمال المطلق.

هدأ صامد، أو زعم الهدوء وهو يتكلم بروية:

ـ تقول الإنسان مخلوق متقَن، ما الفرق بينه وبين الكمبيوتر الذي خلقه الإنسان نفسه؟ هذا الكمبيوتر مثل الجين الأزرق يستطيع القيام بأكثر من مائتي ترليون عملية حسابية في الثانية، إذن فالإنسان نفسه إله أتقن صُنع ما صَنع.

حاول يوسف أن يُخفي ابتسامته وهو يقول:

ـ لكن بكلامك هذا تعتبر أن الكمبيوتر ذاتا أو كيانا مستقلا كالمخلوقات مثل الفراشة أو الإنسان، لكن الكمبيوتر ليس ذاتا أو كيانا مستقلا، ولا يسعى للحفاظ على ذاته ولا هدف له أو غاية من وجوده كالكائنات الحية، ثم الكمبيوتر لا يُدرك ما يفعل عند قيامه بعملية معينة، فعمليات الكمبيوتر مجرد نبضات كهربائية تستخدم رمزين صفر وواحد، بل لن يقوم بأي عملية دون تدخل الإنسان، ثم إن الإنسان عند تفكيره بالإفلاس أو الفقر مثلا تتأثر نفسه، أما الكمبيوتر فلا يتأثر بشيء، ثم هل الكمبيوتر يفهم الموسيقى التي يُذيعها؟ ويستمتع بالأناشيد ويَطرب معها، طبعا لا.

قال هذه الجملة الأخيرة وهو ينظر لصفوان لعله يلحظ ابتسامته أو ضحكته كالعادة، لكن لم ير تأثيرا للجملة عليه، فالتفتَ لصامد وهو يُكمل:

تقول مجلة العلوم الإنجليزية: "إن يد الإنسان في مقدمة العجائب الطبيعية الفذة وإنه من الصعب جدا بل من المستحيل أن تبتكر آلة تضارع اليد البشرية من حيث البساطة والقدرة وسرعة التكيف" فأين الكمبيوتر من هذا؟

بل إن جزءا من أذن الإنسان ـ الأذن الوسطى ـ هو سلسلة من نحو أربعة آلاف حنية (قوس) دقيقة ومعقدة، متدرجة بنظام بالغ، في الحجم والشكل، وهي معدة بحيث تلتقط وتنقل للمخ بشكل ما كل وقع صوت أو ضجة من قصف رعد أو حفيف شجر.

أما مركز حاسة الإبصار في العين فإنها تحتوي على مائة وثلاثين مليونا من مستقبلات الضوء وهي أطراف الأعصاب، ويقوم بحمايتها الجفن والأهداب الذي يَقيها ليلا ونهارا، وحركة الجفن علاوة على هذه الوقاية فإنها تمنع جفاف العين، أما سائل الدموع فهو أقوى مطهر.

ومثل هذا الإبداع يظهر في الجهاز الذوقي من خلال الخلايا الذوقية التي تنقل الذوق للمخ فيستشعر ماهيته، فاللسان يحتوي على

تسعة آلاف من نتوءات الذوق الدقيقة يتصل كل نتوء منها بالمخ بأكثر من عصب.

ونحن إذا نظرنا إلى الهضم فإننا نجده كعملية في معمل كيماوي، نضع في هذا المعمل أنواعا من الطعام على سبيل البقاء على قيد الحياة، ومن بين هذا الخليط تختار المعدة منها ما فيه فائدة وذلك بتحطيم كل صنف من الطعام إلى أجزائه الكيماوية دون مراعاة للفضلات، وتعيد تكوين الباقي إلى بروتينات جديدة تصبح غذاء لمختلف الخلايا التي يصل عددها إلى بلايين الخلايا، فهذا المعمل الكيماوي ينتج من المواد أكثر مما ينتجه أي معمل ابتكره ذكاء الإنسان.

بل إن عقلك يا صامد، عقلك وحده يدل على أن هناك من أوجده، فكل الكائنات أعْطِيتْ قوة معينة، أما الإنسان فأعطي قوة العقل يُخضع بها باقي الكائنات الأخرى، ويصنع بقوة العقل كل ما هو محتاج إليه، بل وصل الإنسان بهذا العقل إلى أن عَرف مَن خَلقه.

لن أطيل عليك، كل هذا الإبداع يوجد في جهاز الإنسان العضلي والعظمي والهضمي والدموي والتنفسي والتناسلي واللمفاوي والعصبي والبولي وغيرها من الأجهزة.

كلام، كلام، كلام، كتب، كتب، كتب، يوسف، صفوان، صفوان، يوسف، مكتبة، المكتبة تدور، دوران الأرض، دوران المكتبة، هراء، كل شيء هراء، جبناء، جبناء، أكرهكم، أكرهكم، سأنتقم منكم، كلام فارغ، كلام تافه، ظلام، سواد، نجوم، سواد حالك...

صمتَ يوسف، بل مِن الأصل هو مع مَن يتحاور، صامد غير موجود، موجود بجسده فقط، بل موجود بأحاسيسه، يرى كل شيء حوله يدور، يسمع الكلام لكن هذا كلام يدخل من باب إحدى أذنيه، ويخرج من باب أذنه الأخرى، كل شيء هراء، لم يقتنع بشيء، ما يراه مجرد أجسام وأشياء، لا فرق عنده بين الكلام الذي يسمعه، وصفوان الذي يشخص ببصره نحوه، ويوسف الذي يكلمه، والمكتبة والجالسين بداخلها، اختلط كل شيء بكل شيء، لم يعد يريد أن يعرف شيئا، أو يؤمن بشيء، أو حتى ينفي وجود شيء، وفي لحظة لم يتوقعها أحد، وقف صامد وقد اشتعلت نار الغضب في صدره، أصبحت عيناه جمرتين بُركانيتين، بل أصبح كثور إسباني هائج من شدة تلقيه لخناجر المروضين ورماحهم، ضرب أحد رفوف المكتبة بيده فأسقط عدة كتب، ثم توجه بأصبعه يشير به جهة يوسف يُحذِّره.

ـ إياك أن تقترب مني مرة أخرى، انتهى كل شيء بيني وبينك، لن أؤمن بإلهك هذا أبدا، ولن أدخل مكتبتك مرة أخرى ما بقيتْ قدماي تمشيان على الثرى.

قالها وهو يرعد ويبرق، ثم خرج يدفع باب المكتبة بقوة حتى كاد زجاجها ينكسر.

ـ ما كان عليك المضي في مناظرته ومناقشته عندما رأيته على تلك الحال.

قالها صفوان، أما يوسف فقد تجمد في مكانه دون حراك وكأن عقله مخطوف، لم يجب صفوان، ظل صامتا.

*****

(28)

مصائب سوداء

السواد الأعظم، ظلمات بعضها فوق بعض، الكل يريد أن يُغرق صامد في سواد أعظم، الليل اتفق مع النهار على أن يتخلى عن ضوئه، فأغرَقوا صامد في ظلمات سرمدية بعضها فوق بعض ليل نهار، القمر والشمس في صفقة مشبوهة امتصا نورهما فتركا صامد في ظلمات بعضها فوق بعض، لا الشمس تضيئ ولا القمر يُنير، البحار والأنهار والأشجار والأحجار، الماء والهواء، بل الكون كله اتفقوا على أن يجعلوا صامد في سواد أعظم، أرادوا أن يَسْلبوا حياته، فسلبوا حياته وحياة غيره، لم يُشفقوا عليه وهو يتعارك مع مصائبه، لقد انهزم معها، اترُكوه، كفى، لكنهم ألحقوا به جنودا أخرى من المصائب ليردوه قتيلا، لم يرحموه وهو في ذهول من مصائبه التي هو فيها سابحا، فظنوا أنه يتمتع بالسباحة ويقول هل مِن مزيد؟ فزادوه مصائب جديدة، لم يشعروا بأوجاعه وآلامه، فخَالوا أن جسمه يحتمل أكثر مما يحتمل، فأنزلوا عليه سوط عذابٍ موجع ذهب بعقله أو كاد، رأوا جسده يفقد رويدا رويدا شحمَه

ولحمَه ويَرِق عظمُه، وينقص دمُه، فقدَّروا أنه يزداد منها، فعالجوه بما جعله يفقد منها النصف، نصف شحم ولحم وعظم ودم فقدها من جسده بعد هذه المصائب الثلاث الجديدة.

ماتت حبيبته، ماتت أمه، توفيت السيدة رقية بعد صراعها مع ذلك المرض الخبيث، مرض السرطان، قالوا له أن آخر كلام نطقَ به فمُّها، بل فؤادها أنها سألت عن ابنها صامد، أين هو؟ اشتقتُ لرؤيته؟ نعم في الأيام الأخيرة كان يزورها كثيرا، لكنها اشتاقت مع ذلك لرؤيته، قالت لهم، لا تقلقوا عليه، ولا تُقلِقوه، قريبا سألتقي به في روضة خضراء، أحبك ولدي، لم يفهموا ما تقصده، أما هو فتلك الكلمات اعتبرها مصيبة فوق مصيبة موت أمه، كأنه تلقف المصيبتين، مصيبة موت أمه، ومصيبة ختمِ حياتها بسؤالها عن ابنها وأحواله، أين أنت أيها الموت لأنتقم منك؟ كيف لم أشم رائحة موتها قبل موتها؟ أليس للموت رائحة؟ مُقصر في حقها أنا نعم، عاق لها نعم، مهمل لها أكيد، لكن أحبها، يُحبها، ولا يحتمل شعرة أن تُلمسَ من رأسها، ما زاده ألما وسوداوية أنه يُرجع اشتداد مرضها لليوم الذي أعلن فيه عن إلحاده، ذلك الخبر كان صاعقة نزلت على قلب أمه، ورحمة على مرض السرطان، فتعاون هو والمرض على أمه فأردوها طريحة الفراش، ثم طريحة القبر.

قلبه يعتصر ألما مُرا، يوزعه على أهله في كؤوس فيكفيهم ويبقى معه الألم نفسه وكأنه لم يوزعه عليهم بالتقسيط، أخته

وزوجه نسيتا مصيبة موت الأم وانشغلتا بما حل بصامد، حالة صامد أصبحت لونا قاتما غطَّ على سواد موت الأم، تحلقوا حوله، يُصبرونه، يواسونه، يخففون عنه، لكنهم يخففون عن الجسد، أما الروح والعقل فقد غدرا به وغادراه، هكذا يُحس، يُحس أن جسده فوق التراب تراب، وأن رأسه المسند على الجدار جدار، وأن يده التي تتكئُ على العصا عصا، وأن جلده الملتصق بالثياب ثياب، أما هو فليس هو، غاب عنه وعيه أو غاب هو عن وعيه، تركتاه أخته وزوجه، بعدها أدركتا للتو أن الأم قد ماتت، انقشع سواد حالة صامد ليظهر لهما سواد مصيبة موت السيدة رقية.

السيد فهمي، لم ينتبه له أحد، ببساطة لأنه لم يُحدث ضجة صامد، لم يرقص كما رقص صامد مذبوحا من الألم، لم يركل ويرفس برجليه ويديه كما فعل ابنه، كان مذهوبا بعقله، رفضت أعضاؤه خدمته، رفضتْا رجلاه حمله فجلس على كرسي، رفضتا يداه خدمته فوضعهما على جنبيه، رفض لسانه النطق فأخرس كلامه، رفض رأسه الحركة فعاد به إلى الخلف، وحدهما جفناه بقيا وفيان له، ولكي يُظهرا وفاءهما المنقطع النظير له كانا يخدمانه بشكل سريع، كانا يرمشان بنسبة مرتفعة عن المعدل الطبيعي.

ما زالت له ذاكرة، ذهب بها بعيدا، بعيدا جدا، يوم رآها مقبلة عليه في ورشته، بابتسامتها البريئة، وحيائها الأخاذ، وملابسها

المحتشمة، لم يرفع نظره فيها، لكن قلبُه فعل، رآها بقلبِه، أحبها زوجا فخطبها من أهلها.

لن ينسى الأيام الأولى من زواجه بها، كانت رشيقة كالفراشة، جميلة كالغزالة، خفيفة الظل كالحَمَل، حنونة كالحمامة، أحبها، بل أحبها، بل أحبها حتى غار الحب من حبه لها، لم يكن يتصور يوما أن تتركه، كان احتمال يستحيل حصوله، لكنه نسي أن الموت على روح الخلق قدير.

أجمل يوم في حياته، بل ليس هناك يوم أجمل من آخر معها، فكل أيامه معها جميلة، هو اليوم الذي منحته صامد، اليوم الذي سمع فيه الصرخة الأولى التي خرجت من حنجرته.

وهو الآن يسمع الصرخة الأخيرة لصامد، استيقظ صامد من غيبوبته بصرخة صرخها رجَّ لها زجاج النوافذ، كان صامد هو الآخر يسترجع ذكرياته مع أمه، لا يدري لما جاءته من بعيييد، من الفضاء المظلم جاءته ذكرى تذكرها الآن، عندما كانت أمه تُعلمه المشي، تشد في يديه، تحرك رجله الأولى ثم الأخرى كلعبة، كم كانت فرحتها عظيمة عندما خطا أولى خطواته، تذكر ذلك فصرخ.

عاد السيد فهمي بعد صرخة ابنه الأخيرة إلى صرخته الأولى، بعدها كان يرى ابنه يكبر أمام عينيه، حرص على سلامة تربيته، لكنه كان كابن نوح، ماذا كان ينقص نوحا حتى يجعل ابنه

يركب معه في سفينة النجاة؟ وماذا كان ينقصه حتى يركب معه ابنه في سفينة الإسلام؟ ماذا كان ينقص نوحا حتى لا يكون ابنه من المغرقين؟ وماذا كان ينقصه حتى لا يكون ابنه من الغارقين في لجج الإلحاد.

كانت زوجه تسانده في تربيته، كان صارما وكانت متساهلة، كان شديدا، وكانت لينة، كان قاسيا وكانت رحيمة، كان غليظا وكانت ينبوع الحنان.

نعم يتذكر أمه ينبوع الحنان، تعطف عليه إذا اشتدت به عواصف أبيه، تحميه إذا جاءته ريح هوجاء من والده، لولا أمه لما وقف على رجليه، فمن سيصبر عليه كأمه ليُعلمه المشي، كبر وكبر معه حبه لأمه، لكن لم يكبر معه اهتمامه بها اهتماما يليق بسنوات رعايتها له صغيرا وكبيرا.

بعد صامد منحتْه جمانة، أدخلت زوجه على قلبه ثلج الغبطة والبهجة في قيظ الصيف، أحبها كحبه لصامد، ثم بدأ يميل مزان الحب لها، حتى مالت كفة جمانة على كفة صامد في ميزان قلب السيد فهمي، ومع أن القلب بين أصبعين من أصابع خالقه لا يتحكم فيه، إلا أنه كان يعدل بينهما في العطية، ويجعلهما على السوية، لكن وإن مالت كفة الحب جهة جمانة، فإن حبه لزوجه لم يكن له

شبيها، ولم يكن له مثيلا، فحب أبنائه شيء، وحبه لزوجه شيء لا يوصف، ولا يبلغ إلى مستواه في قلبه مخلوق.

كان يُحب أمه، هي كل شيء كانت في حياته، أما وقد ماتت فمن له غيرها، تمنى في لحظة لو أخطأ هذا الذي يسمونه ملك الموت فيأخذ هذا الذي يسمونه الروح، يأخذه من أبيه بدل أمه، لكنهم يقولون إن هذا المخلوق لا يُخطئ، فهذه الكلمة ليست موجودة في قاموس ملك الموت، فإن أراد أن يَنفصل هذا الشيء الذي يمشي إلى السماء عن جسدك يفعل ذلك في الزمان والمكان الذي يريده دون أن يحيد عنه قيد أنملة.

ترعرعا ابناه، وترعرع معهما حبه لزوجه، غاليته، من يُعوض مكانها في قلبه، مكانها سيبقى لها في قلبه، لكن كيف يحتمل أن يكون لها مكان في قلبه، دون أن يكون لها مكان بجانبه، الموت أهون عليه من أن يعيش يوما دونها، اليوم الذي سيستيقظ فيه فلا يجد زوجه بجانبه أشد على قلبه ألما وبأسا، فيا صاحب الملكوت أخذتَ روحا فلا تبقِ توأمها.

جعل الناس يأتون إلى دار السيد فهمي لتعزية الأهل والأحباب في موت السيدة رقية، كان حسن أول من دلف الدار، قدَّم التعازي لجمانة التي تماسكت ولم تنهر مثلما انهار بنيان أبيها وأخيها، ثم انحنى على كرسي السيد فهمي يعزيه دون أن يرد

الآخر عليه بكلمة، كان صامد قد استعاد بعض وعيه، غسل وجهه ووقف يستقبل الناس دون أن يدري ما يقول لهم بعد أن يعانقوه ويقدموا له التعازي، كان يتمتم بكلام غير مفهوم، حسن نفسه وقع له مثلما وقع لصامد، عندما وصل إليه، احتار ما الذي سيقوله له، أيقول له، أسأل الله الرحمة لوالدتك، أم يقول له أجرُك عند الله، نسي حسن في هذه الظروف الحزينة عداوته مع صامد، رفض أن يُصنفه على حسب عقيدته، على الأقل في هذه المناسبة الأليمة، لكن ومع ذلك لم يجد ما يقوله له، فاكتفى باحتضانه ومعانقته، دون أن تنبس شفتاه بكلمة.

لم يحدث هذا لحسن فقط، بل بعدها بدقائق جاء يوسف، واحتار ما يقوله، فاكتفى بأن فعل معه مثلما فعل الأول، لكن لم يَبرحه، ظل معه يواسيه، يحثه على الصبر والمصابرة والتصبر، يحرص ما أمكن ألا يذكر كلاما يخالف معتقد صامد، لكن صفوان بعدما جاء لم يكن حريصا كالأولين، عزاه كما يعزي المسلمون بعضهم البعض، كيف لا يفعل ذلك وهو صديقه؟ كتاب حياته، بعد مجيئهما علما لِمَ كان صامد في أوج غضبه في المناظرة؟ لأنه علم أن حالة أمه تأزمت بشكل فظيع، وأن الموت ينتظرها، ومع ذلك جاء في ميعاده إلى المكتبة للمناظرة.

جاءت في اليوم نفسه أخت يوسف، ظلت مع أميمة وجمانة يوما كاملا تساعدهما، والتحقت بهم التلميذة براءة أيضا، أميمة

كانت دموعها على خدها نهرا يجري دون انقطاع، ألموتِ أمِّ زوجها أم لرؤيتها لزوجها بعد أن أغلق اتصالاته عليها، ورَفْضُه رُؤْيَتَها لخمسة عشر يوما كاملة؟ لا تدري ماذا جرى له، لكنها تركته لشأنه، أما الآن وهي تبكي، فلا شك أن بكاءها على السيدة رقية لا على رؤيتها له، لكن لم تره إلا دقائق، فقد دخل غرفته وأغلق عليه، فلم ير قدوم براءة ولا أخت يوسف، أخت يوسف التي لم يرها قط، ولا يعرفها.

الكل استغرب من رباطة جأش جمانة، لكنهم لم يكونوا يعلمون أنها بعد يومين ستنهار بكاء كانهيار ناطحة السحاب، ولم يكن كل هؤلاء الناس يعلمون أنهم بعد يومين سيعودون لتقديم التعازي مرة أخرى.

رحلت السيدة رقية إلى حياة أخرى، أما صامد فلا تسألوه أين ذهبتْ؟ هو لا يدري ولا يريد أن يعرف، انكفأ على نفسه، ونسي الدنيا كلها إلا من ذكريات أمه، بعدها وقعت مصيبة جديدة لم تُحرك في قلبه شيئا، كأن المصائب وصلت إلى درجة لم يعد لها تأثير على نفسه، أو أن ما سمَّوها "المصيبة"، هي بالنسبة له ليست بمصيبة.

لم يتحمل السيد فهمي فراق زوجه، فلحق بها، كان قد أصيب بشلل نصفي، وكان كل شيء قد توقف فيه إلا حارساه، جفناه،

وسيدُه، قلبه، لكن يبدو أن الأعضاء حسدوهما، فقاموا بثورة أتت على الأخضر واليابس من أجل الإطاحة بسيدهم القلب، نجحوا في ذلك، عزلوه عن منصبه، وكان القرار بيده فأغرق سفينتهم بهم، وتسوت بهم الأرض.

مات السيد فهمي بعد زوجه بيومين، بجلطة قلبية حادة إثر ارتفاع ضغط الدم، وتأثير الضغط النفسي كما قال الأطباء، المصيبة الجديدة كانت على قلب صامد بردا وسلاما، بل كذبابة مرت على أنفه فهش بيده عليها، بل لنقل إنها لم تكن شيئا مذكورا في باله، أما جمانة فقد انهارت تماما، بكاء وعويلا، تماسكت ما أمكنها التماسك، ثم استسلمت لنفسها لولا أن وجدت أميمة بجانبها.

كان كل معارف صامد قد أتوه معزين، إلا رامز، لم يسأل عنه إطلاقا، بل سأل عنه، اتصل به يُنبهه إلى أن الثلاثة أيام قد مرت، وعليه الالتحاق بعمله في اليوم الموالي، لكن كيف لصامد أن يستأنف عمله وعقله ليس معه؟ أخذته أمه، وقبل ذلك أخذته تناقضات حياته، اعتذر منه أنه لا يستطيع استئناف عمله في الغد، لكن كان له رامز بالمرصاد، إما غدا أو تعويضك بآخر، وكأن رامز لا يعرف من هو صامد، وكأن رامز تخْفى عليه شخصية صامد العنيدة التي يُغلِّفها الكبرياء، أو ربما يعرف ذلك فقال ما قاله ليتخلص منه.

ضحك صامد في نفسه بكبرياء وسخرية، مرحبا بالمصائب، يقولون إن الفواجع والأحزان إذا قصدتك وتوجهت نحوك، فإنها ما تنفك عن زيارتك، حينها تشرع في الإتيان إليك تترى، بل وقد تأتيك مجتمعة، تأتي دون مقدمات، دون أن تعلن عن نفسها أو تستأذن منك لتأذن لها، فإذا أرادت نائبة الدهر أن تنال منك، جيشت جيوشا من أصدقائها ومعارفها وأصحابها فانهالوا على رأسك دون أن يتركوه إلا وقد أردوك طريح الفراش، خائر القوى، حائر البال، فمرحبا بها، بما أنكم اتفقتم على صامد، فأنا لها، أنا مستعد لكن كلكن يا مصائب العالم.

ـ رااامز، لا أستطيع استئناف عملي في هذه الأيام، ألا تدري أن أمي وأبي قد ماتا؟ أنت عديم الضمير، أنت وحش كاسر، لا رحمة في قلبك، أنت جبان، أناني، مُتغول في ذاتك....

كان صامد يصرخ في الهاتف بتلك الكلمات، فجاءه صراخ رامز يقطع صراخه.

ـ اعتبر نفسك من الآن مفصولا عن العمل، سيصلك أجرك إلى حسابك أيها الخائن، أيها المنافق، صاحب العشرة آلاف وجه، يا من لا يحفظ أسرار المجالس، وينشرها على الملأ.

قطع اتصاله، لكن المصائب قد اكتملت في قلب صامد منذ زمان، فلم تعد تؤثر فيه، لم يعد يحس بها، أنت مفصول عن العمل،

كأنه قال له أنه يحبُه، لا فرق عنده الآن بين الخير والشر، بين الطيب والقبيح، بين الآلام والآمال، بين الحب والبغض، بين الأبيض والأسود، كل شيء سواء في المصائب كما في الإلحاد، وكأن الإلحاد مصيبة سوداء.

بينما كانت الخطوب والدواهي والمصائب تعيث داخل البيت وتجعل الكل يشرب من كأس الأحزان والشقاء، كانت السماء هي الأخرى خارج البيت حزينة باكية، لم يَنْبَتّ المطر عن الهطول لثلاثة أيام متواصلة وكأنها تبكي السيدة رقية والسيد فهمي، ابتلت الحقول وشربت من دموع السماء حتى ارتوت، وغضبت الرياح غضبها وزمجرت، ورقصت الأشجار حزنا لا طربا.

*****

(29)

(صامد)

الانتقام من الحياة

سيطرتْ الرياح على غضبها، ولبستِ الأشجار لباس العفة وكفت عن رقصها، وجفت دموع السماء، وشربتْ الأرض مخزون المياه، وحاولتْ الحياة أن تعود إلى طبيعتها داخل بيتنا كما عادت إلى طبيعتها خارج البيت، هدّأتْ أختي من روعها بعد أن جفت دموعها، استأنفت دراستها في الكلية، وأمسكت حزنها في قلبها، ولربما انتهى حزنها إلى الأبد فقد أفرغته كله من قلبها في الأيام الماضية، لم أكن أقل منها حزنا، لم أكن حزينا بمعنى الحزن، لكن شعورا غريبا تلبس قلبي أثناء تلك الأزمات وقبلَها، لربما لو أن هذه المصائب لمَّا جاءت وجدتني بأفضل حال، لَمَا استطاعت أن تُرهقني كما أرهقتني عندما جاءت فوجدتني مكتئبا كئيبا مضطربا مهموما مغموما واجما، فلما وجدتني كذلك وجدت تربة خصبة ليترعرع ذلك الانهيار الذي أصابني.

منذ أيام وأنا لا أكلم أحدا، لا أختي ولا زوجي التي لم أكلمها أو أتصل بها منذ ما يقارب الشهر، فأما أختي فتركتني لحالي، وأما زوجي فكانت تتصل بي بداية، ولما استيأستْ اعتزلتْ رقمي.

كنت أحجِز نفسي في غرفتي، لا أخرج إلا لأكل أو قضاء حاجة، لبِسني الاكتئاب حتى ما عادت نفسي تتوق لشيء، كرهت الدنيا وأهلها وأرضها وسماءها، أي حياة هذه التي لا تشفق عليك وتقذفك بالمصائب من كل جانب؟ فبعد أن أصابتني مصيبة الشك وعدم الارتياح، والفضول لمعرفة من أوجد الكون وما تبع ذلك من اضطراب وقلق، حتى قذفتني الحياة بمصيبة جديدة أفظع وأدهى عندما ماتت أمي، لم تكتف بذلك بل جعلت والدي يموت أمام عيني دون أن أعالج من أمره شيئا، لتأتي مصيبة جديدة تُفقدني عملي، لم تقتنع الحياة بكل هذه المصائب بل أغرقتني في الاكتئاب، لتتربع على عرشها ساخرة مني، مستهزئة.

فما الصِّلة التي ستجمعني بهذه الحياة بعد عداوتها معي؟ أي حب وأي وُدٍّ سأكنه لها بعد أن أخذت مني أعز شخص أحبه؟ كيف سأتقبل وجود الحياة في جسدي بعد أن أكلتْ مني وشربت حتى ارتوت وشبعت؟ كيف لشخصين أن يعيشا تحت سقف واحد وقد قتل أحدهما أُمَّ الآخر؟ فهذه حقيقتي مع الحياة، أين كبريائي وأنا أرى الحياة تُعشش في جسدي وهي في الآن ذاته تسخر مني وتهزأ بي؟ أنا صامد لا أسمح لشخص ولدته أمه أن يفعل ذلك بي، فكيف

أسمح للحياة أن تفعلها بي؟ وهي بالنسبة لي أقل شأنا من أقل الناس شأنا.

سأفعلها، الفكرة تخمرت في رأسي الآن، آن الأوان لتنضج وتصبح حقيقة، نعم في ذلك المكان، في تلك الشجرة التي كنتُ أتأملها، هناك سوف أخلد للأبدية، لم تعد فكرة الانتحار مجرد هَمٍّ أو فكرة تدغدغ أفكاري، بل أصبحت واقعا لا مفر منه، سألتحق بك يا أمي أينما كنتِ، ولا أحسبك إلا في تلك الروضة الخضراء التي ذكرت قبل موتك أنها ستجمعني بك، سأجدك هناك لا محالة، أما أنتِ يا أختي فأرجو أن تعتني بنفسك، لا تحزني علي حزنك على والديك، فما أنا في منزلتهما أو في مقامهما عندك لتحزني علي حزنك عليهما، فإذا كان إلهكِ موجودا فهو الذي سيتولى أمرك.

لم لا أنتحر والظلم ملأ الدنيا؟ لم لا أنتحر والمصائب أصبحت تعشقني؟ لم لا أنتحر ويوسف يؤمن برب يرى عباده في شر وشقاوة، ولا يمد لهم يد العون؟ هذا فرَضا إن كان ربه موجودا، وإن كان موجودا فليمنعني من الانتحار، أليس يوسف يقول إن الإنسان مخير وأن ذلك الإله لا يأخذ برقاب عباده، ولا يجبرهم على فعل أو ترك ما يحبون؟ فليكن ذلك، أنا مخير ولن تمنعني الآلهة من الإقدام على الموت بشرف، لن أدع الموت يأخذني، بل أنا من سأذهب إليه، وأتعارك معه، حينها سأسَلِّمه ذلك الشيء دون أن ينتزعه مني ليأخذه إلى إلهه.

أي أبله أنا، أين هذا الإله الذي أفترِض وجوده؟ لو كان الإله موجودا ما كان هذا الشر، لو كان موجودا ما تركني أتعذب أشد العذاب، لو كان الإله موجودا لعَمَّ الخير أرجاء الفضاء، قَتْلٌ وظلم وشر ويقولون الإله موجود، لا إله في الكون، لا إله، لا حياة أخرى بعد هذه الحياة إلا أن تكون الروضة التي حدَّثت أمي عنها، وما هي بجنتهم، لو كان الإله موجودا ما أصابني هذا الاكتئاب الذي نهش من نفسي كما تنهش الكلاب جثة متعفنة، لو كان موجودا لما تركني للقلق والشك، ولدلَّني عليه، فإن كان يمتنع عن الظهور لأراه، فليعطني علامة تدلني على وجوده، وبما أن هذه العلامة غير موجودة فلا وجود له، أيها الإله إن كنت موجودا فأخبرك أني ذاهب لأنتحر، فإن كنت حقا موجودا فامنعني من ذلك، ولا أخالك تفعل ذلك؛ لأنك بكل بساطة غير موجود، هي فكرة اخترعها الحكام ليسيطروا بها على البسطاء والسذج.

كنتُ بمفردي في غرفتي عندما نضجت هذه الفكرة في رأسي، وما أن كانت العاصفة هدأتْ حتى بدأت نقمتُها، أخذت عاصفة الأفكار تتلاطم في رأسي بعد أن كانت قد خلدت للراحة، بدأت أمطار التخمينات تبلل دماغي، عروق أشجاري في رأسي تتمزق، رياح تهب على قلبي فتزلزله، خوف ورعب تملك فؤادي، لكن لا تراجع عن قتل الحياة كما قتلت أمي، سأُفْقِدُ الحياةَ الحياة.

تناولت محفظتي اليدوية، وضعت فيها سكينا حادا، وحبلا يكفي لمُهمتي، كنت أردت أن أهم بالخروج، استوقفتني فكرة لا أحسبها غبية، سأكتب رسالة الوداع لأختي، على كل حال فهي أختي وإن خالفتني في معتقداتي وأفكاري، جئتُ بورقة وقلم وكتبتُ الرسالة.

كانت الشمس على مشارف الغروب، وكنت على علم أن أختي عما قليل ستلج البيت، أسرعت بحزم متاعي الذي لا متاع فيه، والذي سأتركه على باب الموت، أما أنا فتسابقت خطواتي لأخرج من باب البيت إلى عالم الأبدية، إلى الشجرة المباركة، أو الشجرة الملعونة، لا أدري كيف سأجدها؟

*****

(30)

التربية الجنسية التطبيقية

كان رامز في مكتبه منتشيا بالسعادة، وشامتا في موت والدي صامد، لكن هذا الانتشاء لم يكتمل بعد، رغم الموت، ورغم أنه طرده من العمل، إلا أن عصيان صامد لأوامره، ومناظرته مع يوسف دون إذنه، ووشايته به عندما سجل الشريط الصوتي ونشره، كل هذا كان أكبر من أن يُطفئ الموت والطرد النار التي تتأجج في قلبه، فإذا كان صامد ذا كبرياء فكبرياؤه هذا مجرد طفل صغير مع كبريائه، لذلك لن يفوِّت الفرصة لينتقم من صامد شر انتقام.

أما الآن وهو في مكتبه فكان يشغله أمر آخر، أمر تهيأ للقيام به وجهز له لأسابيع، فمن حق تلاميذ مؤسسته أن يدرسوا مادة التربية الجنسية بطريقة شبه تطبيقية، ومن يمنعه من ذلك، ومن هذا الذي سيُحرِّم ذلك إن كان ذلك برضى التلاميذ.

كان قد تحدث مع بعض التلميذات والتلاميذ الذين يثق فيهم في هذا الأمر، وقد أبدوا استعدادهم للاستفادة من هذه المادة على يد

أستاذة مادة التربية الأسرية، لكنه لم يفاتح أستاذة المادة في الأيام الماضية؛ لأنها لم تكن بمزاج جيد، أما اليوم فهو ينتظرها في مكتبه ليفاتحها في الموضوع، فلن يستطيع غيرُها أن يساعده في هذه المهمة.

دخل تلميذان وتلميذتان على المدير، رحب بهما وأذن لهم بالجلوس، أعاد على مسامعهم ما يمكنهم قيامهم به، وهو أن يحاولوا إقناع أكبر عدد من التلاميذ ليستفيدوا من هذه المادة، وأن يُخبروا التلاميذ أن معدَّل هذه المادة التي ستكون خارج المؤسسة يعادل ثلاث مواد مجتمعة، بشر التلاميذُ المديرَ بأن اثنا عشر تلميذا وتلميذة قد وافقوا على دراسة المادة التطبيقية، بل تحفزوا لذلك، وأخبروه كذلك أنهم سيبذلون ما في جهدهم لإقناع الآخرين، اكتفى المدير منهم بهذا العدد بداية، وسيستفيد الكل من هذه المادة بالتناوب، في تلك الأثناء استأذنت أستاذة التربية الأسرية بالدخول فأذن لها ورحب بها، بعد الترحيب أخبرها أنه دعاها من أجل الاستشارة معها في شأن التحسين من جودة المادة، وإثرائها أكثر، فهو يعلم أنها تُدَرِّس التربية الجنسية نظريا بشكل جيد، لكن ذلك في نظره غير كاف.

ـ ماذا تقصد بغير كاف أستاذ، ألا أقوم بعملي على أكمل وجه؟

استبشر وجه رامز بابتسامة كادت تتحول لضحكة، حاول أن يختار الكلمات المناسبة، أما هي فكانت تقلب النظر بين وجوه التلاميذ ووجهه.

ـ لا، لم أقصد ذلك أستاذة **نرمين**، ما قصدته، هو أن هناك مواد لا يمكن الاكتفاء بتدريسها نظريا فقط، فلابد من تدريسها تطبيقيا، أو شبه تطبيقي، وهذا ما نفعله في مواد الفيزياء وعلوم الحياة والأرض وغيرها، لذلك اخترتك أنت لتقومي بهذا العمل، بمساعدتي طبعا، واختياري لك جاء بناء على كفاءتك، وعلى ارتباط مادتك التربية الأسرية بالموضوع، وكذلك لأن أفكارك ناضجة متنورة، وتتقبلين أن يكون المجتمع بهذا الانفتاح والتنور.

ابتلعت الأستاذة نرمين ريقها، ثم أحست أن ريقها قد انزلق في حنجرتها، بدأت تكحب، استأذنت لتدخل الحمام وستعود بسرعة.

عادت نرمين من الحمام، ثم سألت المدير عما هو مطلوب منها.

ـ أمر بسيط فقط، وهو أن نُدرِّس هؤلاء التلاميذ المساكين التربية الجنسية التي تُدرسينها لهم، لكن بطريقة أخرى، بطريقة تطبيقية، وبما أن حصصك الدراسية لا تكفيك هنا في المؤسسة، فخمنتُ أنه من الأفضل أن نأخذ التلاميذ إلى شقتي، ليجدوا راحتهم هناك،

وطبعا هذا العمل لن يكون بالمجان، بل سيكون عليه تعويض مضاعف، وبالمناسبة فالتلاميذ موافقون على دراسة هذه المادة.

فاجأت نرمين المدير وهي توافقه في الرأي، وتُؤكد عليه أنها في الخدمة متى احتاجها، وأن الرأي رأيه، والرأي الذي اختاره سديد صواب، استبشر وجهه بهذه الموافقة السريعة، فهو يعرفها ملحدة مثله وإن كانت منافقةٌ تلبس الحجاب، لكن كما تقول إنه تقية فقط تخدع به الناس، إلا أن هذا الحجاب سيزعجه وهو يراه في شقته، فكيف يسمح لمُحجبة وإن كانت ملحدة أن تدخل بيته بالحجاب، لذلك طلب من التلاميذ الخروج، ثم بعدها طلب منها طلبا أخيرا وهو أن تأتيه بدون حجاب في اليوم الذي سيتفقون عليه، أو على الأقل أن تقلل منه، لكنها رفضت ذلك بحجة أنها اعتادت عليه فقط، حينها كان يُحدِّث نفسه في صمت ويقول لها، ليس الحجاب فقط ما ستنزعينه آنذاك، بل ستنزعين لباس الحياء الذي جعلته حاجزا بيني وبينك كل هذه الأشهر، حتى أني لم أستطع ولو الاقتراب منك.

اتفقا على اليوم الذي سيأخذون فيه التلاميذ إلى الشقة، خرجت وتركته في مكتبه.

بعد خروجها اتصل رامز هاتفيا بمساعديه الثلاثة يسألهم عن عملهم الذي وكَّلَهم به، كان قد أمرهم أن يتجسسوا على أحد

الأشخاص قرب منزله، وألا يتركوا تجسسهم عليه حتى لو استمر مكوثه في بيته لشهر كامل، اليوم عبر هذا الاتصال بشروه بأخبار جديدة، فذلك الشخص الذي حجز نفسه لأيام في بيته قد خرج منه اليوم.

ـ إذن نفذوا في الحال الأمر الذي طلبته منكم.

*****

(31)

صراع مع الموت والحياة

كانت الشمس تودع المدينة رضى، وكان صامد على بعد أمتار ودقائق ليودع روحه اضطرارا، كان منظر الغروب يشكل لوحة بهية على شاطئ البحر، وكان صامد يرسم لوحة سوداء قاتمة تغرب فيها روحه عن حياته، كان الليل ينزل على الناس في سكون وطمأنينة، وكانت الظلمة تنزل على قلبه في انزعاج واضطراب، كان الليل والليل في قلبه، كانت الظلمة وظلمة في كيانه، كان السواد والسواد في عينيه، كان قد حدد هدفه، لن يتراجع عنه، ومتى تراجع عن قرار اتخذه؟ ومتى تنازل كبرياؤه أو تنازل عنه؟ هو الآن في صراع مع الموت والحياة، صراع مع الحياة التي فرَّطتْ في أمه، وصراع مع الموت الذي أراد أن يُسَلِّم له روحه قبل أن يأخذها غصبا منه.

يُسرع الخطو، لا يلتفت وراءه، فمجرد التفاتة تعني تردده، يتحسس بين الحين والحين السكين والحبل في حقيبته، الآن الخطة مرسومة في رأسه، سيربط الحبل إلى جذع قوي مرتفع لشجرة، سيربط الطرف الآخر في عنقه، سيقفز من الجذع وفي يده الخنجر، سيقوم بقطع أوردة يده في حينها، هذه خطة محكمة، قدماه تأخذانه نحو الشجرة المباركة، والتي ستحلُّ عليها اللعنة بعد انتحاره، هي شجرة اللوز الوحيدة بين أشجار البلوط والصنوبر والسرو التي كان يتأملها مِن قبل، شجرة عظيمة وحيدة، اختارها مِن بين غيرها من الأشجار ليضع حدا لحياته بها، هو وحيد وهي وحيدة، غصونها عظيمة في كبريائها، وهو عظيم في كبريائه، هي عنيدة إذْ اختارت العيش وسط غير جنسها من الأشجار، وهو عنيد لأنه فضل الموت على العيش وسط المتخلفين من المسلمين.

هؤلاء المسلمون الذين كانوا سببا مباشرا في دفعه للانتحار؛ لأنهم جعلوه مريضا بالاكتئاب، بتخلفهم، بجهلهم، الأمم تتقدم، وهم يتمسكون بالإسلام ليتخلفوا عن ركب الحضارة والتقدم، يؤمنون بإله لم يروه، أين هو هذا الإله حتى يؤمنَ به هو أيضا؟ بل يؤمنون بجنة ونار، أمه قالت له إن في الروضة الخضراء سيكون ميعادهما.

كان قد اقترب من الغابة وهو يهدي كالحيران، يتحدث كمن أصيب بالخَرَف، كان السكون يلف الغابة، إلا من أصوات حيوانات

بين الحين والآخر، لا يدري صامد لمَ قلبه يتمنى أن يتدخل الإله ليُنقذه من الانتحار؟ هو لا يريد التراجع، لكن يريد من قوة عظيمة قادرة على كل شيء أن تتدخل، ألم يقل يوسف إن هذه القوة هي الإله؟ طبعا لا يؤمن بها، لكنه وضع تحدٍ بينه وبين نفسه أن هذه القوة إن تدخلت ومنعته من الانتحار، فسيعيد ترتيب أوراقه من جديد، وفي الوقت نفسه يتمنى ألا تتدخل هذه القوة، الآن قد أزمع على الانتحار، ولا وقت للرجوع والتراجع، بل أين هي هذه القوة حتى يؤمن بها؟ لا وجود لها، إنها في عقول الأغبياء من المسلمين فقط.

نزل الظلام بأكمله على الغابة، لم يعد يرى الطريق أمامه، يسمع صوت خطوات فيحسِبها خطوات حيوان، أو هو مجرد توهم، لا يريد الالتفات، الالتفات يعني التردد، يزيد من سرعته، قلبه يدق كطبول إفريقية، الشجرة يحفظ موقعها عن ظهر قلب، الخطوات تقترب، لا يلتفت، تقترب أكثر، أصبحت أصواتها يقينا لا توهما، حقيقة لا خيالا، عناده، كبرياؤه، سُوء تفكيره يجعلونه يرفض النظر خلفه، لكن هل هو غبي إلى هذه الدرجة؟ يسمع خطوات أرجل ولا يلتفت؟ حينها فقط عزم على الالتفات، حانت منه التفاتة خلفه، وما أن قام بِلي عنقه حتى رأى ثلاثة أشباح خلفه لم يستبنهم، في تلك اللحظة بالضبط دون مقدمات، تكالبوا عليه بالضرب الموجع بالهراوات والعِصِي، لم يستطع رؤية وجوههم،

أمسك اثنان منهما بيديه، وقام الآخر بضرب رأسه وبطنه ورجليه بعصا غليظة كأنه يضرب بها الأرض وليس إنسانا ذا جسد وروح، كان تركيز ضرباتهم موجعٌ على عينيه كأنهم يريدون أن يُفقدوه بصره، أن يفقأوا عينيه، كان صامد يصرخ صراخا أفزع كل حيوانات الغابة، ذهلتْ كل أنواع الأشجار، لِمَ يصرخ صامد هكذا؟ أليس هو الذي كان يريد أن يُخلِّص جسده من روحه، ها هم الآن قد تكلفوا بذلك نيابة عنه، فما سيُضيره إن مات بالضرب والكسر ولم يمت بالانتحار!؟ أليست النتيجة واحدة؟ الموت موت، بالانتحار أو بالجرح والضرب! فلِم صراخه يعلو؟ لِمَ يحاول الهرب منهم؟ وبالتالي هربه من الموت، أكان يريد أن يختار طريقة موته حتى لا يتشفى فيه الموت ويعلن انتصاره عليه بأنه استطاع أن يأخذ روحه بالطريقة التي أراد، لا بالطريقة التي اختارها صامد؟

"خذ هذه حتى تدرك مصير من يعصي أوامر سيده ويلتقي بالمتخلف يوسف، وخذ هذه حتى لا تتجرأ على سيدك وتنشر أسرار مجالسه، وخذ هذه حتى تعلم أنك في "مؤسسة داوكينز" لست حرا لتأتي للعمل متى شئت، وتترك العمل متى شئت، وخذ هذه..."، كانوا ينهالون عليه بالضرب وهم يلقون تلك الكلمات في أذنه، كان جسده يسبح في بحر أحمر، مضرج بدمائه ملطخ بها، لم يتركوا موضعا واحدا من جسده إلا وأعطوه حقه، شُج رأسه، كسرت رباعيته، سقطت بعض أسنانه، تورمت عيناه وانتفخت،

فقدت يداه الحركة، فلم يبق إلا أن تخرج روحه من حلقومه، كان ممددا على الأرض ينتظر مغادرة روحه لجسده، وقد اعترف للموت بالانتصار عليه، وها هي الآن روحه مغادرة، في تلك اللحظة التي قرَّرت الروح المغادرة، إذا بضربةٍ قوية بعصا تأتي فوق رأس أحدهم، التفتوا خلفهم في آن واحد وقلوبهم مضطربة، ليجدوا أن من قام بضرب أحدهم هو شيخ عجوز، تسمرتْ وجوههم على ملامحه، بهرهم نور وجهه، فلم تستطع الأيادي أن تتحرك لتنال منه، لكن استطاعت الأرجل أن تسابق الرياح وتترك الأشجار خلفها، أطلقوا سيقانهم للريح وهربوا تاركين المشهد في أعينهم كما هو.

في تلك اللحظة فتح صامد عينيه بصعوبة، بصعوبة بالغة، فرأى ضبابا يغطي عينيه، لكن استطاع أن يميز وجه الشيخ العجوز بنور وجهه، ابتسم له صامد نصف ابتسامة، كانت ابتسامة امتنان، وكانت ربما آخر ابتسامة له، ثم توقفت حركته.

انحنى الشيخ العجوز على صامد يحركه، لكن لم يستجب له، ذهل الشيخ عما يجب أن يفعله، فالدنيا قد لبست ثوب الليل، والحركة متوقفة في هذه الغابة، والمدينة بعيدة إذا فكَّر أن يأخذه إلى المستشفى، ولا أحد هنا ليساعده، فما يستطيع فعله الآن هو أن يأخذه إلى كوخه.

أخذ يجره بصعوبة إلى الكوخ، رسمت الدماء الطريق التي مر منها، لم يصل إلى الكوخ إلا بشق الأنفس بعد أن يستريح بين كل ثلاثة أمتار أو أقل، لكن هل سيكون تعبه هذا على مجرد جُثة فارقتها الروح منذ مدة؟ هذا ما كان يخشاه، وهذا ما غلب على ظنه وربما حصل.

*****

(32)

قلوب تتوالى عليها النكبات

قلوب قدرها أن تجتمع عليها النكبات، وأن تتوالى عليها المُلِمَّات، وأن تتسلسل في حياتها شدائد الدهر العِظام، فلا القلب يرتاح من الحزن، ولا العين تنكفئ عنها الدمع، فكلما لملم القلب جراحه وصبر عليها، بعد أن توهم أنها آخر البلايا والرزايا، إذا بخَطب جديد، وجائحة أخرى تفتح جراح الماضي، وتظفر بالقلب وتعلن انتصارها قهرا عليه.

ولجت جمانة البيت، لم تكن وحدها، كانت معها أميمة وأخت يوسف، لا تكادان تفارقانها منذ وفاة أمها، إلا أن تكون أخت يوسف في عملها، كيف تدعانها وحدها وقد جمعت بينهن الصحبة والرفقة، وإن اختلفتْ أخت يوسف عنهما في تخصصها؟ فهي قد حصلت على إجازتها، وهي مُدرسة في مؤسسة خاصة، أما جمانة وأميمة فقد اختارتا تخصصا غير تخصصها.

قبل مجيئهن إلى البيت، اتصلت براءة بجمانة تخبرها بما يتحدث به تلاميذ المؤسسة، وأن مدير المؤسسة قد وعدهم بتدريسهم مادة التربية الجنسية بطريقة مختلفة، طمأنتها، أخبرتها أنها على علم بذلك، وأنها مع أميمة وأخت يوسف يتابعن الأمر عن كثب، وقد أعددن له عُدته.

كانت جمانة قد عادت تدريجيا إلى طبيعتها وحياتها، كانت تخال مرحلة الأحزان قد مرت، لم تكن تعلم أن موجة جديدة من الأحزان والآهات قد أعدت العدة للتخييم على شاطئ قلبها، والاستقرار على رمال فؤادها، وذلك ما ستتأكد منه الآن.

لم يَدُم دخولهن المنزل وقتا طويلا حتى استقرت عيناها على ورقة مفتوحة مكتوبة في مكان بيِّن ظاهر، أخذتها جمانة بيدين مرتعدتين، وشفتين مرتعشتين، تحاول بعينين دامعتين أن تقرأ ما في الورقة، وكأنها تعلم أنها ورقة سوء، كأنها تدرك أنها تحمل بين طياتها مصائب جديدة، أخذ قلبها يخفق، يضطرب، يثور.

"أختي العزيزة، أعلم أني لم أكن لك بالأخ الوفي الذي تجدينه بجانبك كما تجد الأخوات إخوانهم عندما يحتجنهم، ولا بالعطوف عليك، ولا بالمتفهم لمشاعرك، بل وجعلتك أحوج ما تكونين لحب الأخوة، أختي العزيزة لن أطيل عليك، أعتذر لك عما بدر مني، وأود أن أقول لك إني فضلتُ أن ألتحق بأمي على أن أبقى شريكا

لهذه الحياة اللعينة، أنا واثق أني سأجدها تنتظرني في الروضة الخضراء، أيا كان مكانها، فأرجو لك أن تُكفكفي دموعك، وتضعي حجرا على قلبك فلا يحزن لفراقي، وأما أنت فإلهك الذي تؤمنين به سيتولاك".

كانت صاحبتاها ترمقُ أعينهن الورقة بجانبها، ما أن كادت تنتهي من قراءة الورقة حتى سقطتْ بين أيدي صديقتيها مغشية عليها، أظلمتْ الدنيا مرة أخرى، اسودت الحياة، بلايا متتابعة، رزايا تسوق بعضُها بعضا، ليس في نظرها فقط، بل في نظر صاحبتيها كذلك، لم تدر أميمة وأخت يوسف ما تفعلان؟ ما كانتا تستطيعان القيام به هو أنهما تركتا العبرات تسيل من المقل على الخدود والوجنات كأنها سيل جارف، تخبطتا في بعضهما البعض تخبطا عشواء، وتعثرتا في بعضهما البعض وهما تحاولان أن تُسعفا جمانة بأي شيء، ماء، بصل... أي شيء، أي شيء، فلم تكونا مستعدتين لهذا الحدث.

بعد برهة أفاقت جمانة وبدأت تهدي، أخي انتحر، أخي انتحر، صامد ودَّع الحياة، أخي فعلها...

ـ هوني عليك يا جمانة، الأمور ستكون بخير إن شاء الله.

ـ أخي انتحر، مَن لي بعده غير الله، لماذا تركوني وحيدة، أخي، أخي، أخي انتحر...

بعد ساعة من الزمن هدَّأت من روعها وكأنها مشدوهة، وكأنها ذُهب بعقلها.

ـ يجب أن نبحث عنه، يجب أن نجده أو نجد جثته، لا يمكن أن نبقى مكتفات الأيدي.

كانت تتحدث بلامبالاة، وببرود شديد، وفي لحظة انقلب حالها كأن هناك من يجرها خارج البيت، انتفضت وهي تسرع لتخرج من البيت، حبستها أميمة، وأخت يوسف تهدئها، تقول لها:

ـ لا يمكننا الخروج في هذا الليل الموحش، سأتصل بأخي ليأتينا بسيارة صديقه، وهو سيبحث معنا عنه وسيكون بجانبنا.

استحسنت الفكرة فجمدت في مكانها، اتصلت أخت يوسف به تخبره ما حل بصامد، وبالورقة التي تركها، استقبل يوسف الخبر كصاعقة نزلت من شُهب السماء عليه، لكنه كان رزينا، تريث يفكر فيما يجب فعله، علم أن صفوان بئر أسرار صامد وكتابه المفتوح، لذا كانت أول خطوة يجب عليه القيام بها هي الاتصال بصفوان، يسأله عنه.

اتصل به، أخبره الخبر، أدرك صفوان فداحة الأمر، فما كان يُفكر فيه صامد، لم يكن مجرد كلام، بل كان يعي ما يقوله، ومدرك لما يريد أن يَهم به، فكم من مرة ذكر صامد لصفوان أنه يفكر في الانتحار؟ وكم مِن مرة وهما يمارسان الرياضة في الغابة، يراه

متأملا الشجرة الكبيرة؟ ولمَّا يسأله عن علاقته بهذه الشجرة، يردُّ عليه صامد، بأنها هي التي ستحمل في يوم ما جسده كما تحمل ثمارها وأوراقها، وها هو قد وصل ذلك اليوم، فلا شك أنهم سيجدون ورقة جثة صامد تكاد تلفظها الشجرة؛ لأنها ورقة غريبة عنها.

أعلَمَ يوسف صفوان أنه سيأتيه بالسيارة ثم سيتوجهون إلى دار السيد فهمي - رحمه الله - وصلا إلى دار السيد فهمي، أخذا معهما الفتيات الثلاث ثم انطلقوا مباشرة خمستهم في ظلمة الليل إلى الغابة، بل إلى الشجرة الضخمة التي تحمل جسد صامد.

لمَّا وصلوا لم يجدوا ورقة صامد، كانت الشجرة تحمل أوراقها فقط، ربما ضلت عليه الشجرة المقصودة في هذه الظلمة، وتشابهت عليه، هذا ما قاله يوسف لصفوان، لكن شجرة اللوز يستحيل أن تختلط بغيرها من الأشجار، أو أن يتيه مكانها عنه، فهو يحفظ مكانها من الغابة كما يحفظ موضع قلبه من جسده.

انبروا يبحثون قرب الشجرة في سواد الليل عن جثة صامد، وما هي إلا لحظة حتى وجدت جمانة حقيبة أخيها، اجتمعوا حولها يراقبون ما سيجدونه فيها، فوجدوا الحبل والسكين في مكانه.

إذن صامد لم يُقدم على الانتحار، قال ذلك يوسف، لكن هذه الفرضية فتحت عليهم دروبا كثيرة، فإن لم يكن قد انتحر، وقد كان

عازما على القيام بذلك عندما جاء بالحبل والخنجر، فأين سيكون؟ وما الذي حصل له؟ وهل يمكن أن يكون قد غيَّر طريقة الانتحار؟

*****

(33)

(صامد)

الروضة الخضراء

لم أر في حياتي مثل هذا الجمال، جمال يأخذ بتلابيب القلب، روعة تأسر النفس، روضة خضراء تنزل على نفس الإنسان سكونا وراحة ومحبة وسلاما، ينابيع ماء تتدفق من العيون، وتنفجر من الأرض، سهل يتدفق بالينابيع، جداول مياه كثيرة، بحيرة تتوسط اليابسة الخضراء، طيور وحيوانات جميلة تشرب منها، أمان وسلام، ما أجمل هذه الروضة الخضراء بمائها وتربتها وعشبها وطيورها وثمارها الشهية، وأشجارها البهية، وشداها الزكية، وعبيرها الفواح، ونغمات طيورها الندية.

ـ هذا جزاء المؤمنين يا ولدي، ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ﴾

ـ لكن يا أمي الحبيبة أنا لم أكن مسلما، كنت ملحدا.

ـ لا تقل ذلك يا ولدي.

ـ الحمد لله على عطاء الله، اشتقتُ لأن أراه، لأن أرى ربنا يا أمي، هل يمكن أن أراه يا أمي؟

ـ ستراه، ستراه إن شاء الله يا حبيبي؟

نعم وجوه ناضرة جميلة إلى ربها ناظرة، أريد أن أكون منهم، وأريد أن أشرب من حوض النبي، كم كنت أكذِب بذلك؟ كم كنت عنيدا متكبرا؟ أيغفر الله لي يا أمي؟

ـ نعم سيغفر الله لك يا ولدي، إنه غفور رحيم.

أشكرك يا أمي فقد وفيت بوعدك، وعدتني أن نلتقي بالروضة الخضراء، وها نحن الآن في هذه الروضة الجميلة الخضراء، أي سعادة أعظم من هذه السعادة أن تكون مع من تحب في مكان كهذا؟ سكون وطمأنينة وراحة، كل ما تشتهيه تجده بين يديك، كل ما يخطر ببالك تلقاه أمامك، لكن يا أمي أين أبي؟ أين زوجي وأختي؟

أمي، أمي، أمي أين أنت؟ أين تذهبين؟ أمي تريثي قليلا ابقي معي، لا أتحمَّل فراقك مرة أخرى، لا أتحمل بعدك عني، أرجوك أمي حبيبتي لا تتركيني وحدي، أميييييي!

*****

لبثتُ في غيبوبةٍ فاقدا للوعي في المستشفى لما يقارب الأسبوع، أخبرني الطبيب فيما بعد أن بِنْيتي الجسمية القوية هي التي حالت دون موتي، وإلا لكنتُ الآن بين الأموات، فقد فقدت الكثير من الدم، وتكسرتْ بعض أضلاعي، وكلتا يداي، وأنفي، وجروح خطيرة في رأسي، كنت أظنه قد تهشم، لكن ومع ذلك ما زال يحمل بين ثناياه حواسي الأربع التي ستعود تدريجيا إلى عملها كما قال الطبيب، فمع انكسار أنفي، فإن لساني تقطع إلى ما يقارب النصفين، حتى لا أكاد أتحدث به إلا تلعثما، أما بصري، فأرجو ألا أكون قد فقدته، قال الطبيب إن الضمادة ستبقى على عيني لمدة طويلة، لا أدري ماذا يقصد؟ هل يشير إلى أني فقدتُ بصري؟

كانت الضمادة تحيط بكل رأسي عندما استفقت من الغيبوبة، حينها سمح الطبيب لأختي وزوجي اللتين كانتا ترابطان أمام باب غرفتي في المستشفى طيلة الأسبوع بالدخول، كانتا لا تغادرانه إلا ليلا أو لحاجة.

كان دخولهما علي عودة أخرى للحياة، استبشرتُ بقدومهما، فرحت لسماع صوتيهما، حقا إني أحب أختي وزوجي وإن كنت شحيح المشاعر، ضنين الأحاسيس، قَتُورا في الإفصاح عن مشاعر الحب، بعدها جاء صفوان ويوسف وأخته، أخته التي اشتبه صوتها في أذني بصوت فتاة أعرفها، وحتى تلميذتي براءة التي عرفتْ بما حصل لي، تلميذتي السابقة، أما الآن فلم يعد يربطني بتلك المؤسسة

شيء، أخبروني أنهم أتوا بي إلى المستشفى في تلك الليلة التي اعتدى فيها رامز علي، نعم رامز، ومَن يكون الفاعل غيره، وجدوا حقيبتي، ثم ما لبثوا أن رأوا بقع الدماء حولها، تتبعوا أثر الدم، فدلهم على كوخ العجوز الطيِّب، وجدوني قد أغمي علي، والعجوز بالقرب مني يعالج جراحي، يَسقيني بعض الأعشاب، أخذوني حينها إلى المستشفى.

في المستشفى كان هناك شيء لم يستطع لساني الصبر عليه، ليس شيئا واحدا، بل أشياء كثيرة، وكان لابد مني أن أفصح بها، ناديتُ على يوسف، اقترب مني، أخبرته أني أريد أن أفصح له عن شيء في قلبي، لعلي أجد عنده تفسيرا، استبشر ثغر يوسف، ظن المسكين أني سأقول له أن ما يخالج صدري هو رغبتي في الإيمان بالإله، مسكين يوسف، لكن ومع أني خيبتُ ظنه إلا أن ما قلته له جعله مشدوها، أخبرته عن التحدي الذي وضعته بيني وبين نفسي وبين الإله إن كان موجودا أن يُنقذني من الانتحار، وحقا لم أنتحر، لكن الآن لبث سؤال آخر في خلدي، إن كان موجودا فلم أنقذني من الانتحار بتلك الطريقة؟ والأمر الثاني أن أمي قبل وفاتها مباشرة قالت لهم إني سألتقيها في روضة خضراء، فكيف تقول ذلك وهي على فراش الموت؟ وأي روضة تقصد؟ والأمر الثالث، أني عندما كنت فاقدا للوعي، رأيتُ فيما يرى النائم أني في روضة خضراء لا أستطيع أن أصف بهاءها وجمالها وورنقها وسحرها، ثم بعدها

ظهرت أمي وقالت إن هذا النعيم جزاء المؤمنين، فلما قلت لها إني لست منهم، قالت لا تقل ذلك، بل أنت منهم، ثم أخذتُ أحمد الله على ذلك، لا أدري لما رأيتُ تلك الرؤيا، ولا أدري لمَ كنت في الرؤيا مؤمنا بإله، عكس ما أنا عليه الآن في الواقع، وعكس ما درسته في علم النفس أن أحلام الإنسان ما هي إلا مرآة لما يعيشه في الواقع، فإن كنتُ ملحدا في الواقع، فذلك ما يجب أن ينعكس على أحلامي.

لم يزد يوسف بعد أن سمع مقالتي إلا أن قال إني عندما سأتماثل للشفاء سيناقش معي هذه الموضوعات.

أما ذهني فكان يفكر في أنَّ أول شيء سيقوم به عندما أتماثل للشفاء هو أن أرفع دعوة قضائية ضد رامز.

*****

(34)

في انتظار الأنثى

حانت ساعة الصفر، حان موعد اللقاء، اليوم سيتمكن رامز من نرمين التي كانت صعبة المنال عليه منذ أن ولجتْ مؤسسته، اليوم سيثبت لها أنها لا تختلف عن غيرها من أستاذات المؤسسة اللواتي زُرْن شقته، فإن كانت تختلف عليهن في لباسها، فإنها توافقهن في أفكارهن، توافقهن في فكرة الإلحاد، وفي الإلحاد ليس هناك ما يمنع علاقة حرة رضائية، بل ليس هناك ما يمنع أن يَغتصبها بالقوة، نعم سيفعل، سيغتصبها بالقوة وأمام التلاميذ إن رفضت الانصياع له، أليس ريتشارد داوكينز يقول: "اعتقادك بأن الاغتصاب خطأ أمر اعتباطي تماما"، نعم هو أمر اعتباطي، من يمنعني من اغتصابها، ألستُ أنا سيدها الذي قَبِل بها لتشتغل في مؤسستي.

هكذا كان يفكر رامز وهو في سيارة النقل المدرسي المتوقفة في مؤسسته، ينتظر اجتماع التلاميذ والتلميذات، لم يبق إلا التحاق

أربعة تلاميذ ويكتمل العدد، فإذا كان حلم تمكنه من نرمين سيتحقق اليوم، فكذلك حلم آخر سيتحقق اليوم كذلك، كم كان يرجو أن ينتشل هذا البلد من التخلف والجمود الذي يعيش فيه؟ بلد يحرم على الشاب الممتلئ شهوة وغريزة أن يصطحب فتاة معه إلى بيته، أي مرض هذا الذي أصاب الدولة؟ في المقابل يفعل الإسلاميون ما يحلو لهم، بلد يُحرم على الفتاة أن تُقبّل الشاب في الشارع أو في أي مكان ترتاح فيه، ما هذا التخبط؟ هذا التخبط لابد أن نضع له حدا، وأول حد سيضعه، هو أن يمكِّن التلاميذ من بعضهم البعض، فأين يكمن الخطأ في أن يتعلم التلاميذ التربية الجنسية بطريقته؟ أي سماء ستقع وأي أرض ستبتلعه إذا اختار لتلاميذه أن يتخلصوا من قيود الرجعية ويمارسوا حياتهم الطبيعية بالشكل الصحيح؟ الفتى يميل للفتاة، والفتاة تميل للفتى، هذه سنة الطبيعة، فلم نقف في وجه الطبيعة؟ لم نواجه الطبيعة بقوانيننا المجحفة، بكتبنا السماوية الأسطورية، بالأحاديث الافترائية، فهل إذا فعل هذا سيكون قد اقترف جرما أو سوء خلقٍ؟ لا ليست هي أخلاق سيئة لما هو مُقْدِم عليه، فإذا كان أينشتاين يعترف أن الأخلاق ليس فيها الحسن والسيء، فلماذا سيعتبر الناس أن ما هو مقدم عليه من الأخلاق هو شيء قبيح؟ أليس أينشتاين هو القائل: "لا توجد أسس علمية للأخلاق، لقد فشلتُ وستفشل كل محاولات إخضاع الأخلاق لقوانين العلم ومعادلاته، فلن يكون العلم مصدرا للأخلاق".

نعم من هذا الذي يريد أن يُخضع الأخلاق للقوانين، للكتب السماوية، للأديان التافهة، للإسلام المتوحش، اتركوا الشباب يتمتعون بحياتهم.

ـ فرصتكم هذه يا أحبابي التلاميذ لتتمتعوا بالشهوة التي فجَّرتها الطبيعة في ذواتكم، بعدها سأمنح هذه الفرصة لكل تلاميذ مؤسستي.

كان رامز يُحدث بها نفسه وهو جالس في سيارة النقل المدرسي، في مقعد السياقة، ينظر في المرآة الأمامية إلى التلاميذ خلفه، اجتمعوا كلهم، لكن نرمين تأخرت، اتفق معها أن تلتحق بالمؤسسة في هذا الموعد، سينتظرها قليلا، ثم سيتصل بها.

أخرج هاتفه من جيبه، فتح حسابه الفايسبوكي، ظل ينظر فيه ريثما تصل، مر على خبرٍ دفَعَه لأن يُعلق عليه، "زواج فتاة قاصر"، أي متخلفين هؤلاء المسلمين؟ يزوجون الفتاة البريئة وهي لم تصل إلى سن الزواج، يَحرمونها من اللعب من أجل الزواج، وهل هذه البريئة ستتحمل الزواج؟ ستتحمل أن تنام مع متوحش في فراش واحد.

لم ينته من تعليقه، حتى وجد خبرا آخر يتربع على عرش شاشة هاتفه، "رجل متزوج بأربع نساء"، متوحشون هؤلاء المسلمون، أربع نساء! أين كرامة المرأة؟ أين المساواة في أن

تتزوج هي الأخرى بأربعة رجال؟ لابد أن هؤلاء النسوة فُرض عليهن هذا الزواج، وإلا كيف سترضى المرأة أن يكنَّ الأخريات شريكات لها في زوجها؟ أين الرضى هنا وأنتم صدعتم رؤوسنا بأن الزواج يكون بالتراضي؟ مسلمون متخلفون ليس إلا.

ـ هذا هو الخبر الذي أحبه.

نطق بذلك دون أن يشعر حين قرأ أن الأمم المتحدة توصي بمنع التعدد وإلغاء تجريم المثلية، نعم هذا ما يجب أن يكون، التعدد اعتداء على حقوق النساء، الزواج يكون بواحدة، ومن أراد المزيد فعليه بالعشيقات، أو أن يتزوج برجل مثله، أين الاشكال في ذلك؟ إذا كان الرجل يميل للرجل، والمرأة تميل للمرأة، فلم نحرمهم من ذلك، ونمنعهم منه؟

لم يحس بالوقت وهو يقرأ ويُعقب على الأخبار، حتى مضت ساعة على موعده مع نرمين، لكنها لم تأت بعد، أزال بأصبعه حسابه الفايسبوكي، بحث عن رقمها، وجده، اتصل بها، وضع هاتفه على أذنه، يسمع رنين الهاتف في الطرف المقابل، ثم صوتها.

ـ أهلا رامز كيف حالك؟ أرجو أن تعذرني على التأخر.

ـ لقد تأخرتِ كثيرا يا نرمين، منذ وقت طويل ونحن ننتظرك، حضر كل التلاميذ، إلا أنتِ أيتها التلميذة الكسولة.

ـ نعم أعرف ذلك، أعتذر لك بشدة، أنا أقترح أن ترسل لي عنوان شقتك، اذهب بالتلاميذ إلى هناك، وأنا سألتحق بكم على الفور.

أرسلَ لها عنوان شقته، شغل محرك السيارة وانطلق بهم يترنم بأغانيه المفضلة، كان قد طلب من التلاميذ أن يأتوا بألبسة مثيرة حتى تصلح لمثل هذه الحصص التربوية، نعم ولما لا، هي حصص تربوية، تربي النفس على التعامل مع الجنس الآخر دون عقد أو حواجز، لذا يمكنك أن ترى التلاميذ، وخصوصا التلميذات في سيارة النقل المدرسي وكأنهم في ملهى ليلي بالنسبة لمن يختلف معه في أفكاره ومعتقداته، حتى أن بعض التلاميذ لم يستطيعوا أن يصبروا على الفريسة، فانقضوا عليها تقبيلا وعناقا، كان يشاهد ذلك من خلال المرآة الأمامية في نشوة واعتزاز وافتخار بهذا العمل البطولي الذي يُقدمه لوطنه، فأنْ يُنقذ فئة من الشباب من الداعشية والعقد النفسية لهو عمل يستحق عليه وساما وطنيا.

وصل إلى شقته، كان قد هيَّأها على الهيئة التي يحبها، أضواء خافتة، وأخرى تشتعل وتنطفئ، أسِرة مريحة كأنها أسِرة حريرية، تلفاز حائطي مرتبط بالمسلاط الضوئي مِن أجل أن يعرض عليه المشاهد الملائمة لحصة التربية الجنسية.

لكن نرمين لم تحضر بعد، هو لا يفهم هذا التأخر، ولا يحبه من أساسه، اتصل بها مرة أخرى.

ـ نرمين ما هذا التأخر، أرجو ألا تكوني قد أخلفت موعدك.

ـ لا أبدا، سأحضر، أؤكد لك، أنا في الطريق.

صمتت برهة ثم أردفت بحذر.

ـ لي طلب منك، أرجو أن تصور لي مشاهد التلاميذ الحميمية، حتى يجعلني ذلك أتحمس وأسرع في القدوم.

أرسل لها ما تريد وهو يتمتم، "لك أن تتدللي وتتدلعي الآن كما شئت يا آنسة، ولما تحضرين سيكون وقتي للدلال بك".

كان قد مضت نصف ساعة منذ أن أرسل لها المشاهد التي أرادتها عندما سمع طرقا على الباب.

ـ وأخيرا جاءت.

تمتم بها وهو يتقدم نحو الباب لفتحه، فتحه فوجدها ماثلة أمامه.

ـ وأخيرا جئتِ، لقد تأخرت كثيرا نرمين، حتى أن التلاميذ لم يستطيعوا الصبر على بعضهم البعض.

ما كاد يكمل جملته وهو يمد يده ليمسها، حتى برز خلف نرمين عدد لم يستطع أن يُحصيه من رجال الشرطة، وفي لمح البصر كانوا قد اقتحموا شقته وقيدوا يديه خلف ظهره، انتشروا في الشقة مُمسكين بالتلاميذ والتلميذات الذين وجدوهم في حالة مخلة بالآداب، كان فاغرا فاهه، لم يفهم شيئا مما يحصل في شقته،

تحجرت عيناه على وجه نرمين، كأنه رسام بارع يحاول رسم وجهها بدقة، لم يستطع لسانه الحركة، لم يعقب على المشاهد التي يراها الآن أمام عينيه، اكتفى بالصمت، استسلم لرجال الشرطة الذين وجدهم يدفعونه نحو سيارتهم، انطلقوا به، ثم تبعتهم سيارة شرطة أخرى كبيرة كانت قد ابتلعت كل التلاميذ الذين وجدوهم في شقته.

*****

(35)

(يوسف)

القطرة التي ملأت القلب

الناس لا يحفلون إلا بالمثير من الأمور، والمشوِّق منها، جُبلوا على ذلك، لا يُشغلهم ما اعتادوا عليه وألفوا رؤيته، هم عما اطْلَعَت أعينهم عليه معرضون متجاهلون؛ لأنه أصبح في منطقة مألوفة، فنحن لا ننظر إلى الماء الذي يوجد داخل الكأس، ولا نلتفت له، فقد تَعوَّدنا رؤية الكؤوس والماء مستقر بداخلها، ولكن حين نرى تلك القطرة التي أفاضت الكأس، تلك القطرة التي كانت سببا في سيلانه بالماء، تلك القطرات التي أفاضت الأنهار وكانت سببا في جريانها، تلك القطرات التي جعلت السدود تثور وتزمجر، حينها ننتبه، حينها أدمغتنا تُخبرنا أن شيئا ما خرج عن المألوف فحان وقت الانتباه إليه، وحان الحفل به، فقد خرج عن المنطقة الرمادية.

لكن هذه القطرات التي تُفيض الكأس إما أن تأتي على الأشجار فتَقتلعها، وعلى الوديان فتُحرِّف مسارها، وعلى الحشائش اليابسة وفتات الأرض فتَجْرفها، وإما أن تأتي على الورود والزهور فتُنبتها، وعلى الحدائق والبساتين فتَسقيها، وعلى مشارب الحيوانات فتملؤها.

كان كأس صامد قد امتلأ ماء حتى آخره، لم يتبق له إلا تلك القطرة التي إما أن تأتي على نفسه وما تبقى من أهله عواصف مزمجرة، ووميض بروق غاضبة، ودوي رعود منفجرة، وإما أن تأتي سكونا وطمأنينة على بساتين قلبه، وأمنا وأمانا على حدائق فؤاده، ودعة وراحة على ورود وأزهار حياته.

مضت ثلاثة أشهر كاملة منذ أن خرج صامد من المستشفى، ثلاثة أشهر من أصعب الشهور عليه، شهور لم ير فيها وجه الحياة، كانت الضمادة ما تزال مستقرة على عينيه المتورمتين، يُغيِّرها الطبيب من حين لآخر، كانت أخته جمانة ترعاه داخل المنزل، تأتي له بالأكل، وتأخذه إلى الحمام، وتهتم بملبسه ومشربه، وكنتُ مع صفوان نهتم به خارجه، لم أعد أفتح المكتبة إلا قليلا، ثم أخذناه إلى طبيب نفسي حتى عالجه من الاكتئاب، نصحَنا الطبيب بأمور التزمنا بها، الأماكن التي حصلتْ له فيها ما يكره، وله فيها ذكريات سيئة يجب أن يَتَجنبها، لذلك لم أذهب به إلى مكتبتي، ولا إلى الغابة رغم أنه لا يبصر، النقاشات التي تُغضبه يجب القطع

معها، لذلك مرت شهور لم أناقشه في شيء، أو أتحدث له عن الإسلام، وإن كان جل وقته يقضيه معي ومع صفوان.

جرى بيني وبين الطبيب نقاش حول صامد، سألته عن سبب إلحاده؟ وهل يمكن أن يكون لإلحاده علاقة بمرضه النفسي؟ أجابني بنعم.

ـ قد يكون إلحاده ناتجا عن خلل نفسي عُصابي مرتبط بالأب.

قلت له: إن ذلك صحيح، فكثيرا ما كان صامد يتحدث عن صرامة أبيه، وسوء تعامله معه، أردف الطبيب قائلا:

ـ ربما تعرف الفيلسوف الفرنسي الكبير فولتير الذي يُصنف من كبار الشكاكين يعاني بشدة من سوء معاملة أبيه له، حتى أنه يلفظ أباه، ويرفض حمل اسمه، وكذلك فرويد نفسه وكارل ماركس وتوماس هوبز وآخرون، عانوا بشدة من سوء تعامل والديهم معهم، فانحرفوا أو ألحدوا.

قلت له: وهذا ما يقرره بول فيتس إذ يقول إن أغلب الملحدين يُلحدون بسبب مشاكل نفسية لها علاقة بالتربية وانحيازهم اللاوعي للتخلص من فكرة السلطة والسيطرة.

وافقني على ذلك وقال:

ـ ما قاله بول فيتس صحيح، فالإلحاد بالنسبة لنا -علماء النفس- هو ضرب من الحيل اللاشعورية يلجأ الملحد إليه لتبرير انحرافه والدفاع عن سقوطه وسوء سلوكه، وتغطية لضعفه أمام الشهوات والملذات.

استمر نقاشنا برهة من الزمن، شكَرنا على اهتمامنا بصامد، رغم ألا صلة تربطنا به، طمأننا على أن حالته الآن مستقرة، فلا داعي للعودة به إليه، شكرناه بدورنا، وفرحنا لتحسن حالته فقد زالت أعراض اكتئابه، فلم يعد شديد الغضب على أتفه الأسباب، أو ناقما على نفسه، وعلى كل من يختلف معهم.

*****

في شاطئ البحر الذي يحبه، كان لي معه لقاء، كان اللقاء في الصباح الباكر، هو من دعاني له، كان يريد إضافة تلك القطرة التي أراد أن تُفيض كأسه، قطرة إما أنها ستقتلع الأشجار أو تسقي الحقول، أراد العودة إلى النقاش، تجاهلتُه، أصر على ذلك، أخبرتُه أن راحته أسْلمُ له، أخبرني أن راحته في هذا النقاش، لابد أن يجد جوابا لحيرته، أسلمتُ له عقلي وسمعي لأسمع منه حيرته فقال:

ـ حيرتي لا بِكَوْن تتعلق، ولا بمَن خلقه، فقد أسهمنا في النقاش فيه ما يجعل أحدنا يَعدل عن رأيه، لكن ما حيَّرني، هو أن إلهك شرير يا يوسف.

وضعتُ يدي على قلبي من هَول ما سمعتْ، لم أقاطعه تركته يُكمل.

ـ نعم شرير، وإلا فسر لي، لماذا كل هذا الشر في الكون، لماذا كل هذه الشرور، كل هذه المصائب التي تحيط بي، فقدْتُ أمي، لم يرحمني، ثم فقدتُ أبي، لم يرحمني إلهك بعد ذلك أيضا، أصِبْتُ بالاكتئاب، لم يرحمني، اعتدى رجال رامز على جسدي ونفسي، لم يرحمني بعد، أفقدني البصر، لِمَ كل هذه الشرور؟ أبْدِ لي ـ كما تقولون ـ الحكمة من كل هذه الشرور؟

صَمَتُّ برهة لم أجبه، كنتُ أتأمل وجهه والضمادة التي تستقر على عينيه، أخرجني من غفوتي بأن أعاد السؤال على مسامعي، حينها استسلمتُ للنقاش، وأردتُ أن أضيف إلى كأس نفسِه تلك القطرة، ولا أدري هل ستكون قطرة هدم أو بناء، قلت له:

ـ كلامك يا صامد يدل على أنك تؤمن بهذا الإله، لكن تَعيب عليه كما تزعم أنه يتصف بالشر، هل استنتاجي هذا صحيح؟

ـ لا تسألني أجب فقط.

ـ حسنا، سأجيبك، وسأفهم من كلامك أنك لا تعترف بالإله، لكنك تفترض وجوده فقط، وجميل أن أذَكِّرَك بأن أول من تكلم في مشكلة الشر ليجعلها دليلا على عدم وجود الإله هو "ديموقريطس" فيلسوف إغريقي، وقيل إنه "أبيقور"، هو من فعل، وكانوا يقولون كما تقول

الآن، فإذا وُجد إله عالم بالخير للعالَم، فإنه لن يوجد في العالم شر، وبما أن في العالم شر إذن لا يوجد إله، وهذا الكلام غير صحيح، وسأضرب لك مثالا على ذلك، تصور أن رجلا له ابنان متشاكسان يفعلان أفعالا شريرة، ويقع عليهما ذلك، وهو عليم بذلك وقادر عليهما، وبالتالي إذا قُلنا إن ذلك شر فيجب أن ننفي وجود الأب، وهذا لا يصح، هذا من جهة، من جهة أخرى فإن الإلحاد في حد ذاته لا يُفرِّق بين الخير والشر، لسبب بسيط وهو أن الإلحاد لا يعترف بالأخلاق لأنها غير مادية وهو يعترف بما هو مادي فقط، وهذا كلام ريتشارد داوكينز وغيره من الملحدين، يقول داوكينز: "من الصعب جدا الدفاع عن القيمة الأخلاقية المطلقة على أرضية أخرى غير الدين"، يعني أن الاغتصاب بالنسبة لي شر، بالنسبة للإلحاد أنَّ مَن يعتبر الاغتصاب خطأ وشرا هو أمر اعتباطي تماما، وهذا ما قاله داوكينز نفسه، يعني أن كل الشرور التي يرفضها الآخر هي بالنسبة للإلحاد ليست بشر، فالقتل والاغتصاب وأكل لحوم الأطفال والأصدقاء ليس شرا، فهو من قال: "داخل العالم الإلحادي المادي الحتمي لا يمكن تخطئة هتلر" نعم يا صديقي صامد، ما فعله "هتلر" من دمار وقتل لا يمكن في الإلحاد اعتبار ذلك خطأ، ويقول داوكينز مرة أخرى، "إن الكون بلا غاية بلا شر ولا خير، لا شيء سوى قسوة عمياء لا مبالية"، يقول أيضا: "قتل الأجنة عمل محايد"، ويقول: "أكل لحوم البشر لا مانع منه بشرط أن يكونوا من الأعداء لا

من الأصدقاء"، ، وحتى لا تفهم أن هذا كلام داوكينز فقط، فسأستدل بأقوال ملحدين آخرين، فمثلا الملحد سام هريس يذهب مذهبا أكثر مما ذهبه داوكينز فيقول: "لا مانع من قتل الأصدقاء والأعداء طالما يحملون أفكارا مخالفة"، وبالتالي فالإلحاد لا يعترف بالأخلاق، والأخلاق هي من تفصل الخير عن الشر، فموت الناس في حروبٍ وقتال أو حوادث طبيعية كل ذلك ليس شرا، بل إن مِن الملحدين مَن تسببوا في دمار أمم وحضارات ولم يعتبروا ذلك شرا، وخلاصة كلامي أنه لا داعي للحديث عن الشر في ساحة الإلحاد، فالألحاد المادي لا يُفرِّق بين الخير والشر، ولا يُدرك كُنههما، فكيف يعترف بوجودهما.

ـ حسنا، بعيدا عن ساحة الإلحاد، سأفترض أن الإله موجود، إذن لم كل هذا الشر من هذا الإله؟

ـ بما أنك دخلت معي للنقاش في ساحة الإيمان، فاسمع مني، الشر شران، شر يتسبب فيه الإنسان، فهو مَن يتحمل مسؤوليته، وشر لا دخل للإنسان فيه، وفيه حِكَم سأفصلها.

أما الشر الذي صدر من الإنسان، فهو مَن يتحمل مسؤوليته، فالذين اعتدوا عليك يا صامد، يُعتبر فِعلهم ذلك شرا، وهم من يتحملون مسؤوليته، والله يكره ذلك الشر لأنه ظلم، وهو لم يُجزه، لكن لن يمنعه؛ لأن الدنيا دار ابتلاء للعباد، فالاغتصاب والقتل

والحروب والدمار بالقنابل النووية، الإنسان هو من قام بها، وهو من يتحمل مسؤوليتها، فأنت يا صامد إذا ظلمتَ إنسانا يوما، فذلك الظلم الذي هو شر لا تَنْسُبه للإله فأنت من اقترفه، وإلا كل من أراد أن يبطش بعدوه يفعل ذلك ثم ينسب ذلك للإله، فعندما اعتدى رامز علي، فهل كان ينتظر مني أن أقول له إن ذلك مُقدر من الله، وأن ذلك الشر من الله؟ طبعا لا، بل هو من يتحمل تبِعاته.

أما الشر الذي لا دخل للإنسان فيه، فإما أن يكون سببه الطبيعة أو حدث عن طريق الخطأ مثلا، أو عبارة عن ألم ومرض، فلأن الكون لا يمكن تصور وجوده بدون وجود هذه المعضلات، ومادام في الكون ثُنائية الأشياء من أبيض وأسود، وطويل وقصير، وقوي وضعيف، ومَلك ومملوك، فلابد كذلك من وجود ثنائية للصحة والمرض، والألم والسلامة، فكيف نعرف معنى الصحة إذا لم نعرف معنى المرض؟ وكيف نعرف معنى السعادة إذا لم نعرف معنى الشقاء؟ وكيف نعرف معنى الارتياح إذا لم نعرف معنى الوجع؟ فلولا الأمور السيئة لما عرفنا الأمور الجيدة، فالأضداد تُعَرِّفنا بحقيقة الأشياء، كما أن الشر قد يكون خيرا في حد ذاته، نعم قد يكون خيرا، فربما سمعتَ من فاته سفر مع صُحبة فأدرك فيما بعد أن ذلك السفر الذي فاته واعتبر فواته في البداية شر أصابه، هو في الحقيقة خير له؛ لأن السيارة التي تُقل صُحبته حدث لها حادث سير فماتوا جميعا، وحتى لا أذهب معك في الأمثلة بعيدا، سأعطيك مثالا وقع معك،

عندما قصدت الغابة للانتحار، ألم يكن اعتداء رامز عليك خيرا وليس شرا مطلقا؛ لأن ذلك الشر منعك من الانتحار، فلولا حصول ذلك الشر، لحصل شر أعظم منه وهو انتحارك.

حرك صامد رأسه موافقا، وكأني بدأتُ أرى عناده وكبرياءه يتلاشى، حينها أكملت كلامي، أما الكوارث الطبيعية فَوَفْق ما يقوله العلم، فإن لهذه الكوارث مُسبباتها، والله سمح بها ابتلاء للعباد، أيصبرون أم يَجزعون؟ فأنت اجتزت عدة امتحانات دراسية ومهنية، أكنتَ تتصور أن هذه الامتحانات يجب أن تكون دون معوقات ودون سهر لليالٍ، ودون تعب وإجهاد، دون ضيق وقتٍ وخوف؟ طبعا لا، وكذلك امتحان الدنيا لابد فيه من معوقات وتعب وسهر، إذن الابتلاء لا بد له من شر وإلا فلا معنى له.

من ناحية أخرى فالطبيعة بها قوانين تسمح بحدوث الزلازل والأعاصير وغير ذلك من الكوارث، وفي الوقت نفسه لا يمكن أن تكون الطبيعة دون هذه القوانين، وإلا لخضع الوجود للفوضى والعشوائية، أي إننا نعيش في إطار السبب والنتيجة لهذه القوانين الطبيعية.

ومن حكمة هذه الشرور والتحديات الطبيعية أيضا أنها تدفع الإنسان إلى بذل الجهد لمواجهتها، مما أدى إلى ترقٍ مادي وتقدم حضاري ملحوظ، ولولا هذه الشرور لما تقدم الإنسان حضاريا.

كما يؤدي ما يواجهه الفرد من هذه الابتلاءات إلى ترق روحي وقيمي نستشعره عند مواجهة المحن.

ثم إن الصبر على الابتلاءات وما يحققه من ثواب وترقٍ في الحياة الأخرى هو التفسير الأكمل لمعضلة الشر والألم.

وأخيرا فسؤالي لك، هل الحياة الخالية من الشر بالشكل الذي نتخيله ستُرضي الإنسان؟

كان صامد يُنصت باهتمام، لم يقاطعني، أنهيت شرحي لصامد وأنا أجاهد ألا أثير مشاعره أو أستفزه، كان على غير عادته، يُنصت، لا يقاطع، لا يعاند، بل رأيتُ الارتياح على وجهه، وليتني اخترقتُ قلبه لأرى ما فيه.

*****

ظننتُ أن صامد انتهى من تساؤلاته وأن تلك القطرة قد شرب منها حتى ارتوى، لكن يبدو أن هناك قطرات أخرى يريد أن يملأ بها كأسه، سألني سؤالا آخر وألح علي كي أجيبه عنه.

ـ الإله لا يتصف بالشر، حسنا هو إله رحيم، لكن إله من هذا الذي تقصده؟ أإله المسلمين أم إله اليهود، أم إله النصارى، أم البوذيين أم

الهندوس أم غيرها من آلهة الديانات الأخرى، فيوجد أكثر من إله في حضارات الغرب وحدها؟

ـ لا، هذا الكلام غير صحيح، لا يوجد خالق في كل الديانات إلا الله، كل الديانات تعترف بوجود الإله أولاً، ثم يشركون به، فيسوع أو روح القدس في النصرانية، وشيفا وبراهما وفشنو في الهندوسية وبوذا في البوذية اتخذوهم آلهة مع الله، فكل الديانات تؤمن أن خالق الوجود هو الله، فهل سمعتَ يوما أن البوذيين يقولون إن من خلق الكون هو بوذا؟ ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ﴾

ـ إذا كان الأمر كذلك، فلم الإسلام هو دين الحق دون غيره من الأديان الأخرى؟

ـ الإسلام ليس بدعا من الأديان، وليس دينا منعزلا، إنما هو تصحيح لمسار الديانات التي انحرفت، وإعادة لمنهج أنبياء العهد القديم مِن لَدُن آدم إلى نوح وصالح وأيوب وهود وإبراهيم وموسى وعيسى، فعقيدة هؤلاء جميعا هي عقيدة "الرب إلهنا رب واحد" بلفظ التوراة والإنجيل، هذه العقيدة لا تعرف تثليثا ولا أقانيم ولاموت آلهة منتحرة، موت يسوع على الصليب في معتقدهم، ولا انتزاع آلهة من آلهة، انتزاع روح القدس من الأب، ولا آلهة قومية، فالإسلام هو الدين الوحيد الذي يُوحِّد الإله، ويعترف بإله واحد، ونحن قد تحدثنا

من قبل أنه لا يمكن أن يكون في الأرض إلهين أو أكثر، كما أن الإسلام هو الدين الوحيد الواقعي والمنطقي الذي يُساير حياة الناس، فمثلا البوذية تنظر إلى الوجود نظرة تشاؤمية، وغايتها التخلص من الوجود، وهذا منافٍ لفطرة الإنسان، وعندهم فكرة تكرار الولادات، أي إن الشخص عندما يموت يحل فيه شخص آخر، بل هذه الديانة تخالف العلم وتقول بأزلية الكون، وأن الكون ليس له بداية، كما أن البوذية تدعو إلى التقشف وشظف العيش وخشونته، فهم يكتفون بوجبة واحدة في اليوم، بل يَتَسَوَّلونها.

أما الهندوسية فهي عقائد وشعائر وطقوس متنوعة، ولا إشكال عندهم في تنوع هذه العقائد، وهنا إشكالية عظمى، فكيف لعقيدتين مختلفتين متناقضتين أن تكُونا كلتاهما صحيحتين، وعندهم عدد لا يُحصى من الآلهة، وإن كانوا يؤمنون بالله، وهذا مناقض للعلم، ويعتقدون أن الإله يتجسد في مخلوقاته، فمن الإله ومن المخلوق بناء على هذا المعتقد؟

أما أهل الكتاب من النصارى واليهود فقد حرَّفوا دينهم، أما اليهودية فقد أصبحت دينا قوميا لا يدخله إلا من كان أبوه وأمه كلاهما يهوديين، وأما النصرانية فأصبحت عقيدة الفداء والصلب وهي عقيدة تخالف عقيدة جميع أنبياء العهد القديم، فلم يكن نبي من الأنبياء يؤمن أنه لابد من الخلاص بموت يسوع على الصليب، "المسيح لم يأت كذبيحة بل جاء رحمة"، "المسيح جاء لا ليدعو

الأبرار بالعمل الكفاري على الصليب، إنما جاء ليدعو الخطاة إلى التوبة ككل الأنبياء" هذا ما تقرره كتبهم، ففي الإنجيل متى الإصحاح 9 العدد 13: يقول المسيح: "إني أريد رحمة لا ذبيحة لأني لم آت لأدعو أبرارا بل خطاة إلى التوبة"، ويقول أيضا في إنجيل مرقس 19/21: "إن أول كل الوصايا هي: "اسمع يا إسرائيل، الرب إلهنا رب واحد"، وفي مرقس الإصحاح 12 العدد 32: "الله واحد وليس آخر سواه"، وفي لوقا الإصحاح 24 العدد 19 يقرر أن عيسى هو إنسان وليس إله، "يسوع الناصري الذي كان إنسانا نبيا مقتدرا في الفعل والقول أمام الله وجميع الشعب" فهذا اعتراف أنه إنسان وليس إلها، و"الله ليس إنسانا" كما قرر ذلك لوقا في الإصحاح 23 العدد 19، فكتبهم نفسها تقرر أن الله واحد، لكنهم حرفوا ذلك، ولما انحرفوا وحُرِّف دينهم، أرسل الله سبحانه رسوله الكريم محمد صلى الله عليه وسلم بدين كل الأنبياء الذي هو الإسلام ليصحح هذا الانحراف، وليُعيد الناس إلى التوحيد، فالإسلام ليس فيه شيء من هذه التناقضات، نعم، يبحثون فيه عن شبه وشبهات، لكنها شُبه واهية لا تدوم أمام الدلائل والبراهين التي تُفند كل هذه الشبه وتأتي عليها كريح عاصفة.

حينها، حينها فقط، سمعتُ منه تلك الكلمة، تلك الكلمة التي قالها نبي الله إبراهيم، تلك الكلمة التي أزعم أنها أسعد كلمة سمعتها في

حياتي، نعم قالها صامد، قالها، قالها، اعترف بها، قالها صامد كما هي:

ـ ﴿قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَى وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾، أنا أيضا أقولها لك اليوم يا يوسف، كنتُ أردتُ أن يطمئن قلبي، وإلا فإن الإيمان كان فيه بعد أن أنقذني الإله من الانتحار، بعد أن وعَدْتُه إن هو كان موجودا أن يتدخل ليمنعني من الانتحار، وقد فعل، وسأبر بعهدي وأقول: "أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدا عبده ورسوله".

*****

(36)

(صامد)

عودة البصر والبصيرة

أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدا عبده ورسوله، أقولها صِدقا، أقولها حقا، لا نفاقا لا كذبا، أين ذهب عني عقلي؟ أين اختبأ المنطق عن ذهني؟ كيف تحملت أن أعيش سنة كاملة أنكر من يرزقني؟ أنكر من أراني جمال صنعه ببصري، من أسمعني نغمات الحياة بسمعي، من أنطق لساني بالكلمات، لولاه ما رأيتُ، ما سمعتُ، ما تحرك الفؤاد في جنبات صدري، أعاقل مَن يُنكر مَن خلقه؟ أواع من يُلحد وآيات الآفاق والأكوان والأنفس تملأ الأرجاء؟ أترجاك يا من أبدع الخلق، وأحسن الصُّنع أن تتجاوز عن مُلحد رأى آياتك تترى ليل نهار فعاند وتكبَّر، ثم فكَّر وقدَّر أن يُهَيِّئ في نفسه قولا طاعنا يُنكر به وجودك، ثم فكَّر فيما هيَّأه من كلام فأعجبه كأنه اقتنع به، وهو في قرارات نفسه غير مُقتنع، ولا قوله مُقنعٌ، ثم اكتأب وبسر وقطّب وجهه لمَّا ضاقت به الحيل، ورأى أن بضاعته مزجاة لا يُمكن

بها أو بغيرها هدم فكرة وجود الإله، ومع ذلك استكبر وتكبر وعاند ورجع معرضا عن الحق، وتعاظم في نفسه أن يعترف به، لكن إلى متى؟ هل حتى تأخذ يا إلهي روحي؟ إلهي صِدقا أقولها أنا عائد إليك تائب إليك، أُقْبِلُ عليك فاقبَل أوبتي ورجوعي إليك.

كنتُ أردد تلك الكلمات وقد جثوتُ على ركبتي، أقبض بقبضتي على رمال شاطئ البحر غارق في بكاء مرير، غارق في نحيب ونشيج، أحس بأني لأول مرة أبكي صادقا، أول مرة أتذوق حلاوة الندم، نادم على عجرفتي، نادم على كبريائي وتكبري.

لم يشأ يوسف أن يقترب مني، تركني أحِسُّ بمعنى البكاء، وأتذوق مذاق الدموع، وأسمع حشرجة صوتي تخرج مني لا من غيري، تركني أعيش لحظات لم أعشها يوما في حياتي، لا يريد أن يَحرمني منها، كان ساكتا صامتا كأنه غير موجود، وبعد أن هدأ روعي، ضمني إليه، عانقني بحرارة، وحينها فقط أحسستُ بدمعاته تترقرق في مقلتيه، ثم تتسلل على خديه.

ـ هنيئا لك عودتك إلى رياض المسلمين، أقسم أني سعيد بأن وجدتَ طريق الحق.

ـ هذا بفضلك بعد فضل إلهي علي، أنت من كان سببا في عودتي إلى الإيمان.

ـ بل أنت من سعيتَ نحو الحق، وبحثتَ عن الحقيقة، فكم مِمَّن استطابوا الإلحاد وأعرضوا عن البحث عن طريق الحق.

ـ أتعرف يا يوسف، في خضم هذه المصائب التي نزلتْ على رأسي، موتُ أمي ثم أبي ثم الاكتئاب الذي أصاب نفسي، ثم اعتداء رامز علي، وأخيرا فقداني لبصري، في خضم هذه النكبات اخترتُ أن أعترف بوجود الإله وأن أُسْلِم له حتى لا يظن أحد أني آمنتُ بالله في رخاء، بل آمنت به في شدة، وأنا صابر وراض بما يُقدره لي، فليكن ما يريده إلهي فأنا له عبد خاضع مُطيع.

أحسستُ بإيمان عجيب نزل على قلبي، بطمأنينة وسكينة ما تذوقتهما طيلة حياتي، حتى لما كنتُ أدَّعي أني مسلم، أحسستُ بشعور لا يوصف، أهي السكينة؟ بل أكثر، أهو الأمن والأمان؟ بل أعظم، أهو التصالح النفسي؟ بل أشد من ذلك، صَدِّقوني، شعرتُ شعورا حقيقيا لا خيالا أن صامد الملحد خرج مني خروج الثعبان من جلده القديم، رأيتُ صامد الملحد يخرج ويقفز في البحر غارقا فيه، تتبعته ببصري وهو يغرق ويستنجد حتى خَفتَ صوته، وتوقفت حركته، بينما كان صامد المؤمن بالله، ينظر إليه في دعة وحبور، وما هي إلا لحظة حتى قفز صامد المؤمن إلى البحر، لا لينتحر أو يَغرق فيه، بل ليغتسل من ذنوبه، ليغتسل ويصلي أول ركعة لله، اغتسلتُ وصليتُ ركعتين، هما أحلى ركعتين في حياتي.

ـ أخيرا وجدتَ الطريق، هنيئا لك يا ولدي، أمك في الروضة الخضراء تنتظرك، هنالك الحبور الحقيقي، ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ﴾.

هذا الصوت أعرفه، سمعته من قبل، طبعا مَن غيرُه؟ العجوز، الشيخ العجوز.

ـ هل هو؟ هل الشيخ العجوز؟

سألت يوسف فأجابني: نعم، هو بشحمه ولحمه، كان صوته يأتيني من بعيد، كان يقف في تل مرتفع بعيد كما أخبرني يوسف.

ـ اقترِبْ أيها الشيخ، أريد أن أشكرك على صنيعك.

أخبرني يوسف أنه قد مضى في طريقه كعادته، فوعدتُ يوسف أن أزوره بعد عودتي من موعدي مع الطبيب.

اليوم سأزور الطبيب، لي معه موعد ليكشف عن عيني، سيُخبرني بقراره الأخير، هل سترى عيني الحياة أم لا؟ هل سيدخل النور إلى بصري كما دخل إلى بصيرتي؟ الآن سأرى الحياة بقلبي بشكل مختلف، فهل سَيَمُنُّ إلهي علي لأرى الحياة بعيني بشكل مختلف أيضا، كنتُ خائفا ومرتعشا عندما تركْنا شاطئ البحر وراءنا، ونحن متوجهون نحو المستشفى، كان يوسف كعادته متفائلا، يربط على قلبي بوجوده معي، بوجود مؤانسته لي.

ـ صامد تفاءل خيرا، بإذن من قذف الإيمان في قلبك سيقذف النور في بصرك، هذه إشارة ربانية تقول لنا أن مَن وهبك إيمان البصيرة سيهبك نور البصر.

استمر الطريق كله هكذا يُطمئنني حتى غلب على ظني أن بصري سيعود لي لا محالة، لا أدري كيف قطعنا كل تلك المسافة حتى وجدتُ نفسي في المستشفى، بل في القاعة التي سيكشف فيها الطبيب عن عيني، سيُسفر الضمادة عنهما، هل سيَغْدِران بي في هذه اللحظة التي أحتاجهما معي؟ استلقيتُ من جهة ظهري على السرير، جاء الطبيب، قلبي ينبض بقوة، اقترب مني، ازدادتْ دقات قلبي نبضا، وضع يده على رأسي، طبول إفريقية في قلبي، في لحظة، نعم هي ثانية فقط تغير تفكيري كله، ألا أثق في إلهي؟ إذا كنتُ أثق فيه، فلم كل هذا الخوف؟ لم هذا الرعب؟ أليس حبيبي ربي لا يختار لعباده إلا ما فيه خيرا؟ فإذا كان في عودة بصري خيرا، فاللهم أعده، وإذا كان في عودته شرا، فاللهم اختر لي ما فيه خير، اطمأنَّ قلبي في تلك اللحظات، عزمتُ أن أرضى بكل ما يختاره لي المنان، فلعل في منعه امتحان آخر ليَختبرني أأصبر أم أجزع؟ استقر تفكيري على ذلك ثم تابعت ما يفعله الطبيب، ها هو يزيل الضمادة ببطء شديد، بتثاقل، هل يزيلها في أسابيع؟ بل في أشهر، بل في سنوات، أمرني أن أُبْقي جفني عيني مغلقين بعد أن يُزيل الضمادة، فعلتُ ذلك، أحسستُ أنه أزالها، عيناي تركتهما مغلقتين، في لحظة طلب مني أن

أفتحهما ببطء، ببطء أفعل ذلك، ببطء، السواد الحالك ينقص يتبدد، انقلب إلى بياض ضبابي، ضباب في عيني، الرؤية تبرز، نعم أرى وجوها أمامي لا أكاد أستبينها، بدأت رؤوسهم تظهر بجلاء، أخذت الملامح تنكشف، نعم أرى، أبْصِرُ بوضوح، أبصرُ كل شيء، يوسف، الطبيب، مُعدات المستشفى، القاعة التي نتواجد بها، كل شيء، كل شيء.

لم أشعر إلا وأنا أخِرُّ ساجدا شاكرا ربي على أن أعاد لي النور إلى بصري، فرحة هائلة لم يتسع لها قلبي، عودة البصر والبصيرة في آن واحد.

ـ مَن أوَّلُ مَن تريد أن تُبشرهم بهذه البشريات، أختك أم زوجك؟

سألني يوسف، لكن لم أنس صديقي صفوان، صفوان كان سببا غير مباشر في عدولي عن الإلحاد، أليس هو الذي ألح علي أن أزور يوسف، وكانت زيارتنا ليوسف سببا في المناظرة التي تُوِّجت بما أنا عليه الآن، وكانت خيرا، ورحمة.

اتصلنا بصفوان أخبرناه الخبر، فرح فرحة كبيرة، لم ينتظر، استقل سيارة أجرة، وصل مسرعا، عانقني، احتضنتُه، بارك لي عودة البصر والبصيرة، كان يتحدث كثيرا، يريد أن يتكلم، أن يتكلم فقط، أن يقول أي شيء، أن يُظهر سعادته.

ـ والآن، ربما الوجهة البيت، لتُخبر أختك وزوجك بالأمر.

مرة أخرى أُخيِّب ظن يوسف، بل الوجهة إلى قبر أمي وأبي.

ذهبنا إلى القبور، جثوت على قبر أمي أحدثها، لقد آمنتُ بالإله العظيم يا أمي، آمنتُ بربي، لا تحزني يا أمي، سأهتم بأختي جمانة، انتظريني يا أمي في الروضة الخضراء إن شاء الله، بللتُ التراب بدموعي، لم أنس قبر أبي، طلبتُ منه الصفح، طلبت منه أن يرضى عني، وأن يكون راضيا علي، سأدعو لكما طول حياتي...

ـ ربما الآن الوجهة إلى البيت؟

ـ بل إلى الغابة أخي يوسف.

ـ الغابة! لِمَ الغابة؟

سألني صفوان مستغربا.

ـ لم ولن أنسى فضل الشيخ العجوز علي، سأزوره في كوخه في الغابة.

كانت الشمس تودعنا عندما دخلنا الغابة، كنتُ أحس بالشمس تغادرنا وهي سعيدة سعادة أصدقائي، الغابة ترحب بنا وهي فرحة الفرحة نفسها التي تنتظر أختي وزوجي، دخلنا الكوخ، لكن لم نجد الشيخ العجوز فيه، ربما خرج ليقضي بعض شأنه، انتظرناه هناك طويلا حتى أظلمت الدنيا، لم يأت، مر في تلك الأثناء حارس الغابة وهو يَرقبنا بتوجس من بعيد، اقتربنا منه.

ـ أين هو الشيخ العجوز الذي يسكن هذا الكوخ؟

ـ عن أي عجوز تتحدث، هذا الكوخ لا يسكنه أحد، هو مهجور منذ سنوات، أختبئ فيه أنا فقط أحيانا من المطر.

ـ لا، بل كان يسكنه شيخ عجوز منذ أيام فقط!!

ـ صدقني، أقول لك، لا يسكن في هذه الغابة أحد، بل لا يُسمح لأحد أن يسكن هنا، هذا أمر مفروغ منه.

عدنا أدراجنا وقد لفَّتنا الحيرة والدهشة، يتحدث بثقة أن الغابة لا يسكنها أحد، فمن أنقذني من رجال رامز يوم الحادثة، ومن أدخلني ذلك الكوخ، لم أكن أتخيل، يوسف وأختي ومن كان معهما وجداني مع الشيخ في الكوخ وأخذاني إلى المستشفى، غريب هذا الأمر.

قبل أن يفترق صفوان ويوسف معي، أخبرتُهما أني سوف أقِيم حفلة بمناسبة عودتي إلى بستان الإيمان، وكذلك بمناسبة عودة بصري، وسأقرر في ذلك الحفل موعد زفافي بزوجي أميمة، طلبتُ من صفوان ويوسف وأخته الحضور، حينها اعترف يوسف بجزء من الحقيقة التي كانت خافية عني.

ـ هل تقصد أَنْ أحضر وأختي نرمين الأستاذة التي كانت تُدَرِّسُ التربية الأسرية معك في المؤسسة.

ـ الملحدة نرمين أستاذة التربية الأسرية في مؤسسة داوكينز أختك؟!

*****

(37)

(نرمين)

الاعتراف بالحقيقة

اجتمعنا في بيت السيد فهمي - رحمه الله- اكتمل المجلس، أنا وجمانة وأميمة وأمُّها وتلميذتي براءة كنا في غرفة، وفي الصالة التي لا تفصل بينها وبين الغرفة سوى ستار من ثوب، كان يجلس فيها صامد مع يوسف وصفوان وحسن، كان الكل ينتظر أن أفصح لهم عن حقيقتي ودوري في خطة الهدم والبناء التي باشرَتْها جمانة وأميمة، الآذان صاغية، القلوب متحمسة لسماع ما خَفي عن بعضهم، استويتُ في جلستي، رفعتُ صوتي حتى يسمعني الكل، أنشأتُ أقول:

نعم أخي صامد، أنا شقيقة يوسف، منذ أكثر من سنتين عزمتُ مع أخي على مواجهة الإلحاد بكل الطرق الممكنة، أما هو فقد اختار لنفسه دراسة علومٍ تُعينه على المناظرات، فدَرَس اللغة وتمكن منها، ثم أتى على العلوم الشرعية فبرع فيها، وأخذ يدرس علم المنطق والفلسفة، ويبحث في علوم الفيزياء وعلوم الحياة والأرض وعلوم

الآلة فتمكن من بعضها، حينها وهب نفسه لمناظرة كل مَن زعم أنه ألحد عن علم واقتناع، وكانت تلك سيرته مع بعضهم عبر مواقع التواصل الاجتماعي، ومع بعضهم الآخر في مناظرات مباشرة وجها لوجه.

أما أنا فلم أتمكن مما تمكن منه أخي، حصلتُ على إجازتين، إجازة من معهد الصحافة، وإجازة في شعبة التربية الأسرية، كان في البداية همي هو مواجهة الإلحاد بمقالات صحفية، وحوارات وآراء، وبرامج توعوية، داومتُ على ذلك فترة من الزمن حتى انتهى إلى علمي أن مؤسسة "داوكينز" تحتاج أستاذة لتدريس مادة التربية الأسرية، كنتُ أعرف أن هذه المؤسسة تختار من الأساتذة أصحاب توجه معين، تختار الملحدين ومَن شابههم، حينها عزمتُ على التفكير في خطة أستطيع بها أن أكون مُدرسة لهذه المادة في هذه المؤسسة، تواصلتُ مع رامز عبر البريد الالكتروني، أخبرتُه أني أريد التدريس في المؤسسة، وأني ملحدة، لكن طريقتي في نشر الإلحاد طريقة مختلفة، فأنا ملحدة بحجاب، أستعمِلُ الحجاب تقية حتى أستميل قلوب أكبر عدد من التلاميذ، لم يجبني حينها، بعدها بيومين طلب حضوري، حضرتُ أمامه، لا أخفيكم أن مسألة الحجاب كنتُ أخاف أن تكون أكبر عائق وحاجز يُعيق خطتي عن إتمامها، لكن مع ذلك حافظتُ عليه، اقتَنع رامز بشكل مفاجئ بي، لا أدري كيف حصل ذلك؟ وكيف صدَّق بسرعة أني ملحدة بحجاب؟

طفقتُ أشتغل في المؤسسة، كنتُ مُدركة أنه ليس باستطاعتي تغيير أفكار التلاميذ بمفردي، كيف يُمكنني ذلك، والحال أن نهر الإلحاد يجري بقوة في المؤسسة، قررتُ حينها أن أسْبح مع التيار وأتظاهر بنشر الإلحاد عندما أشعر بوجود رامز يتنصتُ على دروسي، وضعتُ آلة تصوير صغيرة فوق باب قسمي الذي أُدرِّس فيه موصلة بهاتفي، أضع الهاتف على المكتب وعندما أستشعر اقترابه، أحدثهم عن الإلحاد، هكذا كسبتُ جولة مهمة، أصبح رامز يثق بشدة في شخصي.

سأتوقف هنا، سأكمل لكم قصتي مع رامز فيما بعد، الآن سأنتقل بكم إلى خطة البناء كما سمتْها أميمة، أتركها هي التي ستشرع في الحديث عنها، إليك الكلمة صديقتي أميمة.

ـ شكرا لك نرمين، سأبدأ وأقول إن نرمين صديقتي منذ فترة ليست بالطويلة ولا بالقصيرة، قرأتُ لها بعض المقالات عن الإلحاد، أعجبني أسلوبها في الكتابة، وطريقة تشخيصها لهذه الظاهرة، كنتُ أعَقِّب أحيانا على منشوراتها، لم أكن أعلم أني سأحتاجها يوما في هذا الموضوع حتى جاءت جمانة تُخبرني أن صامد قد ألحد، تأثرتُ حينها وبكيتُ، أحسستُ بالإحباط، لكن تذكرتُ نرمين ومقالاتها فعدتُ إلى نفسي أعاتبها، لم الحزن؟ ألسنا على الحق، أليس الملحدون على الباطل؟ إذا لِمَ البكاء والحزن؟ بل سأواجه هذه المعضلة بالحكمة لا بالبكاء، حينها قلتُ لجمانة، "سأعمل بما حباني به الله من جهد أن

أجتهد في إيجاد الحقيقة مع صامد، فإما أن أقْنعه فيترك طريقه لطريقي، وإما أن يُقنعني فأترك طريقي لطريقه"، كنتُ على ثقة مطلقة أني على الحق والحقيقة، وبالتالي لا يمكن إلا أن يترك طريقه لطريقي، بعدها راسلتُ نرمين وأخبرتها الخبر، طمأنتني أن الحل موجود عندها، التقيتُ بها، أخبرتني أن أخاها يوسف درس عدة علوم ليستعين بها في مناظرة الملحدين، أعجبتني الفكرة، لكن هل يُمكن لصامد مناظرته؟ التقيتُ بصامد، أخبرته أني أريد أن يستمر على إلحاده إلاَّ إذا ظهر له خطأ ما هو عليه من إلحاد، فعلتُ ذلك من أجل أن أرى مدى استعداده للمناظرة وتقبل الحقيقة كيفما كانت، وجدتُه حينها يناقشني في عدة أمور كالزواج وتربية الأبناء، حينها علمتُ أنه على استعداد لمناظرة مَن يخالفه في معتقده الجديد، تواصلتُ مرة أخرى مع نرمين، أعلمتها أننا يجب أن نجعل صامد يلتقي بيوسف من حيث لا يعلم بنا، وسأترك أخي يوسف هو من يُفصح عن خُطته في ذلك.

ـ سأكمل من حيث انتهت أميمة، بعدها جاءتني شقيقتي نرمين تُخبرني بقصة صامد وإلحاده، تريدني أن أناظره، لكن لا علم لهما بكيفية لقائي به، قلتُ لها أن تدع الأمر لي، فما عليها إلا أن تُريني صامد هذا.

بعد يومين عرفتُ صامد، في إحدى الأيام تبعته بسيارة صديقي، كان في الغابة مع رامز، كنتُ بالسيارة أراقبهما، عادا من

الغابة إلى المدينة، تبِعتهما، حينها وجدتهما يدخلان المكتبة الكبيرة، وفي لحظة ترك رامز صامد يدخل وحده المكتبة الكبيرة، وجدتها فرصة مناسبة، دخلت خلفه، تظاهرت أني أحد زُبُنِ المكتبة، وحقا كنتُ كذلك، اشترى صامد كتبا، حاولت حينها أن أستفزه حتى أربط علاقة ما بيني وبينه، وقفتُ فوق رأسه وحدثته عن رداءة طبعات الكتب التي اشتراها، نجحتُ في ذلك، تركتُ له بطاقتي الشخصية تحمل عنوان مكتبتي وهاتفي، لكن لم أكن متأكدا أنه سيأتي، كنتُ قد وضعتُ خطة بديلة لو فشلتْ هذه الخطة، لكنها نجحت بمساعدة صفوان، هو من سيخبركم بالباقي.

ـ حسنا، سأخبركم بما فعلتُه، كانت نيتي حسنة ككل من شارك في هذه الخطة، بعد أن كان يوسف يراقب صامد عن كثب، عرف أني صديقه، التقى بي في يوم من الأيام، أخبرني بمَن يكون؟ وأنه يود مناظرة صامد، طلب مني أن آتي به إلى المكتبة، رفضتُ ذلك، اعتبرتُ ذلك خيانة لصديقي، لكن أقنعني أنه يود مناظرته، وأن كلاهما يبحثان عن الحقيقة، قال لي حينها إذا كنتَ تحب صديقك حقا فيجب مساعدته ليجد طريق الحق، فإما أن يتبين له أنه على الحق فنتركه لذلك، وإما أن يتبين له أنه على الباطل فنرشده للحق، وافقتُ على أن تكون مهمتي هي أن أقنع صامد بزيارة المكتبة فقط، ذلك ما نجحتُ فيه عندما حدثني صامد عن يوسف الذي التقاه في المكتبة، ألححتُ عليه بزيارتها، ولمَّا زرنا المكتبة، تظاهرتُ أني أتعرف على

يوسف لأول مرة، لكن بعد أن هدَّد رامز صامد، وخيَّره بين الانتهاء من زيارة يوسف أو سيكون له معه شأن آخر، حينها خفتُ أن يفقد صامد عمله وأكون السببَ في ذلك، فألححتُ عليه مرة أخرى بألا يزور يوسف، لكن عناده وكبرياؤه لم يتركا له مجالا، شرع من حينها يزور يوسف في مكتبته ويناقشه ويناظره، أما أنا فبعد كل مناظرة أحسست كم كنتُ في طريق بعيد عن طريق هذا الخالق العظيم للكون، فقد جعلني يوسف أستفيق من لهوي ولعبي، فبدأتُ أعود إلى الطريق المستقيم رويدا رويدا. أتوقف هنا، أترك أختي جمانة ربما لها ما يمكن أن تقوله.

ـ نعم أحب أن أشارك في هذا النقاش، وأظهر بعضا من الحقيقة، فخطة أميمة أعجبتني، أعلمتني بها فيما بعد، وأحب أن أقول إن المناظرة التي كانت تجري بين يوسف وصامد كنتُ وأميمة نستمع لها عن كَثب، فقد كان يوسف يسجلها ويعطيها لأخته، وهي بدورها ترسلها لأميمة، ونشاهدها معا، وكنا نتابع تقدم أشواط المناظرة بشكل مذهل، حينها أحسسنا أن الخاتمة ستكون خيرا، فمَا علينا إلا الصبر.

أنا لم أشارك في خطة البناء كثيرا، لكن شاركت في خطة الهدم، في يوم من أيام بؤسنا، استيقظ والدي ـ رحمه الله- يريدني أن أكون معه من أجل التوجه إلى مؤسسة "داوكينز"، كان متأكدا أن لها دورا في إلحاد صامد، عندما كنا بالقرب من المؤسسة التقينا ببراءة،

كان لها دور في تسجيل الشريط الذي انتشر في مواقع التواصل الاجتماعي، هي من ستخبركم عن خطتها ومن ساعدها.

ـ سآخذ منكِ الكلام صديقتي جمانة، نعم كان لي دور في تسجيل الشريط، لكن بمساعدة نرمين، لم أكن في البداية أعلم أن أستاذتي نرمين إلا ملحدة حتى التقيتُ بالسيد فهمي وجمانة، أخبرتني أنه يمكن أن أستعين بها في الخطة التي رسماها وهي تسجيل شريط صوتي يُظهر دور مؤسسة "داوكينز" في نشر الإلحاد، كانت نرمين سعيدة بهذه الخطة؛ لأنها تَصبُّ في هدفها نفسه الذي جعلها تلج المؤسسة، بعد الاتفاق على الخطة، أخبرتني أستاذتي نرمين أن اجتماعا في قاعة الأساتذة سيجمعهم قريبا، وأن رامز أَلِفَ أن يتحدث بعد النقاش عن الإلحاد، وعن طُرق نشره بين التلاميذ، خلاصة القول إن أستاذتي نرمين مكنتني من مفاتيح قاعة الأساتذة، أتتْ بها من مكتب المدير الذي يتركه غالبا مفتوحا، دخلتُ القاعة في غفلة عن مديرها، وضعتُ بها آلة التسجيل، كانت أستاذتي تراقب المدير عندما دخلتُ، وبعد انتهاء النقاش فعلنا الشيء نفسه، عدتُ وأخرجتُ الآلة، وباعتبارها صحفية، هي من قامت بنشره باسم مستعار في المواقع الالكترونية، وسنعود مرة أخرى لأستاذتي نرمين لتكمل ما حدث.

ما حدث أن تلك الخطة فشلتْ، ظهر لنا أن رامز له علاقة بالسلطة، وبالتالي لم يكن ذلك الشريط كافيا في أن يُغلقوا مؤسسته، بعدها حفر رامز لنفسه حفرة أتانا بها الله دون أن يكون لنا فيها يد،

جاءني يستشيرني، أو يخبرني أنه يريد أن يأخذ التلاميذ والتلميذات إلى شقته لأدَرِّسهم التربية الجنسية بطريقة جديدة، دراسة شبه تطبيقية كما عبَّر عن ذلك، كنتُ أعرف نيته، أعرف ما يُخطط له، فبما أنه تمكن من كل الأستاذات اللواتي يُدَرِّسن في مؤسسته، كان يُفكر أن الدور هذه المرة علي، وفي الوقت نفسه، سيُمكن التلاميذ من بعضهم البعض، حين استدعاني إلى مكتبه، خرجتُ إلى المرحاض، فتحتُ التسجيل الصوتي في هاتفي، سجلتُ كل ما قاله وما ينوي فعله، أخذتُ الشريط إلى رجال الشرطة، أخبرتهم باليوم الذي عزم فيه القيام بفعلته مع التلاميذ، انتظرتْ الشرطة حتى ذلك اليوم، كنتُ معهم حينما كان رامز يتصل بي، يحثني على الالتحاق بالمؤسسة، قلتُ له حينها أن يسبقني إلى شقته وسأكون فورا على أثره، فعل ذلك، التحقت بالشقة مع الشرطة في سيارتهم، اقتحموا الشقة، وجدوا أفعالا مخلة بالحياء والأدب، أمسكوا به واقتادوه إلى مخفر الشرطة، وبالمناسبة فالجلسة النهائية لمحاكمتِه، موعدها يوم غد، فلابد أن نحضر معا هذا العرس الاحتفالي.

هذه هي خطتنا، خطة البناء والهدم، فما رأيك أخي صامد فيها؟

ـ صدقوني أني ذهلتُ واستغربتُ، إذن كل ما حصل لم يكن صدفة، بل كل شيء خططتم له بإحكام، كل هذا من أجل أن أرى طريق الحق، لا يَسعني إلا أن أشكركم كلكم، شكرا لكم على أن ساهمتُم في الرد بي إلى طريق الحق، شكرا لك يوسف، شكرا صديقي صفوان،

شكرا أختي جمانة، شكرا لك زوجي أميمة، شكرا لكِ أستاذة نرمين، شكرا لك تلميذتي براءة، وبما أننا في جو فُجائي مليء بالمفاجآت، فأني أعلن اليوم أن زفافي الذي سيجمع بيني وبين أميمة سيكون بعد شهر من اليوم فتهيأوا كلكم لهذا العرس، وطبعا بعد موافقة حسن وأمه، ما رأيكما؟

ـ بارك الله لكما وبارك عليكما وجمع بينكما في خير، هذا ما أستطيع أن أقوله لك أخي صامد، كما أعتذر عن شدتي معك، وسوء تصرفاتي، وبحق فقد كنتَ سببا في عدولي عن غُلوي وتشددي، فلم أكن أعلم أن استقامتي وتركي للتشدد والغلو ستأتي على يد ملحد.

*****

في المحكمة كان الكل حاضرا، صامد يجلس مع يوسف وبجانبه صفوان ثم حسن، وأسفل من ذلك المقعد على الجهة الأخرى منهم تجلس جمانة مع نرمين ومعهما أميمة وبراءة، الكل ينتظر ما سيُسفر عليه قرار القاضي في حق رامز، رامز يحاكم في أربع قضايا، وثلاثة رجاله يحاكمون في قضيتين، القضايا التي يحاكم فيها رامز هي نشر الإلحاد في مؤسسته وعدم احترام ثوابت البلد، وقضية تشجيع تلامذته على ممارسة الفاحشة في شقته، وقضية إعطاء الأوامر للاعتداء على يوسف بالضرب والجرح

غير المفضي للموت، ودون حدوثه، ثم القضية الأخيرة تتعلق بإعطاء أوامره للاعتداء بالضرب والجرح على صامد بنية القتل، ودون حدوثه، أما رجاله، فيحاكمون بتهمة مباشرة الضرب والجرح بغير نية القتل في قضية يوسف، وبنية القتل في القضية صامد، دون حدوث القتل في كلتا القضيتين.

عندما وقف الأربعة أمام القاضي ليسمعوا الحكم النهائي عليهم، كان صامد يستغرب من الثلاثة الواقفين مع رامز للمحاكمة، لقد تعرَّف عليهم، فهم مِن الملحدين الذين وجدهم في البيت المتواجد قرب شاطئ البحر في أقصى المدينة، يوم ذهب مع رامز في تلك الليلة المشؤومة التي كان ينتظر منهم أفكارا وعلما، وإذا به يجد عندهم جنسا وشهوات فقط.

ضرب القاضي بمطرقته ثلاث ضربات معلنا نطقه بالحكم في هذه القضايا، خيَّم الصمت على قاعة المحكمة، شرع القاضي في النطق بالحكم.

حُكم على رامز ب 14 سنة سجنا نافذا، وتعويضا ماليا يُعطى لصامد ويوسف، الأربع عشرة سنة مقسمة بين القضايا الأربع، سنتان لإساءته لثوابت البلد ومنها الإساءة للدين الإسلامي، سنتان لتشجيعه القاصرين على الفساد الأخلاقي، ثلاث سنوات في القضية التي أعطى فيها الأمر لرجاله للاعتداء على يوسف بالضرب

والجرح بدون نية القتل ودون حدوثه، وسبع سنوات في قضية صامد التي أمر رجاله فيها بالضرب والجرح بنية القتل ودون حدوثه.

أما رجاله فحُكم على كل منهم في القضيتين بسبع سنوات سجنا نافذا.

في هذه اللحظات حيث كان يتابع الكل كلمة القاضي وحُكمِه، كان يوسف في واد آخر وفي عالم آخر، كان يراقب جمانة مِن طرف خَفي قَصي، لم يُزل بصره عنها، التفتتْ أخته نرمين فرأَتْه قد سها ذهنه، ساهيا في واد وفؤاده قد أخذ يمتلئ حبا، انشغلتْ عيناه عن كل شيء إلا عن جمانة، انتبه إلى أخته وقد رأته، تُراقبه، ابتسمتْ في وجهه، حرَّكت رأسها، فهم يوسف الرسالة والمقصد من حركة رأسها.

"نعم تصلح لك، تصلح لك زوجا، فتوكل على الله".

تمت بحمد الله

المراجع التي اقتطفت منها بعض الأفكار حسب ما استدعته الأحداث أو الشخصيات "بتصرف".

1ـ "العودة إلى الإيمان" لهيثم طلعت، ط: الثانية 2016، مركز براهين للأبحاث والدراسات.

2ـ "كيف تدعو إلى الإسلام، ملحدا بوذيا، هندوسيا، كتابيا" لهيثم طلعت، ط: الأولى 2019، مركز تبصير لتقريب التراث والرد على الشبهات.

3ـ "إما الإيمان أو الفوضى" لهيثم طلعت، ط: الأولى 2019، مركز تبصير لتقريب التراث والرد على الشبهات.

4ـ "رحلة عقل" لعمرو شريف، ط: التاسعة 2015، مكتبة الشروق الدولية.

5ـ "بين التوحيد والإلحاد" لمحمود بن حسين آل عوض، ط: الأولى 2018، مركز تبصير لتقريب التراث والرد على الشبهات.

6ـ "وجود الله"، ليوسف القرضاوي، دار المعرفة، الدار البيضاء.

7ـ الموقع الالكتروني: "الباحثون المسلمون".

8ـ الموقع الالكتروني: "ويكيبيديا".

ملاحظة: لم أعتمد الإحالات حفاظا على نسق الرواية.

الفهرس

إهداء 3

1) احتراق عقل 5

2) الحقيقة الصادمة..17

3) حياتي الثانية 25

4) خطة على السكة 36

5) غرباء في الطريق.......................................44

6) ضريبة الحب 61

7) الغرب يرفضني...67

8) جلسة أنثوية بنون النسوة 79

9) اللقاء الأول 85

10) ذكريات حزينة 93

11) الغضب يُوَلِّد الكبرياء 100

12) الصدفة 114

13) ترتيبات في سبيل الإنقاذ...........................128

14) الأكوان المتعددة.....................................139

15) خطة البناء والهدم 147

16) الملحد الحقيقي الوحيد.............................155

17) الشريط الفاضح 164

18) القوانين أو الكون أوجد نفسه بنفسه...............171

الانفجار العظيم...177

19) فشل الخطة...189

20) الانتقام المعاكس...195

21) اضطراب أمواج العقل..197

22) في عداد الأحياء..212

23) لنا في الحياة لقاء...216

24) بناء الحب وهدم الحدود..222

25) قوة أوجدت الكون 227

26) على حافة الجنون...242

27) التناغم 248

28) مصائب سوداء 261

29) الانتقام من الحياة...272

30) التربية الجنسية التطبيقية.......................................277

31) صراع مع الموت والحياة 282

32) قلوب تتوالى عليها النكبات....................................288

33) الروضة الخضراء...294

34) في انتظارِ الأنثى...299

35) القطرة التي ملأت القلب 306

36) عودة البصر والبصيرة 320

37) الاعتراف بالحقيقة..329

المراجع التي اقتطفت منها بعض الأفكار حسب ما استدعته الأحداث أو الشخصيات "بتصرف". 340

الفهرس 341